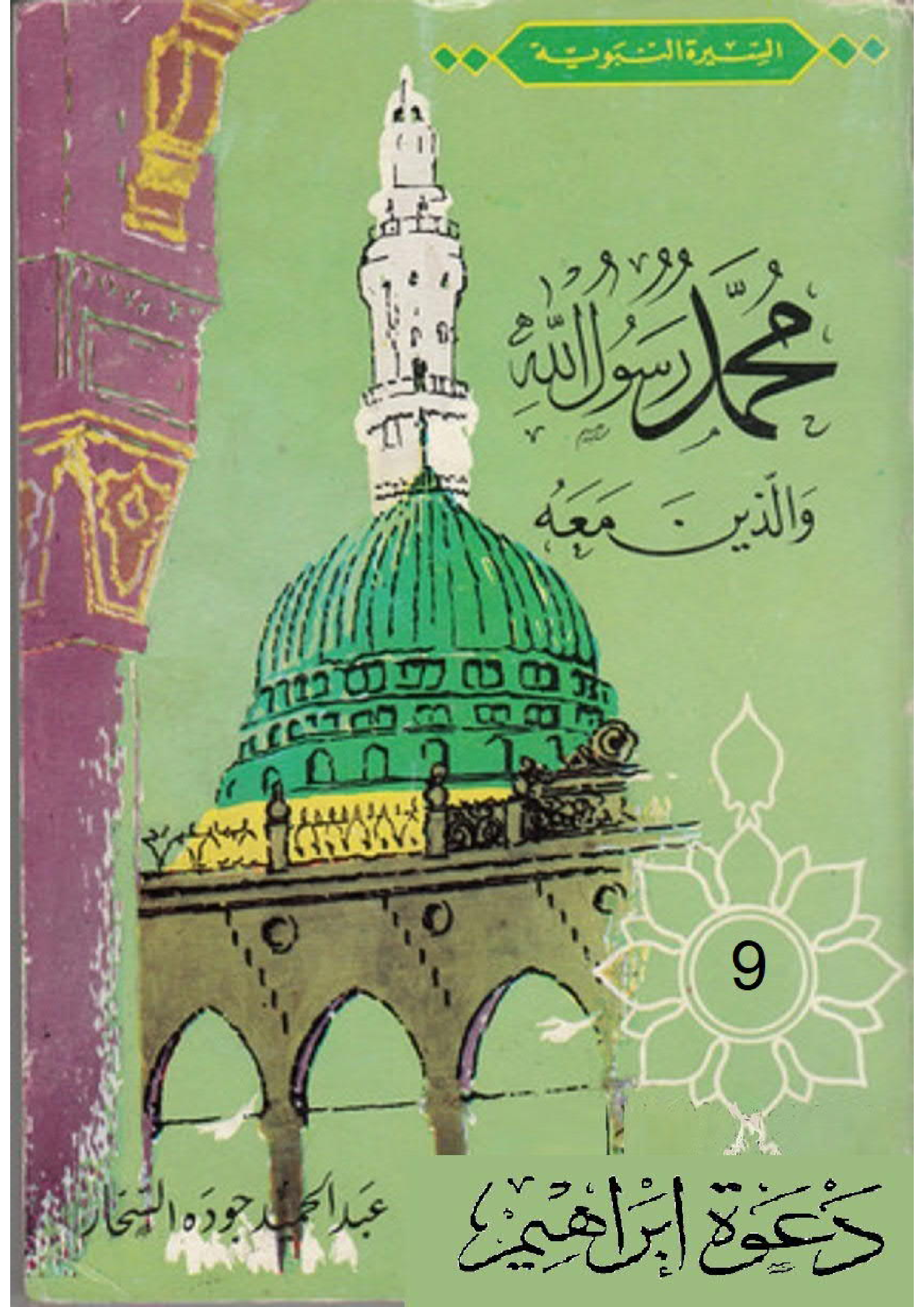

السيرة النبوية
محمد رسول الله
والذين معه
9
عبد الحميد جوده السحار
دعوة ابراهيم

السيرة النبوية



دعوة إبراهيم

عبد الحميد جودة السحار

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم * ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم * ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم ، إنك انت العزيز الحكيم ﴾ *

(قرآن كريم)

قال ﷺ :

(أنا دعوة أبي إبراهيم وبشرى عيسى) .

١

شمس تغيب ويقفو إثرها قمر ، ونور صبح وبعده حلك ، والقوافل تنساب فى معبد الكون إلى الشمال ، والرياح تهب من الجنوب ، والأرض وشي والنسيم معنبر ، قد صنع فصل الربيع الرياض عقودا ، وحلى الثرى بنجوم الثريا ، والتفت الغصون كتعانق الأحباب ، وانتشر النوار الأصفر على جبين الصحراء كتاج من الذهب النضار على رأس عروس ، ونبعت العيون بماء زلال ، وسالت الأودية بالحياة ، وراح كل ركب يلتمس الواحات فى الطريق ليسعد بطيب ظل ظليل ، وترتاح الأرواح فى الأجساد .

وكانت صوامع الرهبان علامات على الطريق ، اعتكف فيها أناس فروا من الحياة وضجيجها وانقطعوا للعبادة وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ، ما دار بخلدهم أن الانعزال عن الناس انعزال عن الدين ، فالتقوى لا تعرف الأنانية ، بل هى أن يتجاوبوا مع أنفسهم ومع العالم كله فى سبيل الخير الأسمى .

وانطلقت القوافل إلى دومة الجندل حيث سوقها السوى ، وقد نسى الناس أن أول من نزلها كانوا أبناء دوما ابن إسماعيل وكان كل ما يذكرونه أن أكيدر غرس فيها الأشجار وأعاد بناءها ، وأن بنى كلب ينزلونها وأنهم يحكمون السوق إذا ما غاب عنها أكيدر ملكها .

وجاء أول يوم من ربيع الأول فاجتمع الناس للبيع والشراء والأخذ

والعطاء ، وكانت المبايعة بيع الحصاة ، يقول أحد المتبايعين للآخر : ارم هذه الحصاة فعلى أى ثوب وقعت فهو لك بدرهم . أو يبيعه من أرضه قدر ما انتهت إليه رمية الحصاة ، أو أن يقبض على كف من حصى ويقول : لى بعدد ما خرج فى القبضة من الشىء المبيع . أو يبيعه سلعة ويقبض على كف من الحصى ويقول : لى بكل حصاة درهم . أو يعترض قطيع من الغنم فيأخذ حصاة ويقول : أى شاة أصبتها فهى لك بكذا .

كانوا يقامرون بالنهار يأكل بعضهم أموال بعض بالباطل . ويعكفون فى الليل على الخمر والميسر والنساء ويمضون الوقت فى اللهو واللعب ، فثقلت أرواحهم بأوزار الأجساد وصاروا مجرد أشياء ، آمالهم محدودة بالعالم الأرضى الذى يتنفسون فيه ، وسعادتهم مادية هابطة لا تزيد على انفعالات تتلاشى ولذة لا تدوم ، قد أوغلوا فى الحياة الحيوانية فانعدم انسجامهم مع إنسانية الإنسان .

أطلقوا عنان نزواتهم وعواطفهم فاتجهت شهواتهم ورغباتهم إلى غايات جسدية ، فأهيضت أجنحة ارواحهم وانجذبت إلى الأرض ، وسيطرت عليهم أنانية مدمرة طاغية استبدت بهم فتفككت الحياة الإنسانية ، بل صارت حياة ضارية لا تحترم . الخير الإنسانى العام . بل تقدس كل ما يجلب منافع ذاتية أو يشبع شهوة عارمة ، لا فرق بين تجارة أو مضاربة أو غارة وسلب ونهب أو سفك دم برىء أو ظلم أو دعارة ، لا تمييز بين الحلال والحرام ، قد ساد بينهم قانون الغاب .

وكانوا يتمسحون بأصنام الآلهة التماسا للرزق والعافية فى الدنيا ، وما كان محراب ربهم فى أغوار نفوسهم بل كان حجرا يحملونه معهم إذا خرجوا أو يلتقطونه من هنا أو هناك ، ومن سفاهة أحلامهم تعصبوا لتلك

الحجارة التى لم يكن لها عليهم سلطان .

وكانوا لا يؤمنون ببعث ولا حساب قد ذوى النور المقدس فى قلوبهم وذبل ، وخفت الضوء الذهبى الذى يشرق بنور ربه بعد أن قدموا البطون والشهوات على العقول ونقاء النفوس والأرواح ، فلم يكن للأخلاق جذور فى عين وجودهم ، وما كانت لهم سلطة مقدسة تتفجر منها قوانين الخير والمحبة وقواعد الأخلاق ، فسقطت كل القيم الإنسانية ، وظهر الفساد فى البر والبحر وأصبحت حياتهم فراغا وأوقاتهم هباء .

قطعوا كل العلائق بالذات العلية ، وأغلقوا نوافذ قلوبهم دون النور الإلهى ، فلم يروا داخل نفوسهم ، ولم يعرفوا ذواتهم ليعرفوا ذات الله ، وعجزوا عن أن يسبروا أغوار الكون ليرتقوا إلى ما فوق الطبيعة وإلى ما وراء عالمهم المادى ، فضلوا السبيل واستكانوا للشر واستجابوا لعواطفهم الجامحة ، وغذوا عصبيتهم وجاهليتهم بحطام أنبل المبادئ الإنسانية ، فهاموا فى طرقات ملتوية لا تقود إلا إلى الظلام .

صار الإنسان مادة تافهة ، لا يؤمن إلا بما يلمسه بيده ويراه بعينه ويذوقه بلسانه ويشمه بأنفه ويسمعه بأذنه ، فاستكان لحدوده فلم يحاول أن يصرع الشر أو يواصل حياة ثانية بعد الموت ، فإن كان سيدا أسلم نفسه للشره فى الأكل والشرب والعواطف ، وإن كان عبدا فللذل والجوع والحرمان ؛ قد ظلموا أنفسهم سادة وعبيدا .

وكانت القبائل متشاحنة قد نزلت البغضاء قلوبهم ، فالعداوات مشبوبة، والحروب دائرة، والثارات لا يخبو أوارها، والشعراء يهيمون فى الأودية يؤججون نيران الكراهية ، وسوس الفساد ينخر فى المجتمع ويشيع التحلل والانحطاط ؛ فصارت رحلة الحياة بلا هدف ، تشق طريقها فى

شعاب القسوة وبيداء الضياع وعفن البشرية .

ونسى البشر أرض الله ، فصارت فى أشد الحاجة إلى غيث من السماء يطهرها لتستمر عليها الحياة الكريمة التى تليق بالإنسان الذى قبل أن يحمل الأمانة ؛ إلى رسول من عند الله مؤيد من عند الله يعيد البعث الروحى إلى الناس ، ويرتقى بالنظرة إلى الحياة فيقتلع الشرور من نفوس البشر ويحقق انتصار الإنسان .

وتقضت أيام سوق دومة الجندل بما فيها من مقامرة وهضم للحقوق وولوغ فى الدنايا التى تحط من قدر البشر ، فانقلبت بعض القبائل إلى منازلها . وانطلق بعض التجار إلى الحيرة وبلاد فارس ، ويمم بعض التجار إلى بلاد الشام وبلاد الروم ، وتوغل بعض تجار من كلب فى البلاد الرومية حتى بلغوا عمورية .

كانت الثعالب السود تمرح فى شعاب الجبال ، والأرانب البيض تفر مذعورة إذا ما عكر سكون الفضاء وقع حوافر الخيل على الأرض الصلبة ، وفاحت روائح المسك واعترى العرب سرور لا يدرون مبعثه ، فقد كان كل من يفد إلى هذه البلاد ينعم بنشوة تملأ جوانحه .

وانساب تجار كلب فى أسواق عمورية ، كانت المتاجر كثيرة والبضائع من طرف وحرير ومصنوعات مكدسة هنا وهناك ، فراح التجار العرب يشترون بما معهم من عملات قيصر ، ويبيعون الطيب والسيوف اليمانية ، ويستبدلون العملات لدى الصيارفة الذين انتشروا فى كل مكان ليستفيدوا من فروق أسعارها .

وكان سلمان الفارسى يعيش فى عمورية على أمل أن يجد من يحملونه إلى أرض العرب بعد أن سمع من صاحبه أن قد أظل زمان نبى ، وهو مبعوث

بدين إبراهيم عليه السلام يخرج بأرض العرب مُهاجره إلى أرض بين حرتين . فلما مرَّ به التجار العرب هرع إليهم متفرحا وراح يحدثهم ، فعلم أنهم من كلب فقال لهم وهو ينظر إلى بقراته وغنيماته :

ـــ احملونى إلى أرض العرب وأعطيكم بقراتى هذه وغنيماتى هذه .

قالوا والطمع يسيل مع لعابهم والجشع يطل من عيونهم :

ـــ نعم .

وساقوا بقرات سلمان وغنيماته إلى حيث أناخوا قافلتهم ، ثم حملوه معهم يكاد يطير من شدة الفرح وقد هان كل شيء فى عينى الباحث عن الحقيقة ، فهو فى طريقه إلى النور الذى ينشده ، النور الذى هجر الأهل والخلان فى سبيله ، النور الذى يبدد القلق والحيرة والشكوك وينزل بالقلب أنوار اليقين .

انصرفت رغبته عن كل ما حصَّل من علم المجوس وعلم النصرانية ، وعن الاستقرار الذى ذاق طعمه فى عمورية ، وعن البقرات والغنيمات التى اقتناها إلى الخير الأسمى الذى ينشده ، إلى جوهر الحقيقة التى صارت هدف حياته ، فقد زهد فى الدنيا وفى كل ما تجلبه من مسرات رغبة فى سرور روحى وحبا فى انشراح الصدر الذى ينيره قلب مؤمن أشرق بنور ربه .

إنه زاهد مطلق لا يحب إلا الله ولا يريد إلا وجهه ، ترك حظ نفسه فى أصبهان وفى نصيبين وفى الموصل وفى عمورية ، وزالت عنه كل رغبة فى جمع مال أو اقتناء أرض أو متاع أو سلطة أو سلطان . ولم تبق له إلا رغبة واحدة : أن يلتقى بذلك النبى العربى الذى بُشر به وبشرت به الأنبياء ليأخذ بيده إلى طريق الحق . وهل يقوده إلى الصراط المستقيم مثل نبى !

نبذ الدنيا و لم يتخذها ربا لكيلا تتخذه عبدا ، ونبذ الشهوة فرب شهوة أورثت حزنا طويلا ، وقطع كل علائقه بالماديات فى سبيل غاية أسمى تجذبه إلى ملكوت السماء فأخرج من قلبه حب الدنيا وأدخل فيه حب الغاية التى ليس وراءها غاية ، فاختار جوع الدنيا على شبعها ، وفقر الدنيا على غناها ، وحزن الدنيا على فرحها ، وصبر على مكروهها وصبر عن محبوبها طمعا فى حياة روحية سامية تشبعه أبدا وتغنيه أبدا وتشرح صدره أبدا وتهون عليه مصائب الأيام ، فصار يرى بنور الله ويفكر بهدى رب العالمين الذى بات يحسه فى عين ذاته ، وأصبحت كل آماله ومنتهى أمانيه أن يلتقى بذلك النبى ويؤمن به ويصدقه ليعيش فى شعاع شمسه حواريا كحواريى السيد المسيح عليه السلام .

إنه جرب الرهبنة والعكوف فى الكنائس وتمضية النهار والليل فى المحاريب يردد ما لقن من ابتهالات ، غير أن طول السهر والقيام آناء الليل وأطراف النهار والاجتهاد فى الصلوات لم تشرح صدره و لم تكشف له عن لب الحقيقة ، فظلال الشك ترين على ما حاول أن يدخل قلبه من معتقدات ، وهو يريدها حقيقة ناصعة نقية بلا ظلال من ريب . فما إن سمع عن قرب ظهور نبى يأتيه الخبر من السماء حتى زهد فى الرهبنة وفى الدين الذى وجده أفضل من دين قومه وإن لم يهده الطمأنينة الخالصة ، فهو راغب فى الصفاء الذى لم تعكره أساطير الشعوب ولا أهواء الرهبان ولا مطامع القياصرة الذين فرضوا إرادتهم على المجامع المسكونية التى شرعت فى الدين ما يرضى أصحاب النفوذ والسلطان .

وانطلقت القافلة وسلمان بين الرجال وإن غاب عنهم بما فى فؤاده من أشواق وما فى رأسه من أفكار ، فلم يعد همه زينة الحياة الدنيا بل صار يرى

بعين بصيرته جمال الجمال ، بعد أن أجرى الله ينابيع الحكمة فى قلبه و أصبح همه جوهر الحقيقة ووجه الله .

وبلغت القافلة وادى القرى وقد غمرت السعادة سلمان ، فهو فى أرض العرب مبعث ذلك النبى الذى خرج فى طلبه . وزاد فى سعادته أنه أحس أن الله أراد له الرشد والهداية بعد طول التأمل والبحث والحيرة .

سار سلمان مع تجار كلب فى السوق يتلفت وإذا بالرجال الذين ما أعطاهم بقراته وغنيماته ليحملوه معهم ينظر بعضهم إلى بعض وقد أطل الغدر من أعينهم ، فانقضوا عليه وأسروه بضاعة وعرضوه بين ما عرضوا من رقيق .

ولف سلمان حزن عميق ، فقَدَ فى لحظة حريته وهو الذى عاش طوال حياته حرا ينطلق من بلدة إلى بلدة كفراشة طليقة جريا وراء وجه الحقيقة ، وزاد فى أساه أن هؤلاء العرب الذين سيخرج منهم ذلك النبى الذى سيبعث بدين إبراهيم عليه السلام قد ظلموه وباعوه لرجل يهودى عبدا ، ولم يستسلم لثورة عواطفه فما لبث أن ضاءت بصيرته حقيقة أن الأنبياء لا يبعثون إلى أقوام صالحين ، فما رآه من هؤلاء النفر من تجار كلب مذ غادر معهم عمورية إلى أن باعوه فى وادى القرى يؤكد حاجتهم إلى رسول يخرجهم من الظلمات إلى النور .

وانطلق سلمان خلف سيده اليهودى مطرق الرأس يفكر فى حكمة أسره فلم يهتد عقله إلى السر الدفين ، فما كانت عنده مفاتيح الغيب ليطلع على ما يخبئه له العليم الخبير ، وكان الأسى يعتصر فؤاده ولكنه لم يدع اليأس يتسرب إلى قلبه ، وكيف يعرف اليأس طريقه إلى قلب أشرق بالنور ؟

وراح سلمان يعمل فى أرض ذلك اليهودى ، ورأى النخل فاستبشر ، فصاحبه قال له وهو يحدثه عن النبى العربى : يخرج بأرض العرب ،

مُهاجَره إلى أرض بين حرتين بينهما نخل ، به علامات لا تخفى . فهرع سلمان يطوف بوادى القرى بحثا عن الحرتين : عن الأرض ذات الحجارة السود وقد امتلأت جوانحه بالأمل والرجاء ، ولكن فترت حماسته لما لم يجد الصفة التى حدثه بها صاحبه وإن لم يعرف اليأس إلى قلبه سبيلا .

ومرت الأيام وسلمان يعمل فى أرض سيده ، فبينا هو عنده إذ قدم عليه ابن عم له من بني قريظة من المدينة ، فلما رأى سلمان أعجب به فابتاعه من سيده ، فلم يستشعر سلمان أسى بل غمره شعور بالرضا ، فمن يدرى لعل الله قد بعث ذلك القرظي ليحمله إلى مبعث ذلك النبى الذى ينتظره أو إلى مهاجره .

وخرج سلمان مع سيده الجديد وانطلقا إلى المدينة ، فراح سلمان يقلب وجهه فيها فإذا بنشوه عارمة تغمره ، وإذا بنفث فى روعه يؤكد له أنها البلد الذى وصف له صاحبه . وما إن استقر فى أرض بنى قريظة حتى هرع ليطوف بالمدينة فإذا بفرح فياض يتفجر ينابيع من عين ذاته ، وإذا بسرور روحى عجيب يلفه . إنها أرض بين حرتين بينهما نخل ، إنها مهاجره ، إنها هى ولا ريب . وارتفعت الأسجاف عن عين بصيرته فرأى حكمة غدر تجار كلب به ، فخر إمام الزاهدين ساجدا لله يروى بدموعه الأرض ، وبات ينتظر فى صبر ذلك اليوم الأغر الذى يجتمع فيه بالنبى الذى أطل زمانه .

١

كان اليمنيون يرحلون إلى الشمال ، وكان أهل الحجاز يرحلون إلى الجنوب إلى اليمن ، وقد كثرت هجرة اليمنيين إلى الحجاز وشمال الجزيرة العربية عقب النشاط التجارى الذى قام به الرومان فى البحر الأحمر ، وبعد انهيار سد مأرب . وعلى الرغم من الاتصال الدائم بين الشمال والجنوب ، واجتماع الشماليين بالجنوبيين فى مواسم الحج وفى الأسواق ، فقد كان العداء مستحكما بين العدنانيين والقحطانيين من قديم حتى إن كلا منهما اتخذ لنفسه شعارا فى الحرب يخالف شعار الآخر ، فاتخذ المضريون العمائم الحمر والرايات الحمر ، واتخذ أهل اليمن العمائم الصفر .

وكان توالى الحوادث والوقائع الحربية يزيد فى العداء ويقوى روح الشر بينهم ، وقد كان العداء شديدا بين الأوس والخزرج الذين خرجوا من اليمن بعد انهيار سد مأرب وبين العدنانيين سكان مكة ، وكان بين القومين حزازات ومفاخرات كل يدعى أنه أشرف نسبا وأعز نفرا ، وكان اليمنيون أحق بالفخر لما لهم من حضارة قديمة وملك راسخ .

وكانت القبائل فى عداء دائم ، وكان المثل الأعلى للعربى الكامل أن يتحلى بالشجاعة الشخصية ، والشهامة التى لا حد لها ، والكرام إلى حد الإسراف ، والإخلاص التام للقبيلة ، والقسوة فى الانتقام والأخذ بالثأر ممن اعتدى عليه أو على قريب له أو على قبيلته بقول أو فعل ، وما كان أحد يفكر فى إخضاع منافعه الشخصية ومنافع قبيلته للخير العام .

وكانت أسماء مشاهير العرب تزداد تألقا كلما زادت سفاهاتهم . وكلما زادت جرأتهم على حرمة الجار بالقول أو الفعل ، وكلما انتشرت فى الأرض فواحشهم ، فكان الشعراء يتغنون بكرم لاعبى الميسر ، وشجاعة سافكى الدماء والذين يغيرون على القبائل الآمنة لسلب حرية الرجال والنساء والولدان ، ويمتدحون شاربى الخمر وكل عاهر يلعب بعقول الغوانى ويطوف بدور البغاء .

وكانت بعض لمحات من الجود ومكارم الأخلاق تومض فى ذلك الظلام الحالك ، لا لفضيلة متأصلة فى قلوب الناس بل طمعا فى ذيوع الصيت وحسن الأحدوثة وإرضاء لغرور السادة الذين يريدون علوا فى الأرض والارتقاء إلى قمم الأمجاد .

كان الفساد يجرى فى شرايين المجتمع العربى مجرى الدم ، وكانت غارات المغامرين على القبائل تتعاقب تعاقب الليل والنهار ، وكان الذين ينتزعون النساء من أحضان أزواجهن أو من كنف أسرهن لا يتسترون على أفعالهم النكراء ، بل كانوا يتفاخرون فى أشعارهم بما اقترفوا من آثام لتشيع بين الناس .

وكان فى كل قبيلة فارس يمشى فى الأسواق ويدعو الإماء والفتيات إلى نفسه ، أو يشن الغارة على قبيلة ليخطف منها امرأة أعجبته دون حياء . وقد جمع عروة الورد العبسى صعاليك قومه يغزو بهم القبائل من حوله ، فإذا أخفقوا فى غزواتهم كان يقوم بأمرهم فلقب عروة الصعاليك .

وأصابت الناس سنة شديدة فتركوا فى دارهم المريض والكبير والضعيف . وخرج عروة فى صعاليكه وقد كنف على الناس الكُنُف (اتخذ لهم حظائر يأوون إليها) فانطلق للغارة والشتاء شديد وعشيرته

تكاد تهلك من الجوع ، وبينا هو وصعاليكه يبحثون عن فريسة إذا بناقتين دهماوين ، فنحر لهم إحداهما وحمل متاعهم وضعفاءهم على الأخرى ، وجعل ينتقل بهم من مكان إلى مكان . وإذا برجل صاحب مائة من الإبل قد فر بها من حقوق قومه ، فقتله وأخذ إبله وامرأته .

وكشفت المرأة عن وجهها فإذا بها من أحسن النساء ، فوقع جمالها فى قلب عروة وفى قلوب صعاليكه فانقلبوا بما معهم إلى أصحاب الكنيف فحلبوا لهم الإبل وحملهم عروة عليها ، حتى إذا دنوا من عشيرتهم أقبل يقسمها بينهم وأخذ مثل نصيب أحدهم ، فقالوا :

ـــ لا واللات والعزى لا نرضى حتى تجعل المرأة نصيبا فمن شاء أخذها .

فجعل يهم بأن يحمل عليهم فيقتلهم وينتزع الإبل منهم ثم يذكر أنهم صنيعته وأنه إن فعل ذلك أفسد ما كان يصنع ، ففكر طويلا ثم أجابهم إلى أن يرد عليهم الإبل إلا راحله يحمل عليها المرأة حتى يلحق بأهله .

كانت المرأة التى سباها من بنى هلال بن عامر بن صعصعة . يقال لها ليلى بنت شعواء . فمكثت عنده زمانا وهى معجبة له تريه أنه تحبه ، ثم استزارته أهلها فحملها حتى أتاهم بها ، فلما أراد الرجوع أبت أن ترجع معه ، وتوعده قومها بالقتل فانصرف عنهم فأقبل عليها فقال لها :

ـــ يا ليلى ، خبرى صواحبك عنى كيف أنا .

ـــ ما أرى لك عقلا ! أتراني قد اخترت عليك وتقول خبرى عنى !

وأخذ بنو عامر امرأة من بنى عبس ففخر عامر بن الطفيل بذلك وذكر أخذه إياها ، فراح عروة يعيرهم بأخذه ليلى الهلالية . كانت مثل هذه الأشعار التى تفخر بسلب الحرائر تنتشر بين الناس فيتلقفونها ليسمر بها

السمار فى نواديهم ، فقد كان سبى النساء والعبث بهن أمرا مألوفا شاع فى كل القبائل .

وسبى عروة سلمى من بنى غفار ، وكانت ذات جمال فولدت له أولادا وكان شديد الحب لها . وذات يوم حملها معه إلى يثرب ونزل فى بنى النضير ، فلما رأى اليهود حسن سلمى طمعوا فى جمالها فقدموا إليه خمرا معتقة فراح يشرب ، فلما انتشى منعوه . وراح يطلب مزيدا من الخمر فالتمسوا منه فى رقة أن يدفع ثمن ما يشرب ، وما كان معه شيء إلا زوجه فرهنها ، ولم يزل يشرب حتى استحق اليهود الرهينة . فلما أفاق قال لها :

ـ انطلقى .

قالت فى أسى :

ـ لا سبيل إلى ذلك قد أغلقتنى .

وأخذ اليهود سلمى الغفارية لما لم يقدر عروة على افتكاكها فى الوقت المشروط ، فقال عروة فى أسى :

سقونى الخمر ثم تكنفونى　　　عداة الله من كذب وزور

وراحت سلمى تثنى عليه فقالت :

ـ والله إنك ما علمتُ لضحوك مقبلا ، كسوب مدبرا ، خفيف على متن الفرس ، ثقيل على العدو ، طويل العماد ، كثير الرماد ، راضى الأهل والجانب(١) ، فاستوص ببنيك خيرا .

وانصرف عروة الصعاليك حزينا ، ثم ما لبث أن عاد لحياة الصعلكة يهاجم القوافل ويوزع ما يسلب على رجاله ، وينشد الشعر وينال إعجاب

---

(١) الغريب ويراد به الضيف .

المجتمع المريض ويفضله فى الجود على حاتم الطائى .

ولم يكن المجتمع فى يثرب بأحسن حالا من المجتمعات العربية الأخرى ، فقد دب الشقاق بين اليهود واليهود ووقعت البغضاء فى قلوب الأوس والخزرج . وكثيرا ما كانت المنازعات تنشب بين العرب واليهود ، وكثيرا ما كانت تثور الحروب ولا تحقن الدماء إلا لفترة وجيزة ، ثم سرعان ما تندلع ألسنة نيران الفتن لتخرق اليهود والعرب دون تمييز .

وفى ذلك الجو المشحون بالعداوات والقلاقل والخوف راح ابن الهَيَّبان يجود بآخر أنفاسه ، وقد التف به ثعلبة بن سعية وأسيد بن سعية وأسيد بن عبيد ، وهم نفر من بنى هدل ليسوا من بنى قريظة ولا النضير نسبهم فوق ذلك هم بنو عم القوم ، وقد لاح فى وجوه الرجال هم ثقيل . فابن الهيبان رجل من يهود أهل الشام قدم عليهم ، حل بين أظهرهم ما رأوا قط رجلا أفضل منه .

كانوا إذا قحط عنهم المطر قالوا له :

ـــ اخرج يا بن الهَيَّبان فاستسق لنا .

فيقول :

ـــ لا والله ، حتى تقدموا بين يدى مَخرجَكم صدقة .

فيقولون له :

ـــ كم ؟

فيقول :

ـــ صاعا من تمر أو مُدَّين من شعير .

فيخرجونها ثم يخرج بهم إلى ظاهر حرتهم فيستسقى الله لهم ، فوالله ما يبرحوا مجلسه حتى يمر السحاب ويسقون .

وعرف ابن الهيبان أنه ميت، فالتفت بعيون زائغة إلى من كانوا عنده وقال:
ـــ يا معشر يهود ، ما ترونه أخرجنى من أرض الخمر والخمير إلى أرض البؤس والجوع ؟.

قالوا :

ـــ إنك أعلم .

قال فى صوت خافت :

ـــ فإنى إنما قدمت هذه البلدة أتوكَّف (أنتظر) خروج نبى قد أظل زمانه ، وهذه البلدة مُهاجره ، فكنت أرجو أن يبعث فأتبعه ، وقد أظلكم زمانه فلا تسبقن إليه يا معشر يهود فإنه يبعث بسفك الدماء وسبى الذرارى والنساء ، فمن خالفه فلا يمنعكم ذلك منه .

ومات ابن الهيَّبان وحديثه يرن فى أعماق قلوب الفتية ثعلبة بن سعية وأسيد بن سعية وأسد بن عبيد بعد أن حفر فى أعماق نفوسهم ، ثم قبر ابن الهيبان وما أسرع أن نَسى الناس تلك العبرة المؤقتة التى ينزلها بالأفئدة رهبة الموت وجلاله ، وعادوا إلى ما كانوا فيه من سعى للدنيا وكذب وبهتان وزور ، وأكل الأموال بالباطل ، ومد العيون إلى نساء الآخرين ، والاحتيال بالخمر والميسر على سرقة الأموال وسلب الزوجات والحريات ، وإحالة السادة والحرائر إلى عبيد .

واستمرت الشرور بين العرب من الأوس والخزرج واليهود ، وذات يوم نال العرب من اليهود ما يكرهون ، فقال لهم اليهود :

ـــ إنه قد تقارب زمان نبى يبعث الآن نقتلكم معه قتل عاد وإرم .

وأحس الأوس والخزرج رهبة ، فكثيرا ما سمعوا ذلك من اليهود وهم أهل كتاب عندهم علم ليس عند أصحاب الأوثان ، ترى لو تحقق ذلك الوعيد وبعث ذلك النبى ، فماذا يفعلون ؟!

٣

كانت الدولة الرومانية تترنح تحت حكم الإمبراطور فوقاس ، وكانت تعيش فى ظل كابوس رهيب من الفوضى الهدامة والظلم الذى يئن من وطأة سكان القسطنطينية وسكان الممالك الخاضعة للنسر الرومانى على السواء ، فقيصر الإله يضارب فى تجارة القمح لتتكدس فى خزائنه الأموال ، ورجال الدولة يقترفون كل الموبقات فى سبيل الثراء العاجل ، فسيطرت الأسر النبيلة على النشاط التجارى وعلى الملاهى ودور البغاء وعلى كل ما يجلب الذهب والفضة ، فقامت بعض الأسر بتربية الدواجن واحتكرت تجارتها ، واحتكرت أسرات أخرى صناعة الأبسطة ، وسيطرت أسرات على حانات الخمر ودور الدعارة ، حتى الكنيسة نفسها اهتمت بالمسائل المصرفية وإقراض الأباطرة بأموال تصرف على حروبهم للفرس لقاء فوائد باهظة ، فلا غرو أن صار الناس جميعا فى الإمبراطورية الرومانية عبيد المال .

وكانت مصر وسورية وبعض الممالك الأخرى التى أوقعها سوء طالعها بين براثن الرومان ، تقاسى من ظلم جباة الضرائب الذين ينتزعون ثمرات الجهود المضنية ليحملوها إلى خزائن الإمبراطور الذى لا يشبع نهمه للذهب والفضة ، فلم يجد أهلها منفسا للثورة على الاضطهاد غير معارضة القسطنطينية فى لاهوتها ، فكانت حركة وحدة طبيعة المسيح فى مصر وسورية تستلهم وحيها من العداء الذى تكنه للحكام الرومان أكثر منها

للعداء للمذهب .

وكانت عبادة الدولة والإمبراطور سائدة فى الإمبراطورية التى كان سوس الفساد ينخر فى عظامها ، وقد استشرى الانحلال لما أبت الطبقة الأرستقراطية أن تنسجم مع تلك العبادة والخضوع خضوعا مطلقا لقيصر ، فأصحاب الأراضى الواسعة يشكلون مشكلة خطيرة استعصى حلها على الدولة ، فهم أصحاب نفوذ وسلطان وقوة ومنعة ، وقلما كانوا يلينون للدولة وقوانينها أو يخضعون لرغبات الإمبراطور .

وزاد الأمر سوءا لما كثرت هجرات البرابرة إلى المقاطعات الرومانية ، فقد جلبوا معهم المتاعب وعاثوا فى الأرض فسادا ، فقضى ذلك على قيمة الأرض وتمزقت الضياع الكبرى شر ممزق ، ووهنت قوة أصحاب الأراضى المناوئين لنزوات رأس الدولة فخلا للإمبراطور وجه الشعب يرهقه كما يشاء ، ويمتص دماءه يروى بها أراضيه لتثمر مزيدا من الذهب والأموال .

وضربت الفوضى فى جنبات عاصمة الإمبراطورية بعد أن ضاق الشعب بأعباء الحروب الطاحنة الناشبة بين الإمبراطوريتين المتنافستين على سيادة العالم ، وقد أرهقت تكاليف هذه الحروب دافعى الضرائب ووضح أثرها فى القسطنطينية ، فارتفعت الأسعار ، وزادت الضرائب وعاش فقراء العاصمة فى ضنك شديد ، وراحت أحياؤهم القذرة تزاحم قصور الأغنياء ، ولم يبق شىء بلا ثمن غير السيرك الذى فتح أبوابه للجميع ليشغل التعصب لأحد فريقى السيرك قلوب الناس ، وكان الإمبراطور يحسب أن فى ذلك اللهو منفسا لما يعانى الشعب من حرمان وضيق ، ولم يدر بخلده أن الفتن الداخلية كانت تجد لها مرتعا خصبا بين الحشود التى تتقاطر على

السيرك كل ليلة .

وأغلق فوقاس جامعة القسطنطينية وهو يحسب أنه يخنق بذلك صوت المثقفين الذين يرفعون أعلام العصيان فى وجه سياسته الخرقاء التى لا تنشد إلا إشباع شهواته المادية ، وملء خزائنه بالذهب معبود العصر المحبوب ، ولم يخطر له على قلب أن السيناتو : مجلس شيوخ الإمبراطورية قد تآمروا عليه وبعثوا إلى هرقل ابن حاكم إفريقية يحرضونه على أن يقبل بجيشه لتخليص البلاد من الإمبراطور الجشع الذى يشترى قمح البلاد لحسابه ، ثم يبيعه بما يشاء من أسعار باهظة فى زمن المجاعات .

وحمل هرقل جنوده فى السفن وأقلع من إفريقيه إلى القسطنطينية لينقذ البلاد من التردى فى هاوية الفساد ، وليرفع عن صدرها الكابوس الرهيب الذى جثم عليها مذ تولى الحكم فوقاس المفتون بالمظالم وجمع المال ، ودارت معارك بين حامية القسطنطينية التى لا تؤمن بما تحارب فى سبيله وبين جنود آمنوا بأنهم ما جاءوا إلا لإنقاذ بلادهم من الطاغية ، فدارت الدائرة على من كانت قلوبهم هواء ، ودخل هرقل القسطنطينية دخول الظافرين وهتافات الترحيب بالمنقذ تتعالى من كل مكان .

وقتل فوقاس وبقتله انهارت أسرة يوسطنيانوس ، وهرع شيوخ السيناتو للترحيب بالرجل الذى اختاروه سرا لتخليص البلاد من براثن الإمبراطور الجشع الطماع ، وتأهبت القسطنطينية لتتويج المنقذ إمبراطورا على البلاد التى أنهكتها حروبها مع فارس ، ومزقت وحدتها اختلافها فى المسيح ووحدته وطبيعته وإرادته ، وإن كانت كل المماليك الخاضعة للنسر الرومانى تدين بالديانة المسيحية .

وازدان القصر ورفعت الأعلام خفاقة فوق الدور والحوانيت وفى

الشوارع والميادين ، ولبست كنيسة أيا صوفيا كنيسة الحكمة المقدسة أبهى حللها ، وماجت الجماهير فى الطريق بين القصر والكنيسة ، وتسلق الشباب الأشجار والتماثيل ، وتدفقت البغايا من حيهن القريب إلى طريق الموكب الإمبراطورى مشاركة منهن فى أفراح الشعب .

ونفخ فى الأبواق ، وسرعان ما فتح باب القصر وخرجت منه الموسيقات والمشاة فى ثيابهم المزركشة ، ودروعهم المعدنية تتألق فى الشمس ، وفى أيديهم الرماح والمتاريس ، وقد تدلت على جنوبهم السيوف . ومن خلفهم الفرسان على ظهور الجياد كأنهم فى حصون ، ثم خرجت عربات رجال القصر والدولة ، ثم عربة الإمبراطور تحف بها كوكبة من خيرة فرسان الإمبراطورية . وما إن وقعت أعين الجماهير على هرقل حتى تعالت الهتافات مدوية بحياة المنقذ ، ابن السماء .

وبلغ الركب الفخم ميدان أيا صوفيا ، وقد اصطف فيه الجند ، ووقف عند باب الكنيسة رجال السناتو ورجال الدين وكبار الضباط والقضاة وكبار رجال الدولة فى ثيابهم المزركشة ، وهبط الإمبراطور من عربته بين ترحيب المستقبلين الذين علا وجوههم بشر واستبشار بفاتحة عهد جديد فى حياة الإمبراطورية الرومانية الخالدة .

وسار هرقل يعلوه الوقار فى الكنيسة التى كانت آية من آيات الفن البيزنطى ، وتقدم بين الصفوف إلى حيث وقف البابا هونوريوس الأول ومن خلفه كبار رجال الدين حتى إذا ما بلغ المحراب أدى صلاة شكر لله ، ثم دوى فى جنبات الكنيسة الهادئة الصامتة صوت البابا يعلن تتويج هرقل إمبراطورا على الدولة الرومانية بكل ما فى حوزتها من بلاد .

ودخل هرقل قاعة العرش وفتحت الأبواب لوفود المهنئين ، وما انتهت

مراسيم الاحتفال حتى بعث فى طلب المنجمين والعرافين ليروا ما يخبئه القدر ، فراح المنجمون يرصدون النجوم ثم عادوا إليه مطأطئى الرءوس باسرى الوجوه ، فالأسرار التى كشفت عنها النجوم كانت رهيبة لا يجرؤ أحد منهم على أن يلقى بها فى وجه هرقل أمل الإمبراطورية ومنقذها العظيم .

ودخل المنجمون والعرافون على الإمبراطور وقد ملأت النشوة جوانحه وتأهب ليسمع ما يثلج الصدور وما يشرق عليه من بهجة من وراء الغيب ، وراح المنجمون يحاولون أن تنم أساريرهم عن الطمأنينة والهدوء وإن كانت أفئدتهم تدوى بين ضلوعهم فى فزع وخوف ، وتقدموا وهم يترنحون حتى إذا ما وقعت أعينهم على الإمبراطور خروا له ساجدين وقد أرهفت حواسهم وتمنوا لو يطول السجود حتى لا يرى هرقل ما يكره فى وجوههم .

وأمرهم بالنهوض فرفعوا رءوسهم وقد زاغت الأبصار وانقبضت الصدور وظهر فى لفتاتهم وحركاتهم خوف شديد ، وأحس هرقل ما هم فيه من قلق واضطراب فأوجس خيفة وقال فى صوت متهدج :

— ماذا قالت النجوم ؟

فتقدم كبير منجمي القصر فى خطوات وجلة وقال فى صوت بدا كأنما قد أتى من أغوار سحيقة :

— نفس ما قالته من قبل يا مولاى .

— وما الذى قالته من قبل ؟

— سيدمر الإمبراطورية شعب مختون .

فهب هرقل فى ثورة وقال فى حنق شديد :

— ومتى هذا البلاء إن كنتم صادقين ؟

وصمت كبير المنجمين وإن كان يرتجف من الرأس إلى القدم ، وسرت فى أبدان العرافين رعدة شديدة خوفا من بطش الإمبراطور الغاضب الذى غاض إشراقه لما مست النبوءة المشئومة أذنيه . وتقدم هرقل من كبير المنجمين خطوات وهو يقول :

— تكلم .

— الأمان يا مولاى .

— لك الأمان .

فراح الرجل يروى على مسامع الإمبراطور نبوءة تقلص ظل النسر الرومانى عن الأرض التى يرفرف عليها ويؤكد اندحار الجيوش الرومانية أمام جحافل جيش الشعب المختون ، وأن ذلك البلاء ليس قريبا وليس بعيدا[1] . فزفر هرقل فى غيظ وراح يصر على أنيابه يكاد أن ينفجر حنقا، وما إن غادر المنجمون والعرافون قاعة العرش مطأطئى الرءوس حتى راح الإمبراطور يفكر فى التنكيل باليهود ، فهم فى وهمه الشعب المختون الذى تقول النبوءة إن صرح الإمبراطورية سيتقوض بسيوف بنيه .

كان اليهود يعيشون فى عزلة فى الإمبراطورية الرومانية لا يختلطون بغيرهم ترفعا ، ولا يتزوجون إلا فيما بينهم حتى لا يضيع الدم الطاهر فى الأمم ، فهم يؤمنون أنهم وحدهم الناس وأن من عداهم كلاب البشرية ، وأن الإله إنما هو إله إسرائيل وحدهم وأنه فضلهم على العالمين ، ولما كانوا

---

(١) تولى هرقل الملك سنة ٦١٠ م وكانت معركة اليرموك التى انتصر فيها خالد ابن الوليد على جيوش الروم ٦٣٦ .

متشبثين بتلك العزلة كان التنكيل بهم سهلا ميسورا ، فراح هرقل يسوقهم زمرا إلى الملاعب الرومانية يلقى بزعمائهم إلى الأسود أمام شعبه المفتون بإراقة الدماء ، ويفرض عليهم المجالدة والقتال حتى الموت على أعين فاتنات الإمبراطورية وشبابها الماجن وشيوخها الذين قدت قلوبهم من فولاذ ، والهتافات تتجاوب فى جنبات الملاعب التى كانت منفسا لكل الشرور .

واستمر هرقل فى تعذيب اليهود وإلهاب ظهورهم بسوط عذاب ، وما دار بخلده أن الشعب المختون الذى سيدمر إمبراطوريته تدميرا هم أتباع النبى الأمى الذى بشر به السيد المسيح ، الفارقليط الذى سينزل عليه الكتاب المنير الذى سيمكث مع الناس إلى الأبد .

٤

برارى سهلة كثرت فيها المزارع وقامت عليها أشجار النخيل كالأبراج ، وانتشرت هنا وهناك بساتين خضراء وعيون جارية وثمرات مختلفة الألوان كأنها العقيق والزمرد والمرجان ، ومراعى ممتدة فى الوديان وعلى سفوح الجبال ، وجبال وعرة وصحراء واسعة مترامية وحصون مرتفعة ومعاقل منيعة وبحر يخرج منه اللؤلؤ والمرجان ، وقصور عجيبة وأبنية عظيمة ومدن عامرة ، وتجارة ممدودة فى الدر والياقوت والمسك والكافور والعود الرطب وأنواع العطر والفلفل والحديد والحرير القصب والتحف والسجاجيد والسيوف ، إنها أرض اليمن أرض الخير والبركات .

وفى قبيلة دوس فى أرض اليمن كان الناس يطوفون بصنم ذى الكفين وكان لعمرو بن حـمُمة الدوسى ، وكان الإله العظيم الذى تقدم إليه القرابين والصلوات وترفع إليه الابتهالات والدعوات ، وكان بين الطائفين الطفيل ابن عمرو الشاعر الشريف الغنى الذى فتح أبواب داره للضيفان ، وأبو أزيهر الدوسى الذى خطب ابنة الوليد بن المغيرة أخت هاشم بن الوليد وخالد بن الوليد والذى ربط بهذه المصاهرة الأسباب بين دوس وبين حى من أعظم أحياء قريش ، فبنو مخزوم قد تساووا على الركب مع بنى هاشم وبنى أمية ، وقد اشتعلت بين تلك الأحياء المنافسة على شرف زعامة أهل الحرم ، وإنه لمجد عظيم قد جلبه ابو أزيهر لقبيلته بتلك المصاهرة الكريمة التى تتوق إلى مثلها كل قبائل العرب .

وكان إلى جوار أبى أزيهر صديقه الحميم سعد بن صبيح بن الحارث بن سابى بن أبى صعب بن هُنية ، وقد تعلقت عيون الناس بالطفيل وأبى أزيهر وابن هُنية أشراف دوس وساداتها وأصحاب الأموال وأهل الذكر من بنيها .

وكان بين الطائفين شاب فقير آدم بعيد ما بين المنكبين ذو ضفيرتين أفرق الثنيتين لا يلتفت إليه أحد ، إنه عبد شمس ابن أخت ابن هُنية ، ولو قال كل العرافين والمنجمين للناس إن ذلك الشاب الفقير الذى يرعى غنم أهله والذى يقاسى شظف العيش سيصبح أشهر أهل دوس ، بل أشهر أهل اليمن جميعا لما صدقوهم .

إن عبد شمس وجد هرة وحشية لما كان صبيا فأخذ أولادها وعاد إلى البيت ووضع أولاد الهرة فى حجره وراح يداعبها ويحنو عليها ويطعمها ، ومر أبوه به فقال له :

— ما هذه فى حجرك ؟

فقال عبد شمس فى فرح :

— أولاد هرة وحشية .

ووقف أبوه ينظر إلى حدب ابنه على الهريرات الصغيرة وعنايته بها وصبره عليها ، فقال له وهو منطلق إلى حجرته :

— أنت أبو هريرة .

وغلبت كنيته على اسمه فعرف فى دوس كلها بأبى هريرة ، وراح أبو هريرة يمضى وقته فى رعى الغنم مع أخيه كُريم ، ويلعب أحيانا مع ابن عمه أبى عبد الله الأغر ، حتى مات أبوه وهو صغير فشب يتيما لينصهر فى بوتقة الحزن ويعتزل الناس ويعود إلى نفسه ، استجماعا لشتات ذاته وامتلاكا

فأشرقت الوجوه واتجهت الأبصار إلى العروس بنت الوليد فأطرقت حياء ، فقامت إليها أسماء بنت مخربة أم أبى الحكم بن هشام تطيبها بأفضل ما عندها من أنواع الطيب ، وتحدثها حديثا رقيقا عن الدوسى القادم من اليمن بأموال قومه ليدفع مهر العروس الجميلة سليلة بنى المغيرة الأمجاد .

ومر الوقت وطال السمر و لم يفتح أبو أزيهر فمه بكلمة عن المهر الذى وعد بدفعه لبنت الوليد فران على المجلس قلق ، وبلغ ذلك القلق غايته لما نهض أبو أزيهر مستأذنا فى الانصراف دون أن يرد ذكر المهر على لسانه ، فاستشعر بنو المغيرة بطعم الإهانة إلا أنهم تحلموا على مضض .

وبعيدا عن أهل البيت خلا هاشم بأبيه وقال فى ثورة وغضب ، إن مماطلة أبى أزيهر فى دفع مهر أخته إهانة لهم ، ولو ذاع ذلك الخبر بين الناس لنال من كرامتهم ، وإن الأمر أصبح يستدعى وضع حد لهذه المهانة . فراح الوليد يعمل جاهدا على إخماد ثورة ابنه ، وإن كانت نار الغضب تندلع فى صدره وتلسع أفكاره .

وتصرمت أيام وأبو أزيهر يغدو ويروح بين دور بنى مخزوم والحرم ومجالس سادات قريش ، وبنو المغيرة يسألونه أن يدفع المهر الذى اتفقوا عليه وهو يعد ولا ينفذ شيئا مما يعد به ، فيزداد هاشم بن الوليد حنقا على حنق ، وهمس الناس فى مكة أن أبا أزيهر الدوسى يماطل فى دفع مهر بنت الوليد بن المغيرة ، وارتفع الهمس حتى صار حديث النوادى والسمَّار ، وترامى ما يتندر به القوم إلى مسامع هاشم فران الغضب على قلبه وانسدلت أسجاف الحقد على بصيرته ، فانطلق كالعاصفة إلى حيث كان ذلك الدوسى الذى جعلهم سخرية فى أفواه الناس .

واحتدم النقاش الغاضب بين أبى أزيهر وهاشم ، وملأ الحنق فؤاد هاشم

فأعمى بصره وعقله واستولت عليه فكرة واحدة : إن ما لحقهم من إهانة لا يغسله إلا دم من دفعه طيشه إلى الجرأة عليهم ، فاستل سيفه وطعن به أبا أزيهر فأرداه قتيلا ، وفى مثل لمح البصر ذاع فى مكة خبر مقتل هاشم لأبى أزيهر الدوسى ، وفى لحظات كان سادات قريش يديرون قداح الرأى بينهم ليروا لهم رأيا فى تلك العداوة التى نشبت فجأة بين قريش ودوس بعد أن أصبح بين القبيلتين ثأر .

كان تجار قريش فى الشراة ، وهى صقع بالشام بين دمشق ويثرب ، لا علم لهم بالثأر الجديد الذى سيجعل كل قرشى مطلوبا لدوسى ولو لم يشترك فى دم أبى أزيهر ، فكان على أشراف قريش أن يبعثوا أرطأة بن سيحان حليف حرب بن أمية ، وأن يعجلوا بذلك وأن يحثوه على الإسراع ليبلغهم الرسالة ليأخذوا حذرهم قبل أن يصل النبأ إلى الدوسيين فيغمسوا خناجرهم فى قلوب القرشيين الغافلين .

ورأى حاجز الأزدى ما نزل بسيد من سادات قومه فراح يسابق الريح ليخبر أهله بالرزء الفادح . وكان سباقا رهيبا بين أرطأة الذى كان مع بنى أمية كواحد منهم وبين الأزدى . سباقا بين الحياة والموت ، وقد أحس أرطأة أن أرواحا بريئة معلقة بأرجل راحلته فراح يستحثها على العدو دون رحمة أو شفقة .

وبلغ أرطأة السراة وقد نال منه الجهد وكادت راحلته تموت من التعب ، وما أسرع ما انطلق إلى تجار قريش يقص عليهم قتل هشام بن الوليد أبا أزيهر ويحذرهم غدر الدوسيين أخذا بثأر من قتله هشام لمطله إياه بمهر أخته .

ونجا تجار قريش الذى كانوا فى السراة ولكن ابن هُنيَّة صديق أبى أزيهر

لزمام أمره لكى يزيد فى خصب حياته الباطنية ويضاعف من ثراء عالمه الداخلى ، حتى إذا ما بلغت أذنيه الدعوة إلى الله كان معدا إعدادا نفسيا للتصديق والهجره إلى الله ليرتمى بكل كيانه فى أحضان الدعوة الجديدة .

وأتم الطفيل بن عمرو سيد دوس وشاعرها ، وأبو أزيهز صهر بنى مخزوم ، وابن هُنية صديق أبى أزيهر الحميم مناسكهم ، فابتعدوا عن بيت ذى الكفين وهم يتحدثون فى أمر دنياهم ، فما كان الدين فى أعماق ضمائرهم فهم يمارسون ما وجدوا عليه آباءهم عاكفين .

كان الحديث يدور حول سفر أبى أزيهر إلى مكة لزيارة بيت الوليد بن المغيرة ، وكان الطفيل سعيدا بخطبة أبى أزيهر لبنت الوليد فأخوها خالد هو قائد فرسان قريش له الأعنة وله القبة التى يضربونها إذا ما تأججت نيران الحرب ليجمعوا إليها ما يجهزون به الجيش ، فمصاهرة دوس لبنى مخزوم سترفع من شأن دوس بين قبائل اليمن . وكان ابن هنية متهلل الأسارير فزواج صديقه من قرشيةً سيفتح له بيوت سادات أهل الحرم وأشرافها ، فراح يتحدث عن تلك الزيجة فى انفعال وحماس لا يقل عن حماس الطفيل ، بينا كان أبو أزيهر صامتا يتظاهر بالإصغاء إلى الصديقين العزيزين وإن كان مشغولا عنهما بالأفكار التى استولت على رأسه واستبدت به .

وانطلق أبو أزيهر إلى مكة فلما بلغها راح يطوف بالحرم . ثم اتخذ سبيله إلى دار الوليد بن المغيرة فألفى هناك الوليد وهاشم بن الوليد وخالد بن الوليد وأبا الحكم بن هشام بن المغيرة (أبا جهل) وسادات بنى المغيرة وبنى مخزوم . فما إن وقعت أعين القوم عليه حتى خفوا إليه يرحبون به أجمل ترحيب .

وانتقل إلى حيث كان النسوة مجتمعات فى الدار خبر وفود أبى أزيهر

كان لا يأخذ أحدا من قريش إلا قتله بأبى أزيهر الدوسى ، ورأى أبو هريرة مقت خاله للقرشيين فنزل فى قلبه بغضهم ، وقد وقر فى ضميره أن هذه البغضاء قد سكنت سويداء قلبه وأن الزمن يعجز عن أن يغسل ذلك الغل الذى يملأ صدره ، و لم يخطر له على بال أن قرشيا أوشك أن يصطفيه الله ويبعثه رحمة للقبائل بل للناس جميعا ليطهر القلوب من البغضاء ويؤلف بينها ، وأن أبا هريرة الحاقد سيكون بفضل من الله من أتباعه المقربين الذين يجدون فى قربه غذاء للروح ونبراسا للعلم الصادق والحكمة الغالية .

٥

ألفان وخمسمائة بعير أناخت خارج الحرم والرجال يغدون ويروحون بين دورهم ودار أبى سفيان ، فمكة كلها تتأهب لرحلة الصيف التى ستنطلق إلى الشام وعلى رأسها سيد بنى أمية ، وقد جاء إلى أم القرى تجار ثقيف يقودهم أمية بن أبى الصلت صديق أبى سفيان الحميم ورفيقه فى السفر .

وراح معاوية بن أبى سفيان يمشى إلى حيث جلس أبوه بين سادات قومه وأمه هند بنت عتبة ترقبه وقد رفت على شفتيها ابتسامة رضا ، وسرعان ما شرد ذهنها لترى نفسها فى دار الفاكه بن المغيرة زوجها الأول الذى جرح كبرياءها جرحا لا تنساه .

كان الفاكه من فتيان قريش وكان له بيت للضيافة بارز يغشاه الناس من غير إذن ، فخلا البيت ذات يوم فاضطجع هو وهند فيه ثم نهض لبعض حاجته ، وأقبل رجل ممن كانوا يغشون البيت فولجه فلما رأى هندا رجع هاربا ، وأبصره الفاكه فأقبل إليها فركلها برجله وقال :

— من هذا الذى خرج من عندك ؟

— ما رأيت أحدا ولا انتبهت حتى أنبهتنى .

— ارجعى إلى أمك .

وارتجفت هند وهى فى مكانها فى بيت أبى سفيان من الرأس إلى القدم ، فتلك الذكرى كلما هاجت تخزها وخزا أليما . وحاولت أن تطردها عن

— ثمرة فى كمرة .

— إنى أريد أبين من هذا .

— حبة فى إحليل مهر .

— صدقت . انظر فى أمر هؤلاء النسوة .

فجعل يدنو من إحداهن فيضرب بيده على كتفها ويقول :

— انهضى .

حتى دنا من هند فإذا بها تكاد تموت رعبا ، فشرفها قد بات معلقا بكلمة تخرج من بين شفتيه فقال لها :

— انهضى غير زانية ، ولتلدن ملكا يقال له معاوية .

وتهللت أساريرها وهى فى مكانها ترنو إلى معاوية ، ورأت فى وضوح على صفحة ذهنها الفاكه وهو ينهض إليها فيأخذ بيدها وهى تنشر يدها من يده وتقول :

— إليك عنى ، فو الله إنى لأحرص أن يكون ذلك من غيرك .

كانت لحظة قاسية لكأنها دهر سرمد ، ترى ماذا كان مآلها لو أن الرجل أخطأ . وانتبهت من ذلك الكابوس الذى ران عليها على أصوات الرجال المقبلين المدبرين ، فألفت رجلا يتفرس فى وجه معاوية فصوبت إليهما بصرها وكل حواسها ، فالتقطت أذناها قول الرجل :

— إن هذا الفتى سيسود قومه .

فردت هند على الرجل فى حدة :

— ثكلته أمه إن لم يسد إلا قومه .

كانت أحلام هند عريضة ، وكانت ترجو لابنها ملكا كملك كسرى أو قيصر ، فراحت تبث فيه التطلع إلى السيادة وتوسع آفاق حبه

رأسها ولكنها ألحت عليها وفرضت نفسها فرضا ، وراح كلام الناس يدوى فى أذنيها دويا مفزعا يكاد يمزق أعصابها وإن مضى على ذلك ثمان سنين . وعلا صوت أبيها حتى غطى على كل صوت :

ـ يا بنية ، إن الناس أكثروا فيك فأنبئينى بنبئك ، فإن يكن الرجل عليك صادقا دسست عليه من يقتله فتنقطع عنك المقالة ، وإن يكن كاذبا حاكمته إلى بعض كهان اليمن .

ـ لا والله ما هو علىّ بصادق .

ـ يا فاكه إنك قد رميت ابنتى بأمر عظيم ، فحاكمنى إلى بعض كهان اليمن .

ورأت هند نفسها فى نسوة والفاكه فى جماعة من بنى مخزوم وعتبة فى جماعة من عبد مناف ، والقافلة تنطلق إلى اليمن حتى إذا شارفوا البلاد قالوا :

ـ غدا نرد على الرجل .

ورن فى أذنيها صوت أبيها وقد نم عن الريبة :

ـ إنى أرى ما حل بك من تنكر الحال وما ذاك إلا لمكروه عندك .

ـ لا والله يا أبتاه ما ذاك لمكروه، ولكنى أعرف أنكم تأتون بشرا يخطئ ويصيب ولا آمنه أن يسمنى ميسما يكون علىِّ سبَّة .

ـ إنى سوف أختبره .

فصفر عتبة بن ربيعة بفرسه حتى أدلى . ثم أدخل فى إحليله حبة بر وأوكأ عليها بسير ، فلما أصبحوا قدموا على الرجل فأكرمهم ونحر لهم ، فلما قعدوا قال له عتبة :

ـ جئناك فى أمر وقد خبأت لك خبئا أختبرك به ، فانظر ما هو ؟

للسيطرة ، وما كانت هند بدعا بين سيدات قريش ، فأم الفضل بنت الحارث الهلالية زوج العباس كانت ترقص ولدها عبد الله بن عباس قائلة :

ثكلت نفسي وثكلت بكري
إن لم يسد فهرا وغير فهر
بالحسب العد وبذل الوفر
حتى يوارى فى ضريح القبر

وجاء الليل وماج الناس بعضهم فى بعض ، وجلست صاحبات الرايات الحمر لاستقبال الرجال : سريفة جارية زمعة بن الأسود ، وعناق صديقة دلدل ، وفرسة جارية هشام بن ربيعة ، وأم عليط جارية صفوان ابن أمية ، وحنة القبطية جارية العاص بن وائل ، ومرية جارية مالك بن عميلة ، وحلالة جارية سهيل بن عمرو ، وأم سويد جارية عمرو بن عثمان المخزومى ، وقريبا جارية هلال بن أنس بن جابر ، وغاص المكان بتجار الفساد وجند الشيطان والباحثات عن الذهب .

وأقبل أبو سفيان وإلى جواره صديقه العزيز أمية بن أبى الصلت الطامع فى النبوة ، يحف بهما سادات قريش ، فلما وقعت أعين الناس على سيد بنى أمية ساد المكان سكون وأرهفت الآذان ، فإذا بصوت أبى سفيان يجلجل إيذانا بالرحيل ، فكثر العناق واشتد وجيب القلوب فى الصدور وانهمرت الدموع من العيون ، وتحركت آلاف الرواحل وراح الفرسان يحرسون قافلة أبى سفيان فبدا كأن مكة كلها قد خرجت إلى الشام .

وانطلقت القافلة فى معبد الله وأبو سفيان يصدر أوامره ، وأمية بن أبى الصلت هائم فى الوجود يقلب وجهه فى ملكوت السموات والأرض ويجتهد فى الوصال بالذات العلية التى يطمع فى أن تبعثه هاديا ومبشرا

ونذيرا . ونزلت القافلة منزلا فلم يعتزل أمية قومه ليأنس بربه ويأخذ فى ذكره ليسعد بجلاء قلبه فتنكشف له أكثر الحقائق بكشف إلهى ، بل أخذ سفرا له يقرؤه على أصحابه فقد كان أمية يحصل العلوم من الكتب ، فصار محجوبا عن الله باعتقادات تقليدية جمدت فى نفسه ورسخت فى قلبه وصارت حجابا بينه وبين درك الحقائق ، فلم يورثه الله علم ما لم يعلم .

واستأنفت القافلة رحلتها وأمية يفكر فيما قرأه فى الكتب ، فلم يتصل بالله و لم يفتح الله عليه من مزايا لطفه ورحمته ، وحجبت عن قلبه أنوار العلوم و لم تتجل فيه حقيقة الحق فى كل الأمور ، فرغبته الجامحة فى النبوة ليتيه بها على الناس حالت بينه وبين أن يصفو قلبه لله وحده ، فمنعه الله من مشاهدته ومراقبته ومعرفة صفاته والتعرض لنفحاته المبذولة بحكم جوده وكرمه ، فالقلب مقبول من الله إذا سلم من غير الله ، فمن كان لله كان الله له .

واستمر أمية يقرأ الأسفار على أصحابه كلما نزلوا منزلا فى الطريق حتى نزلوا قرية من قرى النصارى ، فجاء بعض الرهبان إلى أمية وأكرموه وأهدوا له وذهب معهم إلى بيوتهم ، ثم رجع فى وسط النهار فطرح ثوبيه وأخذ ثوبين له أسودين فلبسهما ، ثم التفت إلى أبى سفيان وقال :

ــ هل لك يا أبا سفيان فى عالم من علماء النصارى إليه يتناهى علم الكتاب تسأله ؟

لم يكن أبو سفيان مهتما بالنبوءات التى شغلت أذهان المترقبين للبعثة ، وما كان من المهتمين بالإرهاصات الدالة على قرب ظهور النبى المنتظر فقال فى عدم اكتراث :

ــ لا إرب لى فيه . والله لئن حدثنى بما أحب لا أثق به ، ولئن حدثنى

بما أكره لأجدن منه .

فذهب أمية فى مسوح الرهبان ليسأل ذلك العالم عما شغله ، وليعبد الله مع الرهبان لعل الله يستجيب لدعائه ويبعثه هاديا إلى قومه ويحقق رجاءه ، وخالفه شيخ من النصارى فدخل على أبى سفيان فقال :

ــ ما يمنعك أن تذهب إلى هذا الشيخ ؟

ــ لست على دينه .

ــ لئن ذهبت إليه لتسمعن عجبا !!

وصمت قليلا ثم قال لأبى سفيان :

ــ أثقفى أنت ؟

ــ لا ، ولكن قرشى .

ــ فما يمنعك من الشيخ ؟! فو الله إنه ليحبكم ويوصى بكم .

وخرج النصرانى من عند أبى سفيان ، ومكث أمية عند أصدقائه النصارى حتى جاء قومه بعد هدأة من الليل فطرح ثوبيه ثم انجدل على فراشه ما نام ولا قام حتى أصبح كئيبا حزينا . ترى ماذا قال له العالم الذى تناهى إليه علم الكتاب حتى ران عليه ذلك الحزن وتلك الكآبة ؟

وانقضى الليل وما يكلم أمية أصحابه ولا يكلمونه ، ثم التفت إلى أبى سفيان وقال فى تبرم :

ــ ألا نرحل ؟

ــ وهل بك من رحيل ؟

ــ نعم .

فرحلوا فساروا ليلتين وأمية صامت لا ينبس بكلمة ، وظل شارد الفكر حتى إذا ما كانت الليلة الثالثة التفت إلى أبى سفيان وقال :

ـ ألا تحدث يا أبا سفيان ؟

ـ وهل بك من حديث ، والله ما رأيت مثل الذى رجعت به من عند صاحبك .

ـ أما إن ذلك لشيء لست فيه ، إنما ذلك لشيء وجلت منه من منقلبى .

ـ وهل لك من منقلب ؟

ـ إى والله لأموتن ثم لأحيين .

فالتفت إليه أبو سفيان وقال فى سخرية :

ـ هل أنت قابل أمانتى ؟

فقال أمية دون أن يفطن إلى رنة الهزء البادية فى صوت أبى سفيان :

ـ على ماذا ؟

ـ على أنك لا تبعث ولا تحاسب .

فضحك أمية ضحكة مريرة ثم قال :

ـ بلى والله يا أبا سفيان لنبعثن ثم لنحاسبن وليدخلن فريق الجنة وفريق فى النار .

ـ ففى أيهما أنت أخبرك صاحبك ؟

ـ لا علم لصاحبى بذلك لا فىّ ولا فى نفسه .

ومضت ليلتان والحوار دائر بين الصديقين ، أمية يعجب من أبى سفيان الذى ينكر البعث والحساب وأبو سفيان يضحك منه ، حتى قدمت القافلة غوطة دمشق فباعوا متاعهم، وأقاموا بها شهرين فارتحلوا حتى نزلوا قرية من قرى النصارى. فلما رأى الرهبان أمية بن أبى الصلت جاءوه وأهدوا له وذهب معهم إلى بيعهم فما جاء إلا بعد منتصف النهار ، فلبس ثوبين

وذهب إليهم حتى جاء بعد هدأة من الليل فطرح ثوبيه ورمى بنفسه على فراشه فما نام ولا قام وأصبح حزينا كئيبا لا يكلم أصحابه ولا يكلمونه .

وعجب أبو سفيان فطالما خرج مع أمية ولكنه لم يجده مهموما مثل ما وجده فى هذه الرحلة ، ترى ماذا يقول له أصحابه الرهبان وفيم يتحدثون وما الذى يجعله يعود من عندهم حزينا كئيبا ؟

وقال أمية لأبى سفيان :

ــ ألا نرحل ؟

ــ بلى إن شئت .

فرحلوا وأمية شارد حزين يضيق صدره بما سمع من الرهبان ، فلما انقضت ليالى لم يستطع صبرا على الأفكار التى تدور فى نفسه فقال :

ــ يا أبا سفيان هل لك فى المسير لنتقدم أصحابنا ؟

ــ هل لك فيه ؟

ــ نعم .

فسارا حتى برزا من أصحابهما ساعة ثم قال أمية :

ــ هيا صخر .

ــ ما تشاء ؟

ــ حدثنى عن عتبة بن ربيعة ، أيجتنب المظالم والمحارم ؟

ــ إى والله .

ــ ويصل الرحم ويأمر بصلتها ؟

وأحس أبو سفيان أن ذلك الحديث تنفيس عن الأفكار التى تدور فى رأس أمية والتى ولدتها خلوته مع أصدقائه النصارى الذين كان على دينهم ، فقال :

ـــ إى والله .

ـــ وكريم الطرفين وسط فى العشيرة ؟

ـــ نعم .

ـــ فهل تعلم قرشيا أشرف منه ؟

ـــ لا والله لا أعلم .

ـــ أمحوج هو ؟

ـــ لا بل هو ذو مال كثير .

ـــ وكم أتى عليه من السن ؟

ـــ قد زاد على المائة .

فقال أمية فى أسى :

ـــ فالشرف والسن والمال أزرين به .

فقال أبو سفيان فى عجب :

ـــ ولم ذاك يزرى به ؟ لا والله بل يزيده خيرا .

فقال أمية فى ثقة :

ـــ هو ذاك .

وصمت قليلا ثم قال :

ـــ هل لك فى المبيت ؟

ـــ لى فيه .

ونزلوا منزلا وباتوا فيه ، وأبو سفيان يفكر فيما قال أمية ويحاول أن يميط اللثام عن حديث صديقه دون جدوى فما كان بقادر على أن يفهم أن الشرف والسن والمال تزرى بإنسان ، حتى إذا ما لاحت الشمس فى الأفق الشرق ارتحلوا ، فلما كان الليل قال أمية :

— يا أبا سفيان .

— ما تشاء ؟

— هل لك فى مثل البارحة ؟

كان أمية متلهفا على أن يخلو بصديقه يناجيه ويبثه حزنه ويفصح عن بعض ما يجول فى خاطره لعله يقضى على ذلك القلق الذى استبد به مذ سمع من الرهبان ما سمع ، فقال أبو سفيان :

— هل لك فيه ؟

— نعم .

فسارا على ناقتين نجيبتين حتى إذا برزا قال أمية :

— هيا صخر . هيه عن عتبة بن ربيعة ؟

— هيا فيه .

— أيجتنب المحارم والمظالم ويصل الرحم ويأمر بصلتها ؟

واتسعت عينا أبى سفيان دهشة ، فما بال صديقه يكرر ما قاله من قبل ؟ إن فى رأسه أشياء لا يريد أن يفصح عنها ولا يقوى على كتمانها ، أشياء أقلقته وأطارت الطمأنينة من فؤاده ، بل لعلها حطمت أملا عظيما من آماله ، وقال فى انتباه :

— إى والله إنه ليفعل .

— وذو مال ؟

فقال أبو سفيان وهو يحاول أن يستشف ما وراء ذلك الحديث :

— وذو مال .

— أتعلم قرشيا أسود منه ؟

— لا والله ما أعلم .

ــ كم أتى له من السن ؟

وزاد عجب أبى سفيان فقد أنبأه بذلك من قبل ، ولكنه رأى من الخير أن يجاريه حتى يكشف عن خواطره فقال :

ــ قد زاد على المائة .

ــ فإن السن والشرف والمال أزرين به .

ــ كلا والله ما أزرى به ذلك ، وأنت قائل شيئا فقله .

فقال أمية فى شرود :

ــ لا تذكر حديثى يأتى منه ما هو آت .

وأطرق برهة ثم قال :

ــ فإن الذى رأيت أصابنى أنى جئت هذا العالم فسألته عن أشياء ثم قلت : أخبرنى عن هذا النبى الذى ينتظر . قال : هو رجل من العرب . قلت : قد علمت أنه من العرب ، فمن أى العرب هو ؟ قال : من أهل بيت تحجه العرب . قلت : وفينا بيت تحجه العرب . قال : هو من إخوانكم من قريش .

وأحس أمية أن صوته يتهدج وأن مرارة ملأت فمه ، فصمت قليلا ثم قال :

ــ فأصابنى والله شىء ما أصابنى مثله قط ، وخرج من يدى فوز الدنيا والآخرة وكنت أرجو أن أكون إياه ... قلت للعالم : فإذا كان ما كان فصفه لى . قال : رجل شاب حين دخل فى الكهولة ، بُدُو أمره يجتنب المظالم والمحارم ويصل الرحم ويأمر بصلتها ، وهو محوج كريم الطرفين متوسط فى العشيرة ، أكثر جنده من الملائكة . قلت : وما آية ذلك ؟ قال : قد رجفت الشام منذ هلك عيسى بن مريم عليه السلام ثمانين رجفة

كلها فيها مصائب ، وبقيت رجفة عامة فيها مصائب .

فقال أبو سفيان فى حدة :

ــ هذا والله الباطل ، لئن بعث الله رسولا لا يأخذه إلا مسنًّا شريفا .

ــ والذى حلفت به إن هذا لهكذا يا أبا سفيان تقول إن قول النصرانى حق ، هل لك فى المبيت ؟

ــ نعم . لى فيه .

فباتوا ثم خرجت قافلة أبى سفيان قاصدة مكة، حتى إذا كان بينهم وبينها مرحلتان ليلتان ، أدركهم راكب من خلفهم فسألوه فإذا هو يقول :

ــ أصابت أهل الشام بعدكم رجفة دمرت أهلها ، وأصابتهم فيها مصائب عظيمة .

فأقبل أمية على أبى سفيان فقال :

ــ كيف ترى قول النصرانى يا أبا سفيان ؟

فقال أبو سفيان وقد نظر فى شرود :

ــ أرى وأظن والله أن ما حدثك به صاحبك حق .

وخرج أهل مكة لاستقبال القافلة العائدة من الشام ، وكثر العناق واشتد وجيب القلوب فى الصدور وانهمرت الدموع من العيون . والتقى أبو سفيان وأمية بن أبى الصلت بمحمد بن عبد الله ، ولم يخطر لهما على قلب أن ذلك الرجل الشاب حين دخل فى الكهولة ، الذى يجتنب المظالم والمحارم ويصل الرحم ويأمر بصلتها ، هو النبى المنتظر .

٦

كان البيت غارقا في الصمت وخديجة وفاطمة وعلى لاذوا بالسكوت ، فرب البيت محمد بن عبد الله فى غرفته يناجى ربه ، وأم أيمن فى الطبقة الأولى من الدار ترعى شئونها ، وخرج زيد بن محمد إلى الحرم ، وانطلق هند بن أبى هالة ابن الطاهرة سيدة نساء قريش إلى بعض شئونه .

وكانت خديجة فى سرور روحى فياض ، فهى ترى بعين بصيرتها أن أنوارا تفيض فى دارها كأنما تنسكب من السماء ، أنوارا تتألق فى الليل والنهار تبهر أنوار الشمس التى رأتها فى منامها تهبط من السماء لتستقر فى دارها قبل أن تتزوج أبا القاسم ، وقد صارت تشم روائح زكية يفوق أريجها كل ما فى الأرض من طيب وعطر ، إنها عبير ينعش الروح وينزل بالنفس نشوة صافية سرمدية تشرح الصدر وتملأ الجوانح بالرحمة .

وكانت تحس أن شيئا غامضا مثيرا ينفث فى روعها أنها مقبلة على أروع أيام حياتها ، وأن أنوار اليقين تشرق فى قلبها فتبدد عن سمائه كل السحب التى كانت تربطها بالدنيا حتى لتكاد أكثر الحقائق أن تنكشف لها ، وكانت تفعم بمشاعر نبيلة كلها روحانية فتطفر الدموع من مقلتها شكرا لله على أن خصها بلطفه ورحمته .

ووقعت عينا خديجة على ما فى دارها من فاخر الرياش والتحف النادرة التى استوردت من الشام ومصر والعراق وفارس فلم تحفل بالطرف الغالية والترف الذى ران على المكان ، بل زهدت فى كل متاع بعد أن تعلمت فى

مدرسة أبي القاسم أن المال يأكل نفسه وأنه لا يفرح به وأن قيمته فى قدر الحاجة إليه ، وأن الكنز الحق هو كنز صالح الأعمال ، وأن التفرح فى الله هو نبع السعادة الذى لا ينضب بل يربو ويزداد كلما نهل منه الناهلون .

كانت أموالها ممدودة ولكنها كانت زاهدة فيها ، فأبو القاسم قد غرس فيها حب الإنفاق وأن تكون كل حركاتها وسكناتها لله لا تريد بها إلا وجهه ، فقادها إلى ينبوع الفرح الصافى فصلحت نيتها فى الأخذ والترك والإنفاق ، وعرفت السعادة الحقة بالقرب من الله وتعريض قلبها لنفحات رحمته .

لقد مضت خمس عشرة سنة وهى فى كنف أبي القاسم تبدلت فيها نظرتها إلى الحياة والكون وما وراء الطبيعة ، فبعد أن كانت تتهلل بالفرح كلما عادت قوافلها بالأرباح زهدت فى هذه المادية الطاغية بعد أن ذاقت حلاوة رفرفة الروح فى الملكوت ، والفرح الفياض فى الجهاد المجنح للاتصال بذات الذوات ، والاستبشار بصفاء القلب وتزكيته وجلائه وإشراق أنوار المعرفة فيه .

كانت فى حيرة فى عباداتها قبل أن يعرف النور طريقه إلى دارها ، فقد تفتحت عيناها أول ما تفتحت على عبادة الأصنام وتقديس اللات والعزى ومناة وهبل ومئات التماثيل المكدسة فى الكعبة ومن حولها، ثم لما تزوجت من هند ابن أبي هالة بن زرارة التميمى عرفت الشىء الكثير عن عبادة تميم وكانوا يدينون بالمجوسية ويعبدون النار ، ولما كفر ابن عمها ورقة بن نوفل بدين قومه واعتنق النصرانية كانت تلقىٰ إليه سمعها وهو يحدثها عن إله بنى إسرائيل ورب المسيحيين فكانت مشتتة الفكر ليس لها قرار . حتى إذا ما جاء ابن عبد الله إليها بدد كل الشكوك وبذر فى عين ذاتها بذور الإرادة

والإخلاص ، وراح يدربها على السير فى طريق الله والتماس بقاء لا فناء فيه وعز لا ذل فيه وأمن لا خوف فيه وغنى لا فقر فيه وكمال لا نقصان فيه ، فأصبحت تستشعر أن عالمها أوسع من العالم الأرضى ، وأن مملكتها أعظم من كل الممالك . وأن استدرار لطائف المعارف من خزائن الملكوت خير وأبقى من الأموال المكنوزة و زينة الحياة الدنيا .

وسمعت خديجة وهى فى مكانها صرير باب فانتبهت فقد انتهى أبو القاسم من صلاته ، وعرفت فاطمة الزهراء أن أباها الحبيب قادم فأشرق وجهها بالبشر ، ولاح على وجه على بن أبى طالب الانشراح فقد كانت أسعد الأوقات تلك الساعات التى يمضيها رب البيت مع من فى البيت يفيض عليهم من حنانه وعلمه وحكمته .

وأقبل محمد على أهل بيته وهو يبتسم ، فرأت خديجة فيه هالة من نور تزداد تألقا على مر الأيام حتى لتكاد أن تفيض على مكة وتملأ الآفاق . ورأت فيه فاطمة جوهر الحنان وينبوع الحب فهرعت إليه رقيقة كالنسيم طاهرة كالندى متفتحة كزهرة الربيع ، ففتح لها ذراعيه فارتمت فى أحضانه فرفعها بين يديه وقبلها قبلة رقيقة لكأنها ذوب نفس لطيفة لبها الرحمة والصفاء . ورأى فيه علىّ الوالد الحنون والقدوة الصالحة والأسوة الحسنة ومدينة العلم التى ينهل منها ما يشاء كيفما يشاء وأنى يشاء ، ففتح نفسه وقلبه وعقله لأنوار المعرفة والحكمة المتدفقة من بين شفتى ابن عمه الكريم .

وجلسوا ترفرف عليهم البركات وترعاهم عناية السماء ، فهم فى حركاتهم وسكناتهم يجاهدون فى الله ليهديهم الله سبله ، يعيشون مع الله آناء الليل وأطراف النهار حتى صارت قلوبهم تخفق بذكر الله ، فقد صبروا فى

الله وصابروا بالله ورابطوا مع الله وذكروا الله فذكرهم الله .

كانت دار خديجة فى ظاهرها إحدى دور مكة التى تحيط بالحرم ، ولكنها كانت فى حقيقتها دارا تختلف عن كل ما حولها . فدور أم القرى مشدودة إلى الأرض غارقة فى الظلمات وإن انسكبت من نوافذها أنوار النهار ، بينا كانت هى منجذبة إلى السماء تشرق فيها أنوار تبهر الوجدان وتنير الأفئدة على الدوام .

ونهض أبو القاسم ليدور على دور بنى هاشم وبنى زهرة ويزور بناته قبل أن يعتكف فى غار حراء طوال شهر رمضان يتحنث ويأنس بربه ، فهو يصل رحمه ويعرف للقرابة حقها ، وهو يحب أن يشب ابن عمه الذى يتربى فى رعايته على صلته لأرحامه . فأخذ عليا معه وانطلق إلى دار أبى طالب .

واستقبل محمد فى الدار التى تكفلت به صبيا أحسن استقبال ، وأقبل على عمه وامرأة عمه فاطمة بنت أسد وأبناء عمه عقيل وجعفر وطالب بكل عواطفه فهو بطبعه لا ينسى فضلا لذوى الفضل ، وقد وجد فى أهل ذلك البيت من العطف والرعاية ما عوضه من موت آمنة وفقد عبد المطلب .

واستأذن محمد فى الانصراف فالتمست فاطمة بنت أسد من على أن يمضى نهاره عندها مع إخوته ، فأبى الصبى أن يفترق عن ابن عمه ولو ساعات فأسعد الأوقات وأمتعها لروحه تلك الفترات التى يعيش فيها مع أبى القاسم يستأثر وحده بعذب حديثه وغزارة علمه وفيض حكمته .

وانطلقا إلى دار عمهما أبى لهب فإذا بامرأة عمهما أم جميل بنت حرب ابن أمية ترحب بهما وتبش لهما ، وإذا بأبى لهب يقبل عليهما

وقد أشرق وجهه بابتسامة صادقة ، فقد كان أبو لهب يحب محمدا حبا صادقا وكان حريصا على أن يزوج ابنيه عتبة ومعتب لرقية وأم كلثوم ابنتى ابن أخيه الأمين .

وهرعت جارية إلى حيث كانت رقية وأم كلثوم وقالت لهما : إن أباهما قد جاء لزيارتهما . فطارتا بجناح الشوق إلى حيث كان الوالد الحنون فضمهما إليه فى حب شديد ، وما لبث أن جاء عتبة ومعتب ليسلما على أبى القاسم .

ودار حديث رقيق ورفرفت السعادة على الجميع ، وكان محمد أكثرهم انشراحا واستبشارا فابنتاه العزيزتان تعيشان فى دار عمه أبى لهب عيشة راضية ، وقد زاد فى سروره أن قرأ فى عينى ابنى عمه حبهما لرقية وأم كلثوم .

وخرج أبو القاسم وعلى لزيارة زينب ، وقد ذاع فى مكة خبر حب أبى العاص بن الربيع بن عبد العزى بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصى لابنة خالته زينب بنت محمد ، فأبو العاص كان كثير السفر فى تجارته ، وكان إذا هزه الشوق إلى امرأته راح ينشد الشعر شوقا إليها ، وقد ردد الرواة قوله فيها :

ذكرت زينب لما ورَّكت أرِ ما
فقلت سقيا لشخص يسكن الحرما
بنت الأمين جزاها الله صالحة
وكل بعل سيثنى بالذى علما

وبينا كان محمد وعلى فى طريقهما إلى دار أبى العاص إذا بفتى قصير دحداح فى السابعة عشرة من عمره قد جلس يبرى النبل ووقف عند رأسه

حمزة بن عبد المطلب ، فألقى محمد على عمه حمزة تحية طيبة ثم حدث الفتى حديثا يترقرق بالمحبة ، ولا عجب فقد كان الفتى سعد بن أبى وقاص ، وأبو وقاص هو مالك بن وهيب عم آمنة بنت وهب ، فكان محمد ينظر إلى سعد على أنه خاله ، فكل بنى زهرة أخواله .

وفى دار أبى العاص بن الربيع سعدت زينب بزيارة أبيها ، وسعد محمد بابنته وزاده غبطة أن زوج ابنته قد عرف فى مكة بالأمين كما عرف هو نفسه بذلك من قبل . وراحت هالة بنت خويلد تسأل عن أختها خديجة وعن فاطمة الزهراء وعن الأعزاء زينب ورقية وأم كلثوم ومحمد يجيب وقد انفرجت شفتاه عن الرقة ولاح فى عينيه المحمرتين صفاء النفس .

وفيما كان محمد وأبو العاص وهالة وزينب وعلى آخذين بأطراف الحديث إذ أقبل نوفل بن خويلد ليزور أخته ، وسرعان ما جاءت صفية بنت عبد المطلب ومعها ابنها الزبير بن العوام بن خويلد لرؤية هالة بنت خويلد ففاضت القلوب بالرحمة ، وأحس نوفل بعطف صفية على ابنها فتذكر يوم أن رأى صفية تضرب ولدها الزبير وهو صغير بعد أن قتل أبوه فى حرب الفجار وتغلظ عليه ، فعاتبها فى ذلك وقال لها فيما قال : أنت تبغضينه . فمس أذنيه وهو فى مجلسه قولها له فى ذلك اليوم :

من قال إنى أبغضه فقد كذب ... وإنما أضربه لكى يلب
ويهزم الجيش ويأتى بالسلب ... ولا يكن لماله خبء مخب
يأكل ما فى الظل من تمر وحب

كان حبل الوداد موصولا بين محمد وقومه فهو يزور كل من كان بينه وبين بنى هاشم صلة قربى ، فإذا مرض أحد من بنى مخزوم عاده فهو يذكر أن جدته أم أبيه عبد الله منهم ، ويفتح قلبه لآل عفان وبنيه فعفان تزوج

أروى بنت عامر بن كريز ابنة عمته أم حكيم البيضاء بنت عبد المطلب توأم أبيه ، وقد قرب عثمان بن عفان إليه لدماثة خلقه وأمانته التى اشتهر بها فضلا عن أنه ابن بنت عمته .

ولما مات عفان تزوجت أروى عقبة بن أبى معيط فولدت له الوليد وعمارة وخالدا وأم كلثوم ، فاتصلت الأسباب بينه وبين عقبة وآله . وكانت الصلات وطيدة بينه وبين بنى هلال لأن أم الفضل بنت الحارث الهلالية زوج عمه العباس منهم ، وبينه وبين بنى كلدة فى الطائف فالحارث ابن كلدة طبيب العرب كان زوج خالته ، وقد مرض سعد بن أبى وقاص ذات يوم مرضا فعاده أبو القاسم فقال : ادعوا له الحارث بن كلدة فإنه رجل يتطبب . فلما عاده الحارث نظر إليه وقال : ليس عليه بأس ، اتخذوا له فريقة[1] بشىء من تمر عجوة وحلبة يطبخان . فتحساها فبرئ .

كان قلب محمد بن عبد الله كبيرا يسع كل من كان بينه وبينه صلة رحم مهما كانت تلك الصلة بعيدة ، وكل من أسدى إليه معروفا مهما كان ضئيلا ، فهو لا ينسى أبدا حليمة السعدية التى أرضعته، ولا ثويبة التى بشرت عمه أبا لهب بمولده، ولا مرضعات بناته ولا حواضنهن، ولا أى ممن اتصل به بسبب، وكان عطفه سابغا عليهم جميعا فلا غرو أن أحبه كل من عرفه . ولو شاء أن يعيش فى سويداء قلوب قومه ناعم البال ينعم برغد العيش لوجد فى أموال خديجة ما يغنيه أبدا وما يرفعه إلى السؤدد والجاه والسلطان ، وفى حب الناس ما يرضى نفسه . ولكنه ما خلق للحياة الناعمة فقد اصطفاه الله ليجاهد فى سبيل تبليغ رسالة ربه ، ويتحمل الألم والعذاب والاضطهاد وعداوات الذين كانت قلوبهم تخفق بحبه حتى يتم الله نوره ولو كره الكافرون .

---

(١) تمر يطبخ بحلبة .

٧

أجدبت الحضارة الرومانية والحضارة الفارسية وضج رعايا الدولتين من فداحة الضرائب ، فقد ذابت الأموال فى الحروب الناشبة بين الرومان والفرس وكان على الناس أن يغذوا خزائن الدولتين اللتين أصبحت العداوة بينهما سمة العصر وحديث الدنيا .

ووهنت إشعاعات الثقافة الرومانية والثقافة الفارسية فلم يجد العرب ما ينهلون منه إلا قشور المعرفة ، وحسبوا أن الرقىّ موائد تمد وشراب وترف ولهو وغناء وقيان ورقص وقمار ، فراح سادات العُرب وأشرافهم يحاولون أن يقلدوا ما فى البلاط الفارسى من ترف وما فى قصور القسطنطينية وحوران وبصرى من الضلال ، فسرت الجهالة فى مكة وفى كل القبائل فى شمال الجزيرة العربية وجنوبها ، وظهر الفساد فى البر والبحر .

وبدا أن القبائل كلها تقاسى من طور المراهقة ، فلا سلطان لأحد على أحد محاولات دائبة للتحرر الاجتماعى والسياسى والدينى من قيود شريعة القبيلة ، فكانت المجتمعات العربية تكابد انهيارا معنويا قد خمدت فيه النوازع والنواهى ، فمات الإحساس بالندم لا سخط على فعل سيئ ولا شعور بعار ، بل زهو بإتيان الفواحش وإهدار الكرامة الإنسانية وسفك الدماء البريئة ، وما بقيت بعض الفضائل إلا للزهو والتفاخر .

وكانت حاسة الشرف تزمجر بين صدورهم كالوحش الضارى وإن كانت كل فعالهم لا تمت للشرف ، فقد كانوا جميعا كالذئاب العادية

والوحوش النافرة يأكل بعضهم بعضا : السلب فضيلة ، والرجال الأحرار موثوقون فى حلق الأسر ، والنساء الحرائر ينتزعن من أحضان بعولهن ليلهو بهن اللاهون ويتغنى بما وقع عليهن من اعتداء المغنون ويفخر بذلك المفتخرون ، فاغتصاب امرأة صار حديث السمار فهو يعد ضربا من ضروب البطولة والزهو .

وكان الشعراء يفخرون بسبى رجال قبائلهم لنساء أعدائهم ، فقد قال جرير يعير بنى دارم بغلبة قيس عليهم يوم رحرحان :

وبرحرحان غداة كُبِّل معبد
نكحت نساؤكم بغير مهور

وكانوا يعيرون نساءهم بأن الرجال لهم إليهن وسيلة ، فقد قال فارس الفوارس عنترة لامرأته :

إن الرجال لهم إليك وسيلة
أن يأخذوك تكحّلى وتخضّبى
وأنا امرؤ إن يأخذوه عنوة
أقرن إلى شد الركاب وأجنب
ويكون مركبك القعود ورحلة
وابن النعامة عند ذلك مركبى

وكانوا يحاولون أن يفتخروا حتى بما فيه مهانة ، فقد حاول شاعر أن يزهو بأنه يجد فى أثر السبايا المردفات على حقائب الإبل ليستنقذهن بالعشى ، فقال :

وأوثق عند المردفات عشية
لحاقا إذا ما جرى السيف مانع

فقيل له :

ـــ ويحك ! وأى فخر أن تلحق النساء بالعشى وقد نكحن وامتهن؟

فلا غرابة أن أصر أفلاطون على استبعاد الشعراء من جمهوريته .

وكان الرواة يجدون لذة فى سرد نوادر ما كان بين السبايا من نساء الأشراف وبين من سلبوهن ، وكانت قصة هند زوجة الحارث بن عمرو الكندى أكثر القصص ترديدا فى المجالس والنوادى ، ففى كل سامر كان راوية يقول :

ـــ سبى ابن هبولة الغسانى امرأة الحارث بن عمرو الكندى ، فلحقه الحارث فقتله وارتجع المرأة وقد كان نال منها ، فقال لها : هــل كان أصابك ؟ قالت : نعم ، والله فما اشتملت النساء على مثله . فأوثقها بين فرسين ، ثم استحفزهما حتى قطعها . وقال فى ذلك :

كل أنثـــى وإن بـــدا لك منها
آيـــة الـــود حبها خيتعـــور[1]

إن مـــن غـــره الـــنساء بـــود
بعـــد هنـــد لجاهـــل مغـــرور

وكانوا ينعمون بحرية شخصية ولا يعرفون الحرية الاجتماعية ، تغلب عليهم الفطرة والطبع . وما كان منهم من يفكر كيف برز هذا العالم الذى يعيش فيه إلى الوجود ، وما الخير وما الشر ، وما العدالة وما الظلم ، وما جزاء العدالة وما الذى يردع الناس عن المعاصى ، وما الجمال وما الحب ، وما الغنى وما الفقر ، وما الحكمة وما الشجاعة ، وما العفاف وهل من مصلحة المجتمع أن ينظم

---

(١) الخيتعور : سيئة الخلق وكل ما لا يدوم على حاله .

الجنس ، وما حقوق النساء على الرجال ، بل قبلوا حياتهم وسلموا بها سواء أكانوا أحرارا أم عبيدا ، أغنياء أم فقراء ، وإن لم يستمرئوها .

وقد ألغوا الرئاسة العامة وعدوها لغوا ، وكل ما أخذته مكة من نظم الحكم فى الإمبراطوريتين المتنافستين على سيادة العالم أن جعلت لها مجلسا للشورى أشبه بالسيناتو مجلس الشيوخ الرومانى عرف بشيوخ دار الندوة، ولم يدخل تلك الدار إلا من بلغت سنه أربعين عاما. واستثنى من هذا الشرط بعض النوابغ من قريش كحكيم بن حزام وعمرو بن هشام (أبى جهل)، ومن عجب أن محمد بن عبد الله لم يكن من المرشحين ذات يوم ليكون من حكماء دار الندوة فقد حببت إليه العزلة لينأى الله به عن شرور مجتمعه، وليسير حرا طليقا من معتقدات قومه فى طريق رسالته.

ووزع شرف الرئاسة على بيوتات قريش ، فكانت الرفادة والسقاية فى قريش وكان صاحبها العباس بن عبد المطلب ، وكانت راية قريش « العقاب » فى بيت من بيوت شرفهم العشرة فإذا وقعت حرب أخرجوها ، فإن اتفقوا على أحد منهم أعطوه الراية ، وإن لم يجتمعوا على أحد رأسوا صاحبها فقدموه ، وكانت هذه الوظيفة من خصائص بنى أمية وكان صاحبها أبو سفيان بن حرب .

ولم تقف آمال أبى سفيان عند شرف حمل راية قريش عند الحروب بل كانت أطماعه تمتد إلى أن يصبح سيد مكة غير منازع ، بل حاكما على كل العرب كحليفه كسرى إن واتته الظروف ، فهو يرى بعينه الفاحصة أن مجد بنى هاشم فى أفول بعد أن وهن عظم أبى طالب واشتعل رأسه شيبا ، وثقل لسان الزبير بن عبد المطلب الذى كانت كل قبائل العرب ترتجف فرقا من هجوه .

وكانت السدانة والحجابة وظيفة دينية وعلى من يتولاها أن يقوم بخدمة

بيت الله وحفظ مفتاحه ، وكانت فى بنى عبد الدار وكان صاحبها عثمان بن طلحة ، فكان عليه وعلى عشيرته تدبير كل الشئون الاجتماعية داخل الحرم ، وكان عليهم أن يشرفوا على دار الندوة فهى فى الحرم فى دائرة اختصاصهم .

وكانت المشورة أشبه برئاسة المجلس وكانت فى بنى أسد رهط خديجة بنت خويلد وكان يتولاها منهم يزيد بن زمعة بن الأسود . وما كان رؤساء قريش يجتمعون على أمر حتى يعرضوه على صاحب هذه الوظيفة فإن أعجبهم وافقهم عليه وإلا تخير وكانوا له أعوانا

وكان أبو بكر صاحب الأشناق وهى الديات والمغارم ، وكان القرشيون يساعدون من يستحق المساعدة ممن حمل مغرما أو دية ، وكان النهوض مع صاحب المغرم لجمع المطلوب من خصائص بنى تيم ، فكان أبو بكر إذا نهض مع أحد ليجمع له صدقة الناس أعانوا من نهض معه وإن نهض غيره خذلوه ، فقد اشتهر أبو بكر بالصدق ومتانة الخلق .

وأما القبة فهى أشبه بوزارة الحرب وما كانوا يعمدون إليها إلا وقت الحرب ، فكانوا يضربون قبة يجمعون إليها ما يجهزون به الجيش وكان ذلك من خصائص بنى مخزوم رهط خالد بن الوليد ، وكان خالد صاحبها وصاحب الأعنة وهى رئاسة الفرسان .

وكانت السفارة فى بنى عدى وهى أن يمشى السفير للصلح بين حيين شبت بينهما نيران الحرب وتعاظم أوارها ، أو إذا نافر قريش حى للمفاخرة ، وكان صاحبها عمر بن الخطاب الذى استطاع أن يشق طريقه وأن يفرض نفسه على مجتمعه وهو لا يزال فى شرخ الشباب وربيع عمره .

وكانت الأيسار فى بنى جمح وهى الأزلام والقداح يضربون بها إذا

أرادوا أمرا ، وكانوا يؤمنون إيمانا صادقا بأن ما يخرج من الأزلام أو القداح إن هو إلا رغبة الإله ومشيئته ، فإذا جاء على غير هواهم قدموا القرابين للإله واستمروا فى ضرب القداح حتى يرضى ، وكانت آية رضاه أن يخرج القدح موافقا لهواهم ! وكان صفوان بن أمية صاحب الأيسار .

وكانت الأموال المحجرة وهى التى سموها لآلهتهم فى بنى سهم وهى أشبه بالأوقاف الخيرية ، وكان صاحب تولى النظر فى هذه الأموال الحارث ابن قيس .

كان هذا هو حال مكة ؛ قسم المجد فى بيوت شرفهم العشرة ، قد آوى كل من أبناء هذه البيوتات إلى ركن شديد من رهطه . فما كانت هناك شريعة مكتوبة ولا سلطة تأخذ الحق من القوى للضعيف وما كانت العدالة تطبق على الجميع ، إذا سرق من لا حول له ولا قوة قطعوه وإذا سرق شريف تركوه ، وما كان للضعفاء من ملجأ إلا أن يرتموا فى أحضان بيت من بيوت القوة يلتمسون منه الحماية خشية أن يتخطفهم الناس ويهضموا حقوقهم ، وكان على من يقبل إجارتهم أن يعلن على الملأ أنهم فى جواره وحمايته .

وكانت دار الندوة هى مركز السلطة فى مكة ولكنها عجزت عن إبداع التنظيمات التى تستهدف مصلحة المكيين جميعا سادة وعبيدا . وكان هم رجالها الأوحد ألا يقوى بيت على حساب بيت من بيوت الشرف حتى لا يستأثر بالقوة وحده ويستبد بالسلطان ، وكانت بيوت الشرف جميعا راضية ما دامت أموال التجارة تتدفق إلى مكة ، وخمور الشام ترد فى ركاب القوافل ، والحسان من مصر والشام والقسطنطينية والحيرة وفارس مردفات على حقائب الإبل ، وعرق البغايا يدر على السادة المترفين الذهب

والفضة ونقود كسرى وقيصر .

كان الفساد قد ران على مكة بعد قرون طويلة من الغضب والدماء وقسوة القلب وتمزيق أواصر الأخوة الإنسانية ، فبدا أن ذلك المجتمع ينحدر إلى الفناء لا أمل فى انتفاضة تقيله من سقطته ، ولا إرهاصا بعودة الربيع إليه بعد أن أطبق عليه خريف عمره ووهن عظمه ، وقد رفع خنجر الضلالة ليطعن به قلبه .

وكان الناس يتدفقون من الدور ومن الدروب إلى دار أبى سفيان لا يفكرون إلا فى الأرباح التى تعود عليهم من بضاعتهم التى سيشتركون بها فى رحلة الشتاء ، فقد كانت قريش تتأهب للخروج إلى اليمن ، وكان أبو سفيان زعيم القافلة يأخذ ما عند الناس من سلع وأموال لقاء عمولة يتقاضاها مقابل ما يؤدى لهم من خدمات .

وكان الناس يمرون بدار خديجة ويعجبون ، ففى مثل هذه الأيام كان ميسرة يفتح أبواب مخازن خديجة يستقبل ما يأتى به المكيون من تجارة بينا يكتب الكتاب صكوكا بما تسلموا ، ومحمد بن عبد الله يغدو ويروح وابتسامته الآسرة تشرق فى وجهه ، والإبل تتقاطر من كل صوب وحدب إلى دار الطاهرة سيدة نساء قريش ، فما بال السكون يخيم على المكان ؟ وما الذى زهد أهل البيت فى البيع والتجارة بعد أن كانت قوافل الطاهرة تعدل قوافل مكة كلها ؟!

حسب أناس أن خديجة بعد أن تزوجت ابن عبد الله وأنجبت منه ركنت هى وزوجها إلى الدعة وآثرا السلامة فماتت فيهما روح المغامرة ، وأنهما اكتفيا بما هما فيه من نعيم . وقال أناس إن الشيخوخة قد دبت فى ميسرة وإن خديجة لم تجد من تأتمنه على أموالها بعده ، وإنها وإن كانت تزوجت أمين

قريش فهى لم تعد تطيق فراقه بعد أن صار النور الذى ترى به وعقل العقل وروح الروح . و لم يكن يدرى بحقيقة ما يدور فى ذلك البيت المبارك إلا نفر قليل ممن يعيشون فيه ، ومن صحابة أبى القاسم ومن صفوة أقرباء الطاهرة الذين كانت تفضى إليهم بما ترى من أمور زوجها وما تسمع من روائع حكمته .

غرس محمد فى قلب خديجة أن الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بين الناس وتكاثر فى الأموال والأولاد ، وأن كل ما لله فليس من الدنيا ، وراح يرفعها من عالمها الأرضى إلى ملكوت السماء ، ويصفى فؤادها ويجلوه ليسعد بإشراق أنوار المعرفة فيه ، ويتذوق لذات روحية تفوق اللذات المادية التى يجلبها اللهو والتجارة ، فإذا بالحقيقة تتلألأ فى عين ذاتها ، وإذا بتجارتها وأموالها تهون فى سبيل نفحة من نفحات ربها أو جذبة من جذباته تفيض عليها سعادة لا تذوب ولا تنقشع ، بل تستقر حلوة سائغة فى أغوار نفسها وفى صميم وجدانها .

وباتت خديجة تنتظر حادثا جليلا بشرت به الأنبياء وفاضت به الكتب السماوية وتنبأ به الرهبان والأحبار والكهان ، فكانت ترقب فى لهفة إشراق أنوار اليقين من دارها وتعد نفسها ويهيئها ربها لتكون حاضنة دعوته وناصرة رسوله وأول المؤمنين به المؤازرين له بأموالها وروحها بل وبفلذات أكبادها .

إنها أصبحت متفرحة فى الله تحب الله لذاته وتحب زوجها لأنه قادها إلى طريق الله وفجر فى قلبها كنوزا من اللذات الروحية ما كان لها بها من علم . لذة المعرفة ولذة الإنفاق لوجه الله وبذل كل بذل فى سبيل سعادة البشرية والتماس الكمال إرضاء لكمال الكمال .

كان البيت الذى يبدو للناظرين هادئا ساكنا يسعد برغد العيش وينعم بكنوز الأموال ، ينبض بالجهاد فى سبيل التحليق إلى ما وراء الكون وما فوق المادة لينهل من خزائن الملكوت بركات ورحمة ، ويتعرض لنفحات ربه فيرفرف فى عوالم الفرح الفياض والسعادة الحقة .

وفتحت دار خديجة وخرج منها رب البيت محمد بن عبد الله ، فانطلق يحمل تجارته إلى أبى سفيان سيد بنى أمية الخارج فى تجارة قريش إلى الشام لعل الله يجعل فيها خيرا ، فأبو القاسم كانت له تجارته الخاصة ، فكان يرسل بضاعته إلى الأسواق ليعيش من حر ماله ويسد حاجاته — وما أقلها — مما يكسب ، على الرغم من أموال خديجة الطائلة .

٨

كان الظلام يلف الطائف وقد لاذ بنو ثقيف بدورهم ، وكان أمية بن أبى الصلت يقلب صفحات التوراة والإنجيل فى فتور بعد أن خمدت نار حماسته لما قال له علماء النصارى إن النبى المنتظر من قريش ، وأنه يبعث فى الأربعين .

إنه منذ ذلك اليوم وهو كئيب حزين ، فيا طالما جلس إلى نساء ثقيف وقال لهن سيرسل الله رسولا وهو يحس فى أعماقه أنه ذلك الموعود والمنتظر ، وقد بات لا يدرى ماذا يقول لهن لو تحققت نبوءة علماء النصارى الذين انقطعوا للعبادة فى صوامعهم وبيعهم وجاء نبى الأميين من قريش !

وراحت نار الغيرة والحسد تأكل صدره ويستشعر لسعها أليما فى فؤاده ، فهو لا يجد فى قريش كلها من يصلح فى زعمه للرسالة إلا عتبة بن ربيعة ، ولكن نبوءة علماء النصارى تؤكد أن ذلك النبى فقير وعتبة غنى . وأنه فى الأربعين وقد زاد عتبة على المائة . واشتد ضيقه لما راح يقارن بين علمه وصفاته وبين علم كل من أشرفوا على الأربعين من القرشيين وأهليتهم للنبوة ، فلم يجد فيهم من أوتى الحكمة أو من يتمتع منهم بمثل ما يتصف به من مكارم الأخلاق وحسن الخلق .

كان حليف بنى أمية وكان رفيق أبى سفيان فى كل رحلاته ، وكان يعرف عن أبى سفيان بخله وعهره . ولو لم يكن أبو سفيان قد جاوز

الأربعين لما خطر له على قلب ، فهو على الرغم من غناه ماجن لا يتجنب المحارم والمظالم ، وقد عجم أعواد كل رجال بنى أمية السائرين إلى الكهولة فلم يجد فيهم محوجا كريم الطرفين متوسطا فى العشيرة يجتنب المظالم والمحارم ويصل الرحم ويأمر بصلتها .

وفكر فى بنى هاشم فراح يزن شبابهم الداخلين فى الكهولة بموازينه ، فوجد أن غنى العباس قد أزرى به وأن الدنيا قد شغلته عن الدين فراح يقرض الناس بالربا ويأكل أموال الناس بالباطل ، وإن كان له شرف سقاية حجيج بيت الله . ولم يقف طويلا عند حمزة بن عبد المطلب فهو فارس وهو كريم وهو شريف وسط فى عشيرته ، وهو يتجنب المظالم ولكنه لا يتجنب المحارم ، فهو يكثر من الشراب ويقبل على اللهو إذا ما لعبت الخمر برأسه .

وطاف بذهنه أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب شاعر بنى هاشم وصديق ابن عمه محمد بن عبد الله الذى لا يفارقه ، فرن فى ضميره بعض هجوه لأعداء قومه ، ولم يجد فى شعره ما يدل على اهتمامه بأمر السماء فأشاح بتفكيره عنه . وراح يستأنف الفحص عن رجالات بنى هاشم حتى إذا ما بلغ أبا القاسم أمعن الفكر طويلا . فهو طاهر القلب نقى الضمير يتحنث طوال شهر رمضان فى غار حراء ، وقد اشتهر بين قومه بالأمين ، وهو يتجنب المظالم والمحارم ويصل الرحم ، وهو كريم الطرفين وسط فى العشيرة ، وهو فقير ويقف على أعتاب الأربعين ، واشتدت ضربات قلب أمية وانبهرت أنفاسه ولكنه راح يحاول أن يعيد الطمأنينة إلى فؤاده ، فجعل يؤكد لنفسه أن محمدا لا يدرى ما الكتب السماوية وما الإيمان ، وهو لا يعرف القراءة ولا الكتابة ، وما كان الله فى وهمه يبعث من

كان مثل ابن عبد الله لتبليغ رسالته !

وفكر فى سادات بنى مخزوم فلم يجد فيهم رجلا يصلح للرسالة غير الوليد بن المغيرة ، إلا أن الوليد كان كعتبة بن ربيعة قد أزرى به المال والسن ، فأموال الوليد ممدودة حتى إنه يكسو الكعبة سنة وتكسوها قريش سنة ، فهو عدل قريش كلها وقد فات الأربعين بسنين .

وراح يعجم أعواد بنى تيم فلم يجد فيهم من هو خير من أبى بكر ، فهو دمث الأخلاق طيب القلب متواضع لين الجانب ، يُكسب المعدوم ويصل الرحم ويحمل الكل ويقرى الضيف ، يصون عرضه ويحفظ مروءته ، وإنه ليذكر له أن رجلا دعاه أن يستصحبه لحاجة يعينه عليها فرآه يمر فى طريق غير التى يمر منها فسأله : أين تذهب ؟ هذه الطريق ! قال الرجل : إن فيها أناسا نستحى منهم أن نمر عليهم . قال : تدعون إلى طريق نستحى منها ؟ ما أنا بالذى أصاحبك .

إن أبا بكر رجل سمح ودود يألف الناس ويألفه الناس ، وهو يمتلئ بنشوة الإعجاب برجال الإصلاح ، ولكنه ليس من أصحاب الرسالات وإن كان مؤمنا بالغيب يجيد تأويل الأحلام ، فلا بد له من قدوة حسنة يعجب بها ويتعصب لها ويضع نفسه وماله فى سبيل تأييدها ونصرتها .

واستمر أمية بن أبى الصلت يقيس مواهبه وصفاته بمواهب رجالات بيوت شرف قريش العشرة التى تؤهلهم للنبوة ، فلم يجد فيهم من يصلح لمنافسته على شرف الرسالة . فكان يضيق بنبوءة علماء النصارى التى أكدت له أن النبى المرتقب من قريش ، رجل شاب حين دخل فى الكهولة بُدُو أمره ، يجتنب المظالم والمحارم ويصل الرحم ويأمر بصلتها ، وهو محوج كريم الطرفين متوسط فى العشيرة ، أكثر جنوده من الملائكة !

وكان الحارث بن كلدة طبيب العرب يقرأ ما وصل إلى يديه من علم أطباء فارس والروم ، وكان ابنه النضر بن الحارث يروى على مسامع والده قشور العلوم التى حصّلها من الفرس وبعض أجزاء الحكمة التى امتصها من الكتب ، وقد انتفخت أوداجه غرورا فقد وقر فى ضميره أنه حكيم العرب وعالمها وأنه من الظلم له أن يقارن بحكام القبائل الذين تجرى على ألسنتهم أحيانا بعض الحكم والخطرات الفلسفية .

وكان عروة بن مسعود سيد بني ثقيف فى داره ومن حوله أشراف الناس يتحاورون ويتجادلون ، ويلقى الرواة ما حفظوا من الأشعار التى أنشدت فى الأسواق ، والنوادر التى كانت تسلية السمار ، والأخبار التى التقطوها فى أثناء رحلاتهم إلى جند يسابور أو الحيرة أو بصرى أو غزة أو منف أو يكسوم أو صنعاء. وبينا كانت الطائف تحيا حياتها الليلية المألوفة، إذا بأصوات فزع وهلع جعلت الناس يهرعون إلى خارج الدور ليروا ماذا جرى .

وتعلقت العيون بالسماء فإذا برهبة تنزل بالصدور ، وإذا بخفقات القلوب تشتد وقد زاغت الأبصار ، فالشهب تساقط من السماء . وبقى الناس فى ذهول لحظات ، ثم راحت صيحات الهلع تزلزل الطائف فقد أشرف العالم على الفناء .

وماج الناس بعضهم فى بعض ، وراح السادة يعتقون رقيقهم وسيبوا أنعامهم وانطلقوا إلى الفضاء لا يلوون على شيء يحسون أن سيتخطفهم الموت ، قد ذهل الأب عن بنيه ، والزوج عن زوجه ، والأم عن وليدها .

واستمرت النجوم تهوى لكأنما كان من فى السماء يرجم أهل الأرض ، فبلغت القلوب الحناجر وكاد الرعب أن يقضى على النفوس قبل أن تنشق الأرض

وتندك الجبال على الرءوس ، وظل الناس يجرون هنا وهناك ولكن أين المفر ؟!

وفزعت ثقيف إلى عمرو بن أمية ، وكان رجلا منهم وكان أدهى العرب وكان يخبرهم بالحوادث وكان ضريرا ، فقالوا له :

— يا عمرو ، ألم تر ما حدث فى السماء من الرمى بهذه النجوم ؟

فقال فى قلق :

— بلى ، فانظروا فإن كانت معالم النجوم التى يهتدى بها فى البر والبحر وتعرف بها الأنواء من الصيف والشتاء هى التى يرمى بها فهو والله طى هذه الدنيا وهلاك هذا الخلق الذى فيها ، وإن كانت نجوما غيرها وهى ثابتة على حالها فهو لأمر أراد الله بهذا الخلق .

ورأى أهل مكة الرجم بالشهب والنجوم تهوى من عليائها فانخلعت القلوب وران الفزع الأكبر على الوجوه وارتجفت الأوصال وزلزلت الأرض تحت الأقدام ، والناس ينتظرون الهول والدمار ويترقبون أن تخر عليهم السماء وتنهار عليهم الجبال . وباتوا فى رعب من أن تأخذهم الرجفة فيصبحوا فى دارهم جاثمين ، أو تخسف بهم الأرض فيكونوا من الهالكين ، ففزعوا إلى الحرم يطوفون به ويقدمون القرابين ويتمسحون بالأصنام ويبتهلون إلى ربهم والدموع تبلل اللحى والخدود ، ويسألونه فى صدق أن يرفع عنهم مقته وغضبه .

وحاول الكهان أن يكشفوا عن سر السماء فباءوا بالإخفاق ، فجزع الناس وقالوا فى يأس مرير :

— هلك من فى السماء .

فجعل صاحب الإبل ينحر كل يوم بعيرا ، وصاحب البقر ينحر كل

يوم بقرة ، وصاحب الغنم ينحر كل يوم شاة ، حتى أسرعوا فى إتلاف أموالهم واستبد بهم الخوف والقلق فركبوا إلى عبد ياليل الثقفى ، فقالوا :

ــ إن الناس قد فزعوا وقد أعتقوا رقيقهم وسيبوا أنعامهم .

فقال لهم :

ــ انظروا البروج الاثنى عشر ، فإن انقض منها شىء فهى ذهاب الدنيا ، وإن لم ينقض منها شىء فسيحدث فى الدنيا أمر عظيم .

وقالت ثقيف لقريش :

ــ أيها الناس أمسكوا على أموالكم فإنه لم يمت من فى السماء ، ألستم ترون معالمكم من النجوم كما هى والشمس والقمر ؟

ورأى الناس فى يثرب النجوم يرمى بها فقالوا :

ــ ولد مولود .. مات ملك .. مات مولود .

وكان عمرو بن عنبسة السلمى يدخل تيماء وكان قد رغب عن آلهة قومه ، فلما حط الرحال لقى رجلا من أهل الكتاب فقال له :

ــ إنى امرؤ ممن يعبد الحجارة فينزل الحى ليس معهم إله . فيخرج الرجل منهم فيأتى بأربعة أحجار فيعين ثلاثة لقدره ويجعل أحسنها إلها يعبده ، ثم لعله يجد ما هو أحسن منه شكلا قبل أن يرحل فيتركه ويأخذ غيره ، وإذا نزل منزلا سواه ورأى ما هو أحسن منه تركه وأخذ ذلك ، فرأيت أنه إله باطل لا ينفع ولا يضر فدلنى على خير من هذا .

فقال الرجل وهو يتفرس فى وجه عمرو بن عنبسة :

ــ يخرج من مكة رجل يرغب عن آلهة قومه ويدعو إلى غيرها ، فإذا رأيت ذلك فاتبعه فإنه يأتى بأفضل الدين .

فانطلق عمرو إلى مكة وسأل :

— هل حدث حدث ؟

فقيل له :

— لا .

فلم يعد له هم إلا مكة يأتى فيسأل :

— هل حدث حدث ؟

وراح الكهان يعوذون برجال من الجن ليسترقوا السمع فى مقاعد لهم ويلقوا ما يسمعون إليهم ، فإذا بمن يحاول أن يستمع يجد له شهابا لا يخطئه ، فقد منعت الشياطين من خبر السماء تطهيرا للأرض من الكهانة وتمهيدا لنزول الوحى الكريم بالنور الذى سيشرق باليقين فى قلـوب البشر .

وصاح صائح من الكهان :

— قد منع السمع عتاة الجان .

﴿ وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهـم رهقا * وأنهم ظنوا كما ظننتم أن لن يبعث الله أحدا * وأنا لمسنا السَّماءَ فوجدناها ملئت حرسا شديدا وشهبا * وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصدا * وأنا لا ندرى أشر أريد بمن فى الأرض أم أراد بهم ربهم رشدا ﴾[1] .

---

(١) سورة الجن الآيات ٦ — ١٠ .

٩

كانت نار العداوة متأججة بين الأوس والخزرج ما إن يطفئها عاقل من عقلائهم حتى يشعلها سفيه من سفائهم ، فيمشى الرجال إلى الرجال وتتقارع السيوف فتسيل الدماء وتزهق الأرواح وتتغلغل العداوات فى سويداء القلوب .

وكانت المعارك الحربية تهدأ بين الحين والحين ، ولكن معارك الشعراء من الجانبين ما كان ليعتريها الفتور ، فشعراء الأوس وعلى رأسهم قيس بن الخطيم وقيس بن الأسلت كانوا يفتخرون بقومهم ويذكرون مثالب أعدائهم ، وكان شعراء الخزرج وعلى رأسهم حسان بن ثابت وعبد الله بن أبى رواحة يمتدحون رهطهم ويهجون كل من انتسب إلى الأوس بسبب .

وأصبحت العداوة بين قيس بن الخطيم وحسان بن ثابت علامة من علامات الحياة فى يثرب ، فقيس بن الخطيم يشبب بعمرة زوج حسان ، وحسان يشبب بأخت قيس ليلى بنت الخطيم ، والرواة من الجانبين يمشون بذلك التشبيب بين القبائل ليكون مادة للسمر فى منتدياتهم .

وصار حديث الحرائر مضغة فى الأفواه ، فقيل إن خولة أخت حسان أنشدت متعشقة عمارة بن الوليد المخزومى :

يا خليلى نابنى سهدى	لم تنم عينى ولم تكد
فشرابى ما أسيغ وما	أشتكى ما بى إلى أحد
كيف تلحونى على رجل	آنس تلتذه كبدى
مثل ضوء البدر صورته	ليس بالزميلة النكد

مـــن بـــى آل المغيرة لا خامــل نــكس ولا جحــد
نظـرت يومـا فـلا نظـرت بعـده عينـى على أحـد

وكان حسان يهجو قيسا ويهجو الأوس هجاء مرا ، وكانت القبائل تخشى لسانه الذى قال فيه : والله لو وضعته على شعر لحلقه أو على صخر لفلقه . وقد وضعه على قيس والأوس فنالهم منه شر عظيم ، فالشعر نكد يقوى فى الشر ويسهل .

وشجر قتال بين الأوس والخزرج فوضعوا أبناءهـم ونساءهـم فى الحصون ، واشتدت الخصومة بين الحيين حتى إن الرجل لم يعد يأمن أن يخرج من حصنه إلى عمل يقضيه خوفا من القتل ، وجلس حسان فى حصنه وقد أسدل ناصيته بين عينيه وأطلق لخياله العنان ، فتذكر تلك الأيام التى ذهب فيها إلى الحيرة وعاش فى قصر الخورنق يلقى قصائد المديح بين يدى النعمان بن المنذر . فما لبث أن أحس حسرة على زوال مـلك المناذرة ، بعد أن قتل كسرى النعمان وولى فارسيا على إمارة اللخميين .

وفى مثل لمح البصر انتقل خيالـه إلى بلاط الغساسنـة فانفـرجت أساريره ، فجبلة بن الأيهم صديقه . فما من مرة ذهب فيها إلى قصره إلا وخلع عليه ثيابه التى عليه فى ذلك اليوم وعلى غيره من جلسائه .

ورن فى ضميره أصوات الغناء التى سمعها فى مجلس جبلة ، ورأى بعين خياله ما فى ذلك المجلس من جلال وعظمة وبهاء . عشر قيان . خمس روميات يغنين بالرومية بالبرابط ، وخمس يغنين غناء أهل الحيرة ، وجبلة جلس للشراب وفرش تحته الآس والياسمين وأصناف الرياحين ، وضرب له العنبر والمسك فى صحاف الفضة والذهب ، وأوقد له العود المندى إن كان شاتيا ، وإن كان صائفا بطّن بالثلج وأتى هو وأصحابه بكساء صيفية ،

يمتاز هو وأصحابه بها .

واقتتلت الأوس والخزرج قتالا شديدا بالربيع(١) ، وبقى حسان فى حصنه لا ينطلق مع الرجال للقتال فقد قطع أكحله(٢) فلم يكن يضرب بيده ، وراح يقول فى حسرة وألم :

أضر بجسمــــى مــــر الدهـــــور
وخـــان قـــراع يـــدى الأكحـــل
وقـد كـنت أشهـد وقــع الحروب
ويحمـــــــر فى كفـــــــى المنصل

وما كان حسان جبانا ، فلو عرف عنه الجبن لعيره به غريمه قيس بن الخطيم الذى يتصيد سقطاته ومثالبه .

ومشت الأوس لإقرار الصلح بين الحيين العربيين خشية أن يقوى اليهود ويعود نفوذهم فى يثرب ويشتد سلطانهم ، فأبت بنو النجار من الخزرج وحالوا بين الفريقين وبين السلام حتى كثر فيهم القتل ، ثم كف بعضهم عن بعض وإن بقوا على عداوتهم وتشاحنهم .

ووضعت السيوف فى قربها ، وعادت السهام إلى جعبها . ولكن ألسنة الشعراء استمرت فى الانطلاق ، قال حسان معددا أمجاد الخزرج :

ويثرب تعلـــــم أنـــــا بها إذا التـــبس الحق ميـــزانها
ويثرب تعلـــــم أنـــــا بها . إذا قحــط القطــر ندمـــانها
ويثرب تعلـــــم أنـــــا بها إذا خـــافت الأوس جيرانها

---

(١) اسم مكان .

(٢) الأكحل : عرق فى اليد .

ويثرب تعلـــم أن النبيـــ ... ـــت عنـد الهزاهـز[1] ذلانها
نـبت بالنبـيت وأشياعهـــا ... من ان أوعدت قط أرطـانها
فكيـــف إذا نـــازلتها بها ... ليـوث غريـف[2] وشبـلانها
متى ترنـا الأوس فى بيضنـا ... نهز القنـــا تخبُ نيرانها
وتعـط المقـاد على رغمهـــا ... وينـزل مـن الهام عصيـانها
ويثرب تعلـــم أن النبيـــ ... ـــت ليست بشيء وأعـوانها
فـلا تفخـرن والتمس ملجـــأ ... فقـد عـاد لـلأوس أديـانها
ونحن إذا حـــاربت عامـــر ... أمـــام الكتيبـــة أعيـــانها

ولا يسكت بالطبع قيس بن الخطيم بل يقول فيما يقول :

نحن الفـوارس يـوم الربيـــ ... ـــع قد علموا كيف فـرسانها
جنبنـا الحراب وراء الصريـــ ... ـــخ حتى تـقصف مـرانها[3]
فلما استقل كليث الغريـف ... زان الكتيبـــة أعـــوانها
تراهن يخلجن خلـج الـدلاء ... تختلـــج النـــزع أشطـــانها
ويثرب تعلـــم أن النبـــيت ... رأس بـــيثرب ميـــزانها
حسان الوجوه حداد السيـو ... ف يبتـــدر المجد شبـــانها
وبـالشوط مـن يثرب أعبـد ... ستهلك فى الخمـــر أثمانها
يهون على الأوس أثمانهم ... إذا راح يخطـــر نشوانها

وما كان السلام يدوم طويلا بين القبيلتين فالاستفزازات مستمرة ، وتقاليد الجاهلية مسيطرة على العقول ، والعداوة تطل بخطمها تهتبل أية

---

(١) الشدائد .   (٢) الغريف : الأكمة وكل شجر ملتف .

(٣) المران : الرماح .

سانحة لتثير القتال . وقد حدث أن نزل بحاطب بن قيس الأوسى رجل من ذبيان أكرمه وأقام عنده ، وذات يوم غدا هذا الرجل إلى سوق بنى قينقاع فرآه أحد بنى الحارث بن الخزرج فقال لرجل يهودى :

— لك ردائى إن كسعت هذا الذبيانى .

ففعل اليهودى فنادى الذبيانى :

— يا لحاطب ! كسع ضيفك وفضح !

فجاء حاطب فقتل اليهودى ، فقتل الخزرجى رجلا من الأوس لا ذنب له بذلك اليهودى ، وثارت الحرب بين الحيين ، وكان على الخزرج عمرو ابن النعمان البياضى وعلى الأوس خضير بن سماك الأشهلى .

وعلم عيينة بن حصن بن حذيفة بن بدر وخيار بن مالك الفزاريان بالأمر ، فقدما يثرب وتحدثا مع الأوس والخزرج فى الصلح وضمنا أن يتحملا الديات ، فأبوا وامتشقوا الحسام وكانت الدائرة على الأوس .

كانت يثرب تموج بالعداوات وتنبض بالخطايا . ففيها أشهر سقيفة لصاحبات الرايات الحمر من البغايا ، فكان شباب القبائل يقصدون إليها ، وكانت منزلا للفسقة من سادات الأسرات وأوشابها ، فكانت الخمور تجرى فيها جريان الأنهار ، وكان اليهود تجار النشوة واللذة يجمعون الأموال من الربا ويقترفون كل منكر لسلب العرب وكنز الذهب والفضة ، فقد وقر فى ضميرهم أن ليس عليهم فى الأميين سبيل ما دام دم غير اليهود وشرفه وماله حلالا لهم .

وكان اليهود يعملون على توسيع رقعة الخلاف بين الأوس والخزرج لتشغل كل قبيلة بثاراتها ، وعلى الرغم من انشغال الحيين بعداوتهما عنهم فلم يكن اليهود جميعا بل كانت قلوبهم شتى بأسهم بينهم شديد . وكان

يقع أحيانا بين العرب واليهود شيء من النفور فإذا ما قاتلوا الكفار قالوا : نسألك بالنبى الذى وعدتنا أنْ ترسله ، وبالكتاب الذى تنزله إلا ما نصرتنا ، فكانوا ينصرون ، وإذا ما بطش العرب بهم قالوا لهم :

ــ إن نبيا مبعوثا قد أظل زمانه نتبعه ، نقتلكم معه قتل عاد وإرم .

وذات يوم بينا كان أناس من اليثربيين العرب جالسين وبينهم سلمة بن سلامة ، إذ بيهودى من بنى عبدالأشهل يقف على رأسهم ويذكر القيامة والبعث والحساب والميزان والجنة والنار ، فقالوا له :

ــ ويحك ، أوَ ترى هذا كائنا أن الناس يبعثون بعد موتهم إلى دار فيها جنة ونار يجزون فيها بأعمالهم ؟

ــ نعمْ والذى يحلف به . وليود أى شخص أن له بحظه من تلك النار أعظم تنور يحمونه ثم يدخلونه إياه فيطبقونه عليه ، بأن ينجو من تلك النار غدا .

ــ ويحك وما آية ذلك ؟

ــ نبى يبعث من نحو هذه البلاد .

وأشار بيده إلى مكة واليمن ، وقالوا :

ــ ومن يراه ؟

فنظر إلى سلمة بن سلامة وهو أحدثهم سنا وقال :

ــ إن يستنفذ (يستكمل) هذا الغلام عمره يدركه .

وساد الصمت وإن كان يدوى فى ضمير الوجود صوت اليهودى الذى وقف على جبل من أربعين سنة يصيح :

ــ طلع الليلة نجم أحمد .

وإن كانت الشهب يرمى بها لتطهير السماء لنزول الوحى على خاتم الرسل ، ليشرق النور على العالمين .

١٠

كان بنو جمح مجتمعين فى ناديهم حول الكعبة ، وكان فيهم أمية بن خلف بن وهب بن حذافة بن جمح وصفوان بن أمية صاحب الأيسار ، فما كان أحد يضرب القداح والأزلام عند هبل قبل أن يلتمس الإذن منه . وكان بلال بن رباح واقفا يصغى إلى أحاديث القوم ، وسرعان ما مشى إليه واستشعر رغبة فى أن ينطلق إلى أبى بكر بن أبى قحافة يسعد بالأنس به وإرواء النفس من نبعه الصافى .

كان بلال مولى لبعض بنى جمح مولدا من مولديهم ، وكان اسم أمه حمامة ، وقد شب فيهم أمينا ذا خلق قويم فكانوا يخرجونه فى تجارتهم فكان يعود بالأرباح الوفيرة ، وزادت الثقة فيه على مر الأيام فكان لبنى جمح كما كان ميسرة لخديجة أمين القافلة وصاحب الأمر فيها .

وفى رحلات الشتاء والصيف عرف بلال أبا بكر فعرف فيه التواضع ولين الجانب والنجدة والكرم والسخاء ، يغار على مروءته ويتجنب ما يريب ، فلم يشرب الخمر حتى لا يخدش وقاره ، وما كان يكذب وما أخلف وعدا قط فتفتحت نفس بلال له . فكانت أسعد ساعات حياته تلك التى يقضيها فى صحبته يلقى إليه سمعه لتستمتع روحه بحكمته وعذب حديثه .

كان بنو جمح يرفلون فى العز . فكانت دار أمية بن خلف تزدان بالتحف المجلوبة من فارس وبلاد الشام ومصر ، وكانت دار صفوان بن

أمية تموج بفتيات من كل الأجناس ، وكانت الدفوف تضرب والراقصات يرقصن للرجال والشراب يراق فى البطون لجلب النشوة ، والرواة يروون أباطيل الشعراء ، والظرفاء يلقون النوادر المكشوفة دون حياء ، وأذرع السادة تلتف حول خصور الغوانى ، والضحكات الماجنة الآثمة تعلو على أصوات القيان المغنيات ، فقد أطلق للجنس عنانه وتفجرت فى النفوس شهوات وقتية حكم عليها أن تموت عند قمة نشوتها .

وكان بلال يعاين كل ما يجرى فى دور بنى جمح من فساد بله فى كل دور شرفاء قريش ، ولكنه لم يكن يستنكر شيئا فقد شب وترعرع فى قوم يفخرون بإنفاق الأموال فى شرب الخمور وفى لعب الميسر وفى حض فتياتهم على البغاء ، وينتزعون النساء من أحضان الأزواج ويغتصبون البنات من الآباء والأمهات ، وتتغزل حرائرهم فى الرجال ويمشى الرواة بذلك الغزل فى القبائل ، وكان الرجال يبعثون بنسائهم عن طيب خاطر إلى أشرافهم وإلى أقوياء الأبدان والأذهان يستبضعن منهن وينجبن ذرية من النابهين الأقوياء .

وما كان للمرأة وزن فالأزواج يخلعون النساء فى يسر كما يخلعون النعال ، وما من امرأة فى قبائل العرب إلا وقد طافت على أزواج كثيرين فما كانت أكثر من متاع .

وكانت المتع المادية طابع بيوت الشرف فى مكة ، وما كانت العبادات إلا نوعا من تقديس تقاليد الآباء ، وما كانت تمارس إلا طمعا فى نعيم الدنيا ودفعا لأذى الآلهة الذى يصيب الناس فى الأرض ، فما كان للدين مكان فى أعماق النفوس وسويداء القلوب إن هو إلا عصبية من عصبيات الجاهلية .

وكان بلال يخرج مع الخارجين إلى الحرم يطوف بالبيت العتيق ويقدم القرابين للأرباب ويدين بالولاء للات والعزى وإن كان يحترم الآلهة الأخرى ، مثله فى ذلك مثل قريش الذين ولد فيهم . وكان يعيش فى دنيا الشر وإن كانت فى أعماقه كنوز مطمورة زاخرة بالخير لم تجد من يكشف عنها الغطاء ، وكانت تلك الكنوز تسفر عن معدنها كلما ألقى سمعه إلى بعض من ارتفعوا بإنسانيتهم عن مادية العصر وفجوره .

وكان يجد راحة نفسية كلما جلس إلى أبى بكر وكان معجبا بوقاره واعتداله وسماحة خلقه وكرمه ، فلو أن أبا بكر لم يبلغ بعد الثامنة والثلاثين من عمره إلا أنه كان أكثر وقارا من شيوخ قريش وساداتها ، وكانت أمتع لحظات حياته تلك التى يذهب فيها لزيارة أبى بكر ويجد عنده صديقه محمد ابن عبد الله ويصغى إلى سحر حديثه ، فقد كان يحس نشوة عارمة تملأ جوانحه وكأنما يرتفع إلى السماء .

وملأت صورة محمد أقطار رأسه واستولت على لبه ، إنه متواصل الأحزان دائم الفكرة ليس له راحة ، طويل السكوت لا يتكلم فى غير حاجة ، ليس بالجافى ولا المهين ، يعظم النعم وإن دنت لا يذم منها شيئا ولا تغضبه الدنيا ولا ما كان لها ، فإذا تعدى الحق لم يكن لغضبه شىء حتى ينتصر له ولا يغضب لنفسه ولا ينتصر لها .

إنه خافض الطرف نظره إلى الأرض أطول من نظره إلى السماء ، ومن رآه بديهة هابه ومن خالطه معرفة أحبه ، لا يحسب جليسه أن أحدا أكرم عليه منه ولا يطوى عن أحد من الناس بشر ، قد وسع الناس بسطة وخلقة ، وهو أشد الناس حياء ، لا يثبت بصره فى وجه أحد ، له نور يعلوه كأن الشمس تجرى فى وجهه، لا يؤيس راجيه ومن سأله حاجة لم يرده

إلا بها أو بميسور من القول ، أجود الناس بالخير .

واستمر بلال يفكر فى ابن عبد الله ، إنه يحس كلما أعاره سمعه أنه يصغى إلى ترانيم آتية من وراء عالم شفاف رقيق طاهر ليس من هذه الدنيا التى تموج بالغلظة والقسوة و الشرور . وأن أحاديثه صادقة نابضة بالإيمان تنفذ إلى القلب وتملؤه بالنور . وأن كل فعاله تؤكد أنه إنما خلق للناس لا لنفسه ، فهو يعين الملهوف ، ويبذل كل‌ما يصل إليه للفقراء والمساكين وابن السبيل ويتحمل المتاعب فى سبيل راحة الآخرين وأنه مشرق على الدوام لكأنه منارة فى بحر لجى جثم عليه ظلام ثقيل . فقد تمثل فيه الكمال الإنسانى .

واستولى على بلال شعور غامض بالإعجاب بأبى القاسم ، إعجابا ليس له حدود . وإن عجز عن أن يفسر ذلك الشعور فمن أين له أن يفطن إلى أن ذلك الإنسان الكامل قد خلق ليكون بداية خير زمن فى تاريخ البشرية جمعاء !

وضاق بلال بأحاديث سادات بنى جمح وبأشعار الشعراء الماجنين فانسل من نادى القوم وغادر الكعبة وانطلق إلى أبى بكر ، وهو يمنى النفس بلقاء أبى القاسم ليغسل أدران الروح ويصفى القلب من شواغل الدنيا ويهيم معه فى ملكوت كريم ينبض بمشاعر تسمو بإنسانية الإنسان .

* * *

وكان سعد بن أبى وقاص فى ذلك الوقت يلقى تحية طيبة على أمه التى يحبها بكل جارحة من جوارحه قبل أن يغادر الدار ، وسرعان ما خرج من دور بنى زهرة وانطلق فى الطريق الذى كانت حوانيت العطارين على جانبيه، وكانت دكان أبى طالب تكاد تكون خالية من الطيب والمسك والعنبر

بينا كانت دكان أسماء بنت مخربة أم بنى المغيرة وجدة أبى الحكم بن هشام (أبى جهل) غاصة بأفخر أنواع العود والمندل والأطياب المجلوبة من اليمن وأرض البخور .

وأمام دار خديجة التقى بعمار بن ياسر فوقف الشاب يحادث عمارا الذى كان رفيق محمد بن عبد الله فى رحلاته ، وقد قال عمار إنه ذاهب لزيارة أبى القاسم قبل أن يهل هلال رمضان ويصعد محمد إلى غار حراء ليتحنث كما اعتاد أن يفعل فى كل عام . واعتذر سعد بأن محمدا قد زاره بالأمس وأنه منطلق إلى دار أبى بكر ليسأله عن تأويل رؤيا رآها ، ولم يعجب عمار لذلك فقد عرف عن أبى بكر براعته فى تفسير الأحلام .

وجلجلت ضحكات من دار أبى سفيان المقابلة لدار خديجة فالتفت سعد وعمار وفى أعينهما دهش ، فأبو سفيان قد خرج على رأس قافلة قريش إلى اليمن ، فإذا بحنظلة بن أبى سفيان ويزيد بن أبى سفيان وعمرو بن أبى سفيان ومعاوية بن أبى سفبان مقبلين ومن حولهم رجال من بنى أمية وقد أخذوا طريقهم إلى المسجد الحرام .

وعرج عمار إلى دار خديجة ، وانساب سعد إلى الكعبة فطاف بها ثم خرج من باب بنى مخزوم ومر بدار الأرقم بن أبى الأرقم المخزومى ثم سار غربا إلى المسفلة حيث دار أبى بكر ، فألفى عبد الرحمن بن أبى بكر خارجا للقنص وقد ركب فرسه وتنكب قوسه ، ودار حديث رقيق بين بارى النبل القصبر الدحداح وبين ابن أبى بكر الذى يشب فارسا شاعرا ككل أبناء بيوتات قريش ، ثم دلف سعد إلى الدار .

كان أبو بكر جالسا وعنده حكيم بن حزام بن خويلد — وقد صارت دار الندوة إليه بعد أن كانت لبنى عبد الدار ، اشتراها لتكون مكرمة له

ولأبنائه من بعده — وعثمان بن عفان والزبير بن العوام وأبو عبيدة بن الجراح وعبد الرحمن بن عوف وطلحة بن عبيد الله وبعض شباب قريش . وكانوا جميعا من الشباب القرشي — باستثناء حكيم — المتطلعين إلى حياة جديدة غير حياة مكة الغارقة فى الأساطير والخرافات والأوهام ، وقد وجدوا فى أبى بكر أسوة حسنة فكانوا يهرعون إليه ليقتبسوا منه الطهارة والصدق ومكارم الأخلاق ، فقد كانت ضمائرهم نقية لم تتغلغل فيها بعد وثنية الآباء ولا التعصب الأعمى لأحجار لا تضر ولا تنفع ولا تملك لنفسها شيئا .

ودخل سعد على القوم وألقى عليهم التحية ، ثم سار وجلس إلى جوار عبد الرحمن بن عوف فهو مثله من بنى زهرة أخوال محمد بن عبد الله ، ودار الحديث حول التجارة والرحلات فراح عبد الرحمن بن عوف يقص بعض قصصه فى الأسواق ، فقد ذاع صيت أمانته فى القبائل فكانت التجارة ترسل إليه من كل حدب وصوب إلى مكان الصفق ، فما كان يبدأ فى الصفق معلنا بدء البيع حتى يخف الناس إليه ولا ينفضون من حوله حتى يأتى على ما معه من تجارة ، فيأخذ نصيبه بلا زيادة ولا نقصان ويعيد إلى أصحاب التجارة حقوقهم .

وقص عثمان قصة خروجه مع عمرو بن العاص إلى الحبشة ، وراح يصف ركوب البحر وأسواق الحبشة وبلاط النجاشى وعادات الناس وما عادت القافلة به من أرباح مادية وصلات طيبة ، فقد توطدت صداقة بين عمرو والنجاشى واستطاع عمرو بدهائه أن يستولى على إعجاب عاهل البلاد .

وتحدث حكيم بن حزام عن أسواق الشام واليمن والحيرة وبصرى ،

وأسهب فى الحديث عن قصر هرقل إمبراطور الروم الذى يمضى أغلب أوقاته فى بصرى ، وكثيرا ما يبعث إلى أشراف الأقوام الذين يؤمون أسواقها ليفدوا عليه فيكرمهم ويسألهم عن أحوالهم وأحوال بلادهم ، ويحاول أن يستشف من أحاديثهم حقيقة ميولهم ، وأن يعرف عواطفهم معه أو مع الفرس أعدائه وأعداء بلاده ؟

وتحدث الزبير بن العوام عن الفروسية والفرسان وابن عمه حكيم بن حزام يرمقه فى إعجاب ، واشترك فى الحديث أبو عبيدة بن الجراح وسعد ابن أبى وقاص ، وكان انفعال الشباب يترقرق فى الوجوه ويجرى على الألسنة ، وكان الحديث يدور حول بعض مناوشات دارت بين بعض الفرسان أو بعض الأحياء ، ولم يخطر على قلب أحد من الحاضرين أن هؤلاء الشبان المغمورين سيرفعهم دين قويم إلى مصاف أشهر قواد الأرض ، وأنهم سيقوضون بسيوف الله المسلولة جيوش أعظم إمبراطوريتين : إمبراطورية الفرس وإمبراطورية الرومان .

وتحدث طلحة بن عبيد الله عن قوافل بنى تيم فهو من رهط أبى بكر ، وذكر الرهبان النازلين فى صوامعهم على طريق القوافل فهيج بحديثه ذكريات أبى بكر . فرأى نفسه وهو طفل صغير يخرج مع أبيه فى قافلة قريش التى كان سيدها أبو طالب فى ذلك اليوم الذى تشبث فيه محمد بن عبد الله بعمه وخرج معه إلى الشام .

واحتلت رأس الصديق أحداث ذلك اليوم الذى نزلت فيه قافلة قريش إلى جوار صومعة بحيرا الراهب ، ورن فى ضميره ذلك الحوار الذى دار بين بحيرا وأبى طالب ، وانثالت على فكره صورة بحيرا وهو يكشف عن ظهر محمد ويقبل الخاتم الذى بين كتفيه ، وسرعان ما رأى محمدا يخرج فى تجارة

خديجة وهو إلى جواره يصغى إلى عذب حديثه ويسعد برفقته ، حتى إذا ما نزلت القافلة بالقرب من صومعة الراهب نسطورا ورأى الراهب الشاب القرشى الوسيم انطلق إليه كالمسحور وراح يحادثه فى اهتمام ويسأله عن بعض شأنه فى يقظته ومنامه ، ثم يطلب منه أن يكشف عن ظهره ليرى الخاتم الذى بين كتفيه فلما وقعت عليه عيناه مال وقبله فى تقديس واحترام .

قال بحيرا لأبى طالب : ارجع بابن أخيك إلى بلده واحذر عليه اليهود ، فو الله لئن رأوه وعرفوا منه ما عرفت ليبغُنه بشر . فإنه كائن لابن أخيك هذا شأن عظيم ، فأسرع به إلى بلاده . وقال نسطورا أن سيكون لمحمد شأن ، وكان أبو بكر فى عين ذاته يؤمن بصديقه أعمق الإيمان ، ويرى أن ليس للعرب من معلم ولا هاد غير أبى القاسم فهو صاحب نفسية عظيمة وإرادة قوية ، اتصل بالطبيعة وبما وراء الطبيعة وكاد أن يميط اللثام عن سر الوجود ، إنه إنسان عظيم وإنه لشرف لأعظم الرجال أن يكونوا مريدين لصاحب هذه العظمة الخارقة .

وأدار أبو بكر عينيه فى وجوه سعد بن أبى وقاص وعبد الرحمن بن عوف والزبير بن العوام وأبى عبيدة بن الجراح وطلحة بن عبيد الله وعثمان ابن عفان ، وإذا بهامس يهمس فى جوفه يقول : « يا لحسن طالع هذا الجيل ، لو أن هؤلاء الأشبال تعلموا الحكمة من محمد بن عبد الله ! » .

١١

بين مكة ويثرب تقع قرية ودان ، وهى على بعد ثمانية أميال من الأبواء حيث قبر آمنة بنت وهب ، وهى لقبائل ضَمرة وغفار وكنانة ، وكان رجال غفار يعيشون على مهاجمة القوافل وسلبها ، وكانوا غلاظ الأكباد ترتجف منهم قلوب الذين يمرون بالقرب من ديارهم ويوسعون الخطو وهم يترقبون خشية أن ينقض عليهم فرسان الليل فيسلبوهم أرواحهم أو أموالهم أو حرياتهم .

وكان جندب بن جنادة (أبو ذر) يقطع الطرق ويشن الغارة على القوافل وحده ، وكان يعود إلى القبيلة بما سلب فيمد الشباب أعينهم إلى ما معه وقد لاح فيها الحسد ، دون أن يجرؤ أحد على أن يسأله القسمة أو المشاركة فقد كان قويا ذا سلطان بطشه شديد .

واشتهرت غفار فى القبائل بالسطو وقطع الطرق فوقر فى العقول أن غفارا لا يأتى منها شيء طيب ، فإذا ما نزل رجل من غفار على قوم من الأقوام نظروا إليه فى ريبة وعاملوه فى حذر وراقبوه حتى يرحل عنهم .

وعلى الرغم من أن غفارا كانت تعيش على السلب والنهب وزهق الأرواح البريئة فما كانت بقادرة على أن تعيش بلا إله ، فكانت تتعبد للات والعزى ونهم وآلهة العرب الأخرى . إلا أن مناة كانت إلهتهم المفضلة يحجون إليها قبل أن ينطلقوا إلى الحرم ، ويحلقون رءوسهم عندها إذا ما انقلبوا إلى أهليهم بعد تأدية مناسك الحج فى مكة . وكان أبو ذر يقدم إليها

نصيبا من غنائمه ويسوق إليها النحائر ويتقرب إليها بالقرابين .

كان أبو ذر شجاعا ورث عن مجتمعه عاداته فما كان يرى فى السطو عيبا ، إلا أن الله أعطاه بصيرة نافذة فكان كلما سرى فى الليل ورأى النجوم والكواكب والقمر ، فكر فى آيات السماء وفى الأصنام التى يقدسها فيتدسس الشك فى آلهته إلى وجدانه ، وتهمس هواتف الإيمان فى ضميره مؤكدة أنها أهون من أن ترفع سماوات وأن تزينها بمصابيح ترشد السارين بالليل ، حتى وإن كانوا قطاع طرق مثله !

واستمر أبو ذر يفكر فى ملكوت السماء والأرض فإذا به يستشعر بإشراق النور فى قلبه ، وتنكشف الحجب عن عين ذاته ، وتتلألأ فى فؤاده حقائق الأمور الإلهية فيهتدى إلى أن لهذا الكون رباً غير اللات والعزى ومناة وكل آلهة العرب ، إلها عظيما قادرا لا مطمع فى أن يرقى إليه العقل أو يتناوله بالدرس والبحث . فأحب أبو ذر ربه وراح يجاهد نفسه ليرضى إلهه ويصلى له ويتوجه حيث يوجهه الله .

وذاق أبو ذر لذة الأنس بالله ، وهبت عليه نسائم الألطاف فلمعت فى قلبه من وراء ستر الغيب أشياء من غرائب العلم كالبرق الخاطف راحت تمحو من نفسه كل صفاته المذمومة وتقطع كل العلائق التى كانت بينه وبين السطو والسلب وسفك دماء الأبرياء .

وعرف أبو ذر جوهر الحقيقة ووضع قدميه على الصراط المستقيم ، ولكنه وهو صاحب السطوة والنفوذ فى قبيلته لم يفكر فى أن يسفه أحلام قومه أو يسب آلهتهم ، فإنه لشىء رهيب تقشعر منه الجلود أن يقف إنسان وحده فى وجه الناس يعيب دينهم ويأمرهم أن يعبدوا إلها غير آلهة آبائهم الأولين .

وقعدت همة أبى ذر عن أن يدعو إلى الحقيقة التى رآها بعين بصيرته ، ورضى بأن اهتدى وحده ، وفرح بأنه يتوجه فى دعائه وصلاته إلى الله ، حتى أمه وأخوه أنيس وعشيرته الأقربين لم يفكر فى أن يدعوهم إلى الحسنى ، فقد كان على ثقة من أنه أعجز من أن يقدر على أن يقنع أحدا بتبديل عقيدته ، وإن كانت تلك العقيدة واهيه ينفر منها كل ذى عقل سليم .

آثر أبو ذر السلامة واكتفى بوصول الحقيقة إلى قلبه وهو المغامر الشجاع الذى لا يرهب الرجال ، ولكن حرب العقائد تحتاج إلى شجاعة تفوق شجاعة الفرسان ومقارعة الخطوب ، والدعوة إلى دين تحتاج إلى تأييد من الله ونصر من عنده وإلقاء أنوار اليقين فى القلوب .

وانحبس الغيث عن غفار وأجدبت الأرض وحاق بالناس الضيق ، وبينا كان أبو ذر وأخوه أنيس جالسين يتلويان من الجوع إذ دخلت عليهما أمهما وفى وجهها رهق قد انتقع لونها وغارت عيناها وعلاها ذبول ، وقالت :

ـــ أرى أن ننزل على خالكما ، فهو ذو هيئة وذو مال .

ونزل أبو ذر وأنيس وأمهما على خالهما فرحب الرجل بهم وأكرم وفادتهم ، فلما رأى الناس عطف الخال عليهم تحرك الحسد فى نفوسهم ووسوس لهم الشيطان أن يكيدوا للوافدين عليهم ، فذهب رجل منهم وقال للخال :

ـــ إذا ما خرجت جلس أنيس إلى نسائك .

وطوى الرجل نفسه عن ابنى أخته ، وأحس أبو ذر بإعراض خاله عنهم فقال له :

— ما خطبك ؟ إنى أنكرك منذ أيام . أراك معرضا عنا قليل الحديث طويل التفكير .

فقال الخال والغضب يملأ جوانحه :

— قال لى قومى : إذا خرجت عن أهلى خلفنى إليهم أنيس .

فقال له أبو ذر فى أسى :

— أما ما مضى من معروفك فقد كدرته ، ولا جماع لنا فيما بعد .

وعاد أبو ذر وأنيس وأمهما إلى غفار ، ليصلى أبو ذر لله ويتوجه حيث وجهه الله ، ينتظر ما يأتى به الغد لا يدرى ما يخبئه له القدر .

١٢

راحت خديجة تعد زاد أبى القاسم وكان من كعك وزيت . وكانت تستشعر نشوة واستبشارا فقد عرفت لذة الخلوة بالله والأنس به والفرح الفياض الذى يغمر الفؤاد كلما أشرق فيه نور اليقين . فمحمد الحبيب كان يأخذها معه فى السنوات الأخيرة لتتعبد طوال شهر رمضان فى حراء مع الحنفاء من قريش ، فكانت تسعد بصفاء القلب وتتهلل بالبشر لنسائم الرحمة التى تهب عليها من خزائن الملكوت ؛ ولكن ذلك الجنين الذى تحرك فى أحشائها قد حبسها هذا العام عن أن ترقى لتعتكف مع المعتكفين ، وتهيم بروحها رفرافة فى عالم النشوة والنور تنهل من ينابيع الكمال والسعادة السرمدية التى لا تعرف الذبول ولا الفتور .

وكانت خديجة ترجو أن يكون ذلك الذى فى بطنها عوضا لها ولزوجها الكريم عن القاسم الذى مات فى عمر الورود ، فالأمين قد حزن عليه حزنا كشف عن تعلق قلبه الكبير بابنه العزيز ، فلعل ذلك الآتى بعد حين يكون قرة عينه وغصنا رطيبا من شجرته الزكية المباركة .

وجاء أبو القاسم يتألق وجهه بالنور تعلوه هالة من المهابة فأحست خديجة إجلالا كأنها كانت بين يدى مَلَك كريم ، وزاد فى روعة مشاعرها ذلك الإشراق الذى غمر الدار وذلك الأريج الطيب الذى أفعم به المكان وانتشت به الأرواح كأنه انتشر من عالم مسحور .

ومال محمد إلى على بن أبى طالب وقبله ، ثم حمل فاطمة الزهراء بين يديه وضمها إلى صدره الحنون وراح يلثمها فى حب عميق ، وودع خديجة وزيد بن محمد وأم أيمن وكل من فى الدار ، ثم حمل زاده وخرج قاصدا وجه الله معتزما أن يمضى شهرا فى صحبة مولاه ورعايته راجيا أن يتعرض لنفحاته ورحمته ، فسعادته الحقة فى أن تشف روحه وتسمو فوق سموها لتنعم بغاية غاياته : بالوصال بروح الوجود .

وانطلق يتكفأ فى مشيته فى الطريق الموصل إلى الصفا حيث دور بنى مخزوم ، ومر على حوانيت العطارين فكان يلقى على الناس أطيب تحية فيحيونه بأحسن منها ويستقبلونه باشين متطلقى الوجوه ، فهو حبيب إلى كل النفوس لما عرف عنه من جميل الشمائل والخلق العظيم .

ودخل المسجد من باب إبراهيم فإذا الحرم يموج بالبشر ، أناس ينحرون الذبائح بين إساف ونائلة ويطوفون بما يذبحون ، وأناس يتزاحمون عند زمزم ، وأناس يتمسحون بالأصنام ويبتهلون إليها ، وكان تمثال مريم وهى تحمل المسيح بين تماثيل آلهة القبائل التى كانت على هيئة رجل أو امرأة أو فرس أو أسد أو نسر ، قد جلب ذلك التمثال من بلاد الشام أو الروم العرب المتنصرين ، فالكعبة بيت العرب جميعا وثنيين ومجوس وصابئين ويهود ونصارى وحنفاء موحدين .

وكان أشراف القوم فى دار الندوة يحكمون بين الناس ويشرفون على ختان الصبيان وضرب الحجاب على البنات اللاتى بلغن الحلم وتحرير وثائق الزواج أو تزجية الوقت بالإصغاء إلى رواة السوء .

وانتشرت نوادى القوم حول أول بيت وضع للناس : فكان بنو هاشم

مجتمعين فى ظل الكعبة حيث كان يمد فراش عبد المطلب ، وكان بنو أمية وبنو مخزوم وبنو تيم وبنو جمح وبنو أسد وبنو سهم وبنو عدى وبنو عبد شمس ملتفين فى حلقات حول سيدهم ، لا هم لهم إلا حديث الدنيا وجمع المال وملء البطون وإشباع الشهوات والاستجابة للنزوات والفخر بكل ما يحط من شأن الإنسان .

وتقدم محمد إلى الكعبة وكان أمامه مقام إبراهيم وقد التصق بالبيت وبئر أبيه إسماعيل صادق الوعد الأمين والناس يموج بعضهم فى بعض ، ولكنه شغل عن الغادين والرائحين والطائفين والجالسين بالمشاعر النبيلة التى ملأت جوانحه بعد أن قطع كل علائقه بالدنيا وتوجه بكل كيانه ووجدانه إلى الله رب العالمين .

وراح يطوف بالبيت سبعا وهو مستغرق فى ابتهالاته إلى ربه لا يسمع الأصوات الهادرة من حوله ولا صوت أبيه إبراهيم وأبيه إسماعيل إذ يرفعان القواعد من البيت ويدعوان فى حرارة : ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم . ولا الأهازيج التى كانت فى السماء ولا تسبيحات الملائكة التى كانت مفعمة بالحرارة تأهبا لليلة مباركة تنزَّل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر ، سلام هى حتى مطلع الفجر .

وراح محمد يغادر الكعبة وقد أشرق قلبه بنور ربه ووحى الله إلى موسى الكليم يرن فى ضمير الوجود : « وسأقيم لهم نبيا مثلك من إخوتهم وأجعل كلامى فى فمه فيقول لهم كل شىء آمره به . وأيما رجل لم يطع من تكلم باسمى فإنى أنتقم منه » .

وسار محمد إلى الغار وقد وسع من خطوه يحس تعطشا تاما إلى الأنس بربه ، ومزامير داود فى سريرة الكون تنشد : « .. فاضت الرحمة على شفتيك ، من أجل ذلك أبارك عليك إلى الأبد ، فتقلد السيف فإن بهاءك وحمدك الغالب ، واركب كلمة الحق فإن ناموسك وشرائعك مقرونة بهيبة يمينك والأمم يخرون تحتك » ونبوءة إشعيا تتألق بالأنوار فى التوراة : عبدى الذى سرت به نفسى ، أنزل عليه وحيى ، فيظهر فى الأمم عدلى ، ويوصيهم بالوصايا ، لا يضحك ولا يسمع صوته فى الأسواق ، يفتح العيون العور والآذان الصم ويحيى القلوب الغلف وما أعطيه لا أعطى أحدا . مُشقع[1] يحمد الله حمدا جديدا ، يأتى من أقصى الأرض ، تفرح البرية وسكانها يهللون الله على كل شرف ، ويكرزونه على كل رابية . ولا يضعف ولا يغلب ولا يميل إلى الهوى ، ولا يُذل الصالحين الذين هم كالقصبة الضعيفة بل يقوى الصديقين . وهو ركن المتواضعين ، وهو نور الله الذى لا يطفأ ، أثر سلطانه على كتفيه » .

واستمر محمد فى سيره وقد انكشف الحقائق كلها فى قلبه بإلهام من ربه . وغمرته سعادة لما فتح الله عليه من مزايا لطفه ورحمته ، وزادت غبطته لما أحس أنه على نور من ربه .

وظل يمشى على الأرض هونا مخلفا دور مكة وراءه ، وخطاب إشعيا لمكة العاقر التى لم يبعث الله بها نبيا بعد يرن فى جوف الزمن : « أيتها العاقر ! افرحى واهتزى وانطلقى بالتسبيح فإن أهلك يكونون أكثر من

---

(١) زاهى وفى خير البشر لابن ظفر « محمد » .

أهلى » .

وراح محمد يشتد فى جبال فاران « مكة » وقد هجر الناس والدنيا فى حب الله ، وخرج عن نفسه إلى الله وصبر مع الله ابتغاء بقاء لا فناء فيه ، وعز لا ذل فيه ، وأمن لا خوف فيه ، وغنى لا فقر فيه ، وكمال لا نقصان فيه ، وعالم أوسع من عالم الأرض .

ورجع صوت شمعون نبى بنى إسرائيل يدوى فى أغوار أورشليم : جاء الله بالبينات من جبال فاران ، وامتلأت السموات والأرض من تسبيحه وتسبيح أمته .

وطفق صدى صوت زرادشت يتجاوب فى وديان فارس وسهولها وجبالها « استمسكوا بما جئتكم به حتى يجىء صاحب الجمل الأحمر من بلاد العرب .. إن أمة زرادشت حين ينبذون دينهم يتضعضعون ، وينهض رجل من بلاد العرب يهزم أتباعه فارس ويخضع الفرس المتكبرين ، وبعد عبادة النار فى هياكلهم يولون وجوههم نحو كعبة إبراهيم التى تطهرت من الأصنام ، ويومئذ يصبحون وهم أتباع للنبى رحمة للعالمين ، وسادة لفارس ومديان وطوس وبلخ، وأن نبيهم ليكونن فصيحا يتحدث بالمعجزات».

واستمر محمد يعرج فى الجبل والأنوار التى تشرق فى قلبه تبهر كل الأنوار ، والفرح الفياض الذى يستشعر به فى عين ذاته لقربه من الله قربا حقيقيا يفوق كل أفراح الدنيا ، بعد أن صار جمال المدركات بالبصائر أكمل عنده من جمال المبصرات ، ولذة النظر إلى الله أمتع من كل اللذات الحية التى ما إن تفور حتى تغور . وكان غائبا عن كل ما حوله إلا عن ربه ، بينا كان ملايين المتعبدين فى الهند يقرءون فى الساماقيدا : « تلقى

أحمد الشريعة من ربه وهى مملوءة بالحكمة ، وقد قبست منه النور كما يقبس من الشمس » .

كان وهو يشتد فى الجبال هائما فى محبة الله يتطلع من وراء حجب الغيب إلى منتهى الجمال ، تأججت فى وجدانه أنوار الأشواق والإشراق ، فراح يغذ السير فى حماس لينفرد بربه ويخلو بحبيبه ، ويستغرق فى عذوبة الذكر ويستمتع بحلاوة الأنس ويستحوذ على مفاتيح السعادة التى تنزل الرحمة على قلبه ، وبشارات الأنبياء تخفق بذكره فى الكتب المقدسة ، فحَيقوق يقول : إذا جاءت الأمة الآخرة يسبح بهم صاحب الجمل تسبيحا جديدا فى الكنائس الجديدة ، فافرحوا وسيروا إلى صهيون بقلوب آمنة وأصوات عالية ، بالتسبيحة الجديدة التى أعطاكم الله فى الأيام الآخرة ، أمة جديدة بأيديهم سيوف ذوات شفرتين ، فينتقمون من الأمم الكافرة فى جميع الأقطار .

ويوحنا الإنجيلى يقول فى رؤياه : ثم رأيت السماء مفتوحة وإذا فرس أبيض والجالس عليه يدعى أمينا صادقا وبالعدل يحكم . ويوحنا اللاهوتى يقول : ومن فمه يخرج سيف ماض لكى يضرب به الأمم ... وهو يدوس معصرة خمر .

واستمر فى صعوده وقد تواضع لله وهو ينعم بجيشان العواطف النبيلة فى وجدانه ، تلك العواطف التى تتجه إلى الله وتستمد حيويتها منه وتتألق وتشرق بنوره ، يحس فى صميم ذاته لا بجوارحه أنه يسير معه ، وأن قلبه يخفق بذكره ، وأن روحه ترفرف بحمده ، وأن أنفاسه تسبح له ، وأن السموات والجبال والوديان تترنم بمجده .

ورن صوت يحيى بن زكريا فى قافلة البشرية مبشرا بقرب ملكوت الله قائلا : توبوا فقد اقترب الملكوت ، وصوت المسيح تتجاوب به الجبال والوديان والسهول والبرية : الحجر الذى رفضه البناءون هو قد صار رأس الزاوية ، من قبل الرب كان هذا وهو عجيب فى أعيننا ، لذلك أقول لكم ، إن ملكوت الله ينزع منكم ويعطى لأمة تعمل ثماره .

إن أحببتمونى فاحفظوا وصيتى وأنا أطلب إلى أبى فيعطيكم فارقليط آخر يكون معكم الدهر كله ... إن هذا الكلام الذى سمعتموه ليس هو لى ، بل للآب الذى أرسلنى ، كلمكم بهذا وأنا معكم ، فأما الفارقليط روح القدس الذى يُرسل أبى باسمى ، فهو يعلمكم كل شىء ويذكركم جميع ما أقول لكم .

إن انطلاقى خير لكم ، لأنى إن لم أنطلق لم يأتكم الفارقليط ، فإذا جاء وبخ العالم على الخطيئة . ولا يقول من تلقاء نفسه ولكنه ما يسمع يكلّم به ، ويسوسهم بالحق ويخبرهم بالحوادث والغيوب .

وسرى فى الوجود ابتهالات المسيح فى صلواته : « فليأت ملكوتك » . وحواره لحوارييه لما ضرب لهم مثل الزرع والزارع ولما سألوه ماذا أراد بهذا المثل وقوله لهم : لكم أن تعرفوا أسرار ملكوت الله ، الزرع هو كلام الله .

وبلغ محمد مدخل الغار فالتفت خلفه يلقى نظرة على الكون ، فإذا بنور يملأ ما بين المشرق والمغرب ، وإذا بالنسيم يهب رخاء له تسبيحات تشرح الصدر ، وإذا بعطايا نورانية توهب له من جود الله وكرمه فترفعه إلى ذروة انتصاره الروحى . وتقدم ليدخل الغار على بركة الله وكانت

بشارة السيد المسيح تقرع الآذان الغافلة : ﴿ يا بنى إسرائيل إنى رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدى من التوراة ومبشرا برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد ﴾[١] .

ودخل غار حراء ليرابط مع الله ويتدبر ويتفكر ويسعد غاية السعادة بلذة المناجاة ويفتح نفسه لتلقى كنوز السماء .. فصفا قلبه من شواغل الدنيا . وزكاه بالنظر إلى ملاحظة جمال الله وجلاله وجلاه بالترصد بدوام الانتظار لما يفتحه الله عليه من الرحمة ، وأقبل على ربه بإرادة صادقة فبذر الله فى أغواره الاخلاص وهو سر من أسراره يستودعه قلب من أحب من عباده . ليظهر به ينابيع الحكمة من القلب على اللسان .

وأقبل بكنه الهمة على الله فأرشد إلى الطريق ، وقويت بصيرته على مشاهدة ما وراء حواسه الخمس وأشرق سراج عقله فإذا بعلم من عند الله ينقش فى بياض لوح قلبه . وإذا بالصور الباطنية التى لا تدرك بالأبصار بل بالبصائر حقيقة ساطعة ناصعة أمام عين ضميره ، فغمره استبشار وفرح فياض لذلك اليقين الذى استولى على فؤاده .

وأحس أنه دنا فتدلى من المنفرد بالملك والملكوت والعزة والجبروت الواحد القهار ، وأنه يقرع أبواب السماء وأن الأبواب جميعا فتحت له ، وأن كل الحجب ارتفعت عن سر الغيب ، فشعر بخصب وجوده وامتلائه بالحكمة ، وبأن كلاما كريما نزه عن معانى الحروف والأصوات ينفث فى روعه ، فألقى سمعه وهو شهيد وقد تهلل بالفرح لما يرحى إليه .

وأضاء زيته الذى فى مشكاة قلبه وازداد اشتعالا فأصبح نورا على نور ،

---

(١) سورة الصف آية ٦ .

والتفت فى الغار فإذا بنور باهر قد تألق بالمكان ، نور يبهر نور الشمس ، فامتلأ دهشة وقبل أن يفيق من دهشته سمع صوتا ينادى :

ـــ يا محمد ! يا محمد !

فانخلع قلبه وخرج من الغار مرعوبا ، وانطلق إلى دار خديجة لا يلوى على شيء وهو يضطرب من الخوف على الرغم من الرؤيا الصادقة التى كان يراها تأنيسا له ولكى يهدأ فؤاده .

ولما رأته خديجة والفزع فى وجهه هرعت إليه تسأله ما به ، فقال لها :

ـــ أرى نورا وأسمع صوتا وأخشى أن يكون بى جنون .

فضمته إليها فى حب شديد وقالت فى إيمان :

ـــ كلا يا بن عم ، ما كان الله ليفعل ذلك بك ، فو الله إنك لتؤدى الأمانة وتصل الرحم وتصدق الحديث .

وسمع أبو بكر أن صديقه أبا القاسم قد عاد خائفا من حراء فانطلق إلى دار خديجة ليرى ما الخبر ، وبلغ الدار ودخل على خديجة وليس عندها أبو القاسم فسألها عن الخبر فقصت عليه حديث زوجها ثم قالت له :

ـــ يا عتيق اذهب بمحمد إلى ورقة .

ودخل أبو القاسم فأخذ أبو بكر بيده فقال :

ـــ انطلق بنا إلى ورقة .

وذهب به إلى ورقة فقال محمد :

ـــ إذا خلوت وحدى سمعت نداء خلفى : يا محمد ! يا محمد ! فأنطلق هاربا إلى الأرض .

فقال ورقة له :

ـــ لا تفعل ، إذا أتاك فاثبت حتى تسمع ما يقول ثم ائتنى .

وعاد محمد إلى غار حراء ولا يزال أثر الخوف فى قلبه ، وسرعان ما ردت نفسه إلى طبعها لما عاود النظر إلى الله وحرك النظر القلب إلى ذكر الله فاطمأن فؤاده وانشرح صدره بالأنس بالله ومشاهدته ومراقبته ومناجاته .

وجاءت ليلة القدر أعظم ليلة فى تاريخ الوجود ، وحانت اللحظة التى بشر بها كل الأنبياء ، وأتى ملكوت الله الشريعة البيضاء كلام الله على الأرض ، فإذا الملائكة تنزل والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر ، وإذا بأنوار تشرق فى الغار ومحمد قائم يدعو ربه ، جاءه الملك فقال :

ـــ اقرأ .

فقال محمد فى خوف :

ـــ ما أقرأ .

فحبس نفسه حتى ظن محمد أنه الموت ، ثم أرسله فقال :

ـــ اقرأ .

ـــ ما أقرأ .

فحبس نفسه حتى ظن محمد أنه الموت ، ثم أرسله فقال :

ـــ اقرأ .

ـــ ما أقرأ .

فحبس نفسه حتى ظن محمد أنه الموت ، ثم أرسله فقال :

ـــ اقرأ .

ـــ ما أقرأ .

ـــ ﴿ اقرأ باسم ربك الذى خلق * خلق الإنسان من علَق * اقرأ وربك

الأكرم * الذى علم بالقلم * علم الإنسان ما لم يعلم ﴾[١] .

فقرأها محمد فانصرف عنه فخرج محمد مرعوبا من الغار ، حتى إذا ما كان فى وسط من الجبل سمع صوتا من السماء يقول :

ــ يا محمد ، أنت رسول الله وأنا جبريل .

فرفع رأسه إلى السماء ينظر فإذا جبريل فى صورة رجل صاف قدميه فى أفق السماء يقول :

ــ يا محمد ، أنت رسول الله وأنا جبريل .

فوقف ينظر إليه فما يتقدم وما يتأخر ، وجعل يصرف وجهه عنه فى آفاق السماء فلا ينظر فى ناحية منها إلا رآه كذلك ، فما يزال واقفا ما يتقدم أمامه وما يرجع وراءه .

وصنعت خديجة طعاما ثم أرسلته لأبى القاسم فجاء رسلها إلى الغار فلم يجدوا محمدا به ، فعادوا إليها وقالوا فى خوف :

ــ لم نجده بحراء .

وخفق قلب خديجة رهبة وذهبت نفسها شعاعا خشية أن يكون قد حاق بالحبيب مكروه ، ولم تستطع صبرا فأرسلت فى طلبه إلى بيت أعمامه وأخواله فلم تجده ، فشق ذلك عليها حتى أتاها ترتجف بوادره فجلس إلى فخذها ملتصقا بها ، فقالت فى وجد :

ــ يا أبا القاسم أين كنت ؟ فوالله بعثت رسلى فى طلبك حتى بلغوا مكة ورجعوا لى .

---

(١) سورة العلق الآيات ١ ــ ٥ .

فقال لها :

ـــ لقد أشفقت على نفسى .

وراح يخبرها الخبر وخديجة تصغى إليه فى اهتمام وقد تذكرت تلك الليلة التى رأت فيها الشمس تهبط إلى سماء دارها لتشرق بنورها على المشارق والمغارب . وتذكرت قول اليهود يوم اجتمعت نساء قريش فى الحرم : قد أظل زمان نبى فمن استطاعت أن تكون له فراشا فلتفعل . وطفا على سطح ذهنها كل النبوءات التى كانت تشير إلى أن محمد بن عبد الله هو المنتظر والمرتقب ، فما كاد ينتهى من حديثه حتى قالت فى حماس :

ـــ أبشر يا بن عم واثبت ، فو الذى نفس خديجة بيده إنى لأرجو أن تكون نبى هذه الأمة .

فوالله لا يخزيك الله أبدا ، فو الله إنك لتصل الرحم وتصدق الحديث وتحمل الكل وتكسب المعدوم وتقرى الضيف وتعين على نوائب الحق !

وملأ حديث خديجة قلب زوجها ثقة . ولم تطق الصبر على الانفعالات التى راحت تمور بين جنبيها فقامت فجمعت عليها ثيابها ثم انطلقت إلى ورقة بن نوفل ، فأخبرته بما أخبرها به أبو القاسم أنه رأى وسمع ، فقال ورقة :

ـــ قدوس قدوس[١] ! والذى نفس ورقة بيده لئن كنت صدقتنى يا خديجة لقد جاءه الناموس الأكبر الذى كان يأتى موسى ، وإنه لنبى هذه الأمة ، فقولى له فليثبت .

---

(١) قدوس قدوس أى طاهر طاهر وأصله من التقديس وهو التطهير .

وخرج أبو القاسم وراح يطوف بالكعبة فلقيه ورقة بن نوفل فقال :

ــ يا بن أخى أخبرنى بما رأيت وسمعت .

فأخبره فقال له ورقة :

ــ والذى نفسى بيده إنك لنبى هذه الأمة ، ولقد جاءك الناموس الأكبر الذى جاء موسى ولتكذَّبنَّه[١] ولتؤذينه ولتُخْرجنَّه ولتقاتلنَّه ، ولئن أنا أدركت ذلك اليوم لأنصرن الله نصرا يعلمه .

ثم أدنى رأسه منه فقبل يا فوخه .

(١) الهاء فى هذه الأفعال للسكت .

١٣

تهللت خديجة بالفرح حتى إنها راحت تناجى الله والدموع تملأ عينيها والانفعال الشديد يستحوذ عليها ، كانت تشكره بلسانها وبكل جوارحها على أن اصطفى محمد بن عبد الله لرسالته ، وزاد فى غبطتها صدق ما نفث فى روعها وما رأت فى أحلامها بعد أن عاد ميسرة من الشام يقص عليها أنباء الأمين وما كان بينه وبين الرهبان والتجار والسادة والعبيد . فقد ألقى فى عين ذاتها منذ تلك الأيام أن ابن عبد الله هو النبى المرتقب ، وقد دفعها إيمانها بما وقر فى ضميرها أن تعرض نفسها على محمد بعد أن دست عليه من يزين له زواجها ، وهى الطاهرة سيدة نساء قريش من تقدم إليها أعظم سادات قومها يطلبون يدها فرفضتهم جميعا لأنهم دون آمالها وأحلامها .

كانت آمالها العريضة المجنحة تزين لها أن تكون فراشا للنبى العربى الذى بشر به الأنبياء ومن أكدت النبوءات جميعا أن قد أظل زمانه ، فكانت تقيس كل من يتقدم إليها بصفات الأنبياء فما وجدت فى كل من تقدموا لخطبتها الصفات التى تؤهلهم للرسالة . ولكنها ما إن رأت محمدا واستأجرته لتجارتها وسمعت ما يقول الناس عنه حتى لمست فيه الورع والتقوى والأمانة والعفة والخلق الكريم ، فألهمت أنه نبى هذه الأمة وآمنت به وتزوجته . ولم يتزعزع ذلك الإيمان لحظة واحدة بل كان يزداد على مر الأيام قوة وتألقا .

كانت تتعجل الزمن وتتلهف على مبعث زوجها فكانت تذهب إلى ابن عمها الشيخ الجليل ورقة بن نوفل تقص عليه أحوال محمد وما يرى فى نومه ويقظته وأنسه بربه ورفع أستار الغيب عن جوهر الحقيقة ، فكان ورقة يصغى إلى حديثها فى اهتمام ولا يزيد على أن يقول فى انفعال : متى يا خديجة متى ؟!

وها هى ذى النبوة قد صارت حقيقة واقعة بعد أن أوحى الله إلى عبده ما أوحى ، وقد وقفت خديجة إلى جوار زوجها تسكن روعه وتشد أزره وتؤكد له فى ثقة أن الله لا يخزيه أبدا لأنه على خلق عظيم . إنها قد استبشرت بفيض كرم الله على زوجها وعليها ولكن ذلك الفرح بتحقيق أمانيها لم يذهلها عن طبيعتها . إنها تريد أن تكون أمينة مع نفسها ، أمينة مع ربها ، أمينة مع الرسالة المباركة التى وضعت على أكتاف زوجها ، فلم تقبل الأمر فى يسر دون تفكر أو تدبر بل أرادت أن تستوثق وأن يطمئن قلبها إلى أن ذلك الذى يأتى زوجها ملك من عند الله وليس بشيطان من الجن ممن يعوذ بهم الكهان قبل أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله ، فقالت لأبى القاسم وهى تحاوره :

— أى ابن عم . أتستطيع أن تخبرنى بصاحبك هذا الذى يأتيك إذا جاءك ؟

قال :

— نعم .

— فإذا جاءك فأخبرنى به .

فجاء جبريل فقال محمد ﷺ لخديجة :

ـــ يا خديجة هذا جبريل قد جاءنى .

ـــ قم يا بن عم فاجلس على فخذى اليسرى .

فقام محمد ﷺ فجلس عليها فقالت :

ـــ هل تراه ؟

ـــ نعم .

ـــ فتحول فاجلس على فخذى اليمنى .

فتحول فجلس على فخذها اليمنى فقالت :

ـــ هل تراه ؟

ـــ نعم .

ـــ فتحول فاجلس فى حجرى .

فتحول فجلس فى حجرها قالت :

ـــ هل تراه ؟

ـــ نعم .

فتحسَّرت وألقت خمارها وأدخلت زوجها بينها وبين درعها ثم قالت له :

ـــ هل تراه ؟

ـــ لا .

فقالت فى فرح :

ـــ يا بن عم اثبت وأبشر ، فو الله إنه لملك وما هذا بشيطان .

وأثلج صدر خديجة وتهللت أساريرها وغمرها إيمان عجيب ، وإذا بشفتيها تتحركان بأول شهادة تحركت بها شفتا مسلم على وجه الأرض فقالت فى صدق :

— أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدا رسول الله .

فإذا بنور يملأ أرجاء الدار وكأنه انبعث من مشكاة قلب خديجة ، وإذا بالدموع تترقرق فى عينى أبى القاسم فيخر ساجدا لله .

وخرج محمد ﷺ إلى أعالى مكة فإذا بجبريل يأتيه فيراه كما يرى الرجل صاحبه من وراء الغربال . وراح يعلمه الوضوء فغسل وجهه ويديه إلى المرفقين ومسح رأسه ورجليه إلى الكعبين ، ففعل محمد عليه السلام مثله ، وركع جبريل ركعتين مواجهة للبيت الحرام ، ففعل محمد كما يرى جبريل يفعل ، وكان ذلك قبل غروب الشمس . ثم انصرف جبريل فجاء محمد عليه السلام خديجة فتوضأ لها ليريها كيف الطهور للصلاة كما أراه جبريل ، فتوضأت كما توضأ لها أبو القاسم ، ثم صلى بها رسول الله عليه السلام كما صلى به جبريل ، فصلت بصلاته .

وكانت أول صلاة أقيمت فى الدين الجديد . ونام الزوجان متفرحين بالله وقلباهما قد شغلا بالله ، فالعين تنام والقلب يقظان . وقبل طلوع الشمس قام محمد عليه الصلاة والسلام وخديجة التى تم لها الاستبصار وعلمت علم اليقين أنها على الطريق فتوضآ وصليا ركعتين ، فقد كانت الصلاة ركعتين قبل غروب الشمس وركعتين قبل طلوعها . « وسبح بحمد ربك بالعشى والإبكار » .

وبينا كان محمد عليه السلام آخذا بأطراف الحديث مع خديجة إذا بالرعدة تستقبله وتريد وجهه وغمض عينيه ، ولم تستطع خديجة أن ترفع وجهها إليه وإن كانت تسمع عند وجهه كدوى النحل ، وظن محمد أن نفسه تقبض منه وإن كان يسمع صوتا له صلصلة كصلصلة الجرس يخالط

قلبه ، وزال عنه ما كان يكابده وقد وعى كل ما سمع ، فنظر إلى خديجة وهو متطلق الوجه وقال :

ــ يا خديجة ، هذا جبريل يقرئك السلام من ربك .

فخفق قلبها بالرضا وقالت فى انفعال شديد :

ــ الله السلام ومنه السلام وعلى جبريل السلام .

١٤

بلغ زينب ورقية وأم كلثوم أن أباهن الحبيب عاد من غار حراء مرعوبا يرتجف من الخوف فهرعن إليه خافقات القلوب يخشين أن يكون قد أصابه مكروه ، فإذا كل من فى الدار مشفق على الرجل الكريم . ولولا قوة ثبات جنان خديجة ، وإيمانها العميق بزوجها وبأن الله لا يخزيه أبدا ، لذهبت نفوس بنات محمد شعاعا ، ولمزق الحزن قلب زيد بن محمد ، ولأصاب على بن أبى طالب البوار ، ولانفطر كبد أم أيمن . فقول محمد الذى كان الروح التى تخفق فى جنباتهم لخديجة : إذا خلوت سمعت نداء أن يا محمد يا محمد وأرى نورا وأخشى أن يكون بى جنون ، كاد يذهب عقولهم ، فإنه لشىء يفوق الاحتمال مجرد التفكير فى أن الرجل الذى عرف برجاحة العقل والحكمة قد طاش لبه .

كان كل من فى الدار خائفين على رب البيت يرتجفون فرقا مما سمعوا ، ولكن خديجة كانت ثابتة ثبات الطود لم يتزعزع إيمانها برجلها قيد أنملة ، فهى منذ عرضت نفسها عليه ترجو أن يكون نبى هذه الأمة ، وقد عاشت معه خمس عشرة سنة لا ترى منه إلا كل خلق عظيم . وها هى ذى اللحظة الحاسمة التى كانت تترقبها فى لهفة قد أقبلت ، لحظة أن يبعث الله زوجها إلى الناس وأن يكرمه بالنبوة . فقالت له لتسكن روعه ولتنفى عنه مظنة الجنون : كلا يا بن عم ، ما كان الله ليفعل ذلك بك . فو الله إنك لتؤدى

الأمانة وتصل الرحم وتصدق الحديث . إن خلقك لكريم .

كانت مؤمنة بكل كلمة نطق بها لسانها ، وقد خفف قولها من لوعة الأسى التى نزلت بأفئدة أهل البيت وأضاءت نور الأمل فى نفوسهم التى كانت مظلمة حزينة حتى الموت . ولما جاء أبو بكر الصديق الوفى لأبى القاسم وأخذ بيده إلى ورقة بن نوفل ثم عاد به يقص على الجميع ما كان من قول ورقة لمحمد : إذا أتاك فاثبت حتى تسمع ما يقول . استبشرت خديجة وراحت زينب تعبث فى القلادة التى أهدتها لها أمها يوم زواجها وهى تحاول أن تزن بعقلها كل ما سمعت وكل ما قيل وكل ما عرفت عن أبيها من مكارم الأخلاق ، فتسللت الطمأنينة إلى قلبها وإن كانت مشفقة على أبيها مما هو فيه . وراحت رقية تنقل بصرها بين أبيها وأمها فتستشعر رغبة فى أن تجهش بالبكاء ولكنها كانت تغالب عواطفها حتى لا تزيد الجو المكفهر الذى ران على الدار تجهما وقلقا وحيرة . وكانت أم كلثوم تتأرجح بين الأمل الذى أشرق من فم الطاهرة سيدة نساء قريش وبين الاضطراب الذى كانت تغذيه مخاوفها .

ولم تجد فاطمة الزهراء من تلوذ به من إحساساتها المتباينة غير صدر أبيها فارتمت بين أحضانه وتشبثت به فانقشع عنها كل خوف . بينا راح على بن أبى طالب الفتى الذى لم يبلغ بعد العاشرة يغدو ويروح فى الدار يفكر فى مصدر الصوت الذى نادى ابن عمه الحبيب ومنبع النور الذى أشرق فى الغار فى سواد الليل البهيم .

وكانت أم أيمن لا تدرى ماذا تفعل وما تقول ، كانت تسمع مخاوف سيدها فتنهمر منها الدموع وكانت تصغى إلى أحاديث سيدتها التى تنبض

بتفاؤل صادق فيشرق فى فؤادها النور .

وجاء هند بن أبى زرارة يسعى إلى الدار يسأل أمه عن حال أبى القاسم الرجل الذى شب فى كنفه فلم يجد منه إلا كل خير وحب ، فلم يسمع منها كلمة واحدة تنم عن الخوف بل كانت فى نبراتها رنة فرح كأنها قد جاءها زوجها بالبشرى و لم يأت خائفا يترقب .

وراح أبو القاسم يتأهب للعودة إلى الغار ليقطع كل علائقه بالدنيا ويداوم على ذكر الله ليصفو قلبه وتشرق عليه أنوار المعرفة وقد شدت زوجه العظيمة أزره بوقوفها إلى جواره وإيمانها العميق به ، فراح يغادر الدار بخطى ثابتة وقد تعلقت به العيون المشفقة والقلوب المحبة .

وعادت زينب إلى دار زوجها العاص بن الربيع وجعلت تقص على ابن الخالة بعض ما دار من حديث فى بيت أبيها حول ذلك النور الذى رآه أبو القاسم والصوت الذى سمعه وهو يتعبد فى الغار . وبلغ هالة بنت خويلد حديث ما جرى فى حراء فأشفقت على أختها وأقبلت على زينب تستوضحها الأمر فتزداد حيرة على حيرة ، فما رأت تعليلا لذلك النور الذى أضاء الغار فى الظلام ، ولا لذلك الصوت الذى ينادى محمدا من المجهول ، وقد كانت تعرف خلق أبى القاسم جيدا فهو يمقت الكهانة والكهان ، ولولا ذلك لأقنعت نفسها بأن تلك البشائر إن هى إلا إرهاصات بكهانته .

وحدثت رقية زوجها عتبة بن أبى لهب بما ألم بأبيها ، وأظهرت إعجابها بأمها ورباطة جأشها وإيمانها الذى لم يتزعزع بأن الله يريد لأبى القاسم أمرا وأن سيكون له شأن عظيم ، وراحت تقص عليه كيف أتى عتيق إلى الدار وأخذ بيد أبيها إلى ورقة بن نوفل ، وكيف طلب ورقة من أبيها أن يثبت ولا

يفزع حتى يكشف سر النور والصوت الآتى من وراء الحجب .

وجلست أم كلثوم أمام زوجها معتب بن أبى لهب شاردة اللب قد ظهر فى وجهها خوف وقلق ، وراحت تسأل زوجها من أين جاءت لخديجة كل هذه الطمأنينة التى بدت فى حركاتها وسكناتها ، وتؤكد له أنه لولا تفاؤل أمها واستبشارها لانهارت ونزل بقلبها حزن ثقيل . وأظهرت إعجابها بسيدة نساء قريش التى أضفت على البيت السكينة والهدوء بل جعلت الأمل يتدسس فى أفئدة أهله .

وكانت خديجة تغدو وتروح فى الدار فى قلق فقد كانت تترقب أمرا جليلا أمرا داعبها سنين طويلة ، فلما دنت من تحقيق أحلامها انتابها خوف شديد من المجهول ، ولكنها راحت تقاوم ذلك الخوف وتحاول أن ترد نفسها إلى طبعها الهادئ لتستطيع أن تقف إلى جوار أبى القاسم ، فهو فى حاجة إلى مزيد من عطفها وتأييدها .

وبعثت خديجة رسلها إلى حراء ليحملوا له زاده وليطمئن قلبها الواجف عليه ، فلما عادوا إليها يقولون : لم نجد أبا القاسم فى الغار . اشتد وجيب قلبها واستبد بها خوفها فلم تستطع صبرا ، فبعثت رسلها إلى دار أبى طالب ودار العباس ودار حمزة ودار أبى لهب ودور أعمامه كلهم ودور أخواله من بنى زهرة ليبحثوا عنه ، فلما عادوا إليها وقالوا لها لم نجده أحست أنها تريد أن تنهار وأن الفزع قد زلزل كيانها .

وجاءت زينب ورقية وأم كلثوم يسعين إلى دار الطاهرة والخوف يلفهن والقلق يمور فى صدورهن والحيرة تطل من العيون . فلما رأين أمهن هرعن إليها يلتمسن عندها السكينة ولكن خديجة صاحبة القلب المؤمن

الكبير كانت ترتجف من الرأس إلى القدم خشية على الرجل الحبيب الذى عاشت معه أسعد أيام حياتها .

وجاء أبو القاسم وفى عينيه فزع ترتجف بوادره مما فعل به الملك وما قال له ، وهو الذى كان يعد لهذه اللحظة الرهيبة منذ استقبلته على يديها الشفاء أم عبد الرحمن بن عوف لما وضعته آمنة فى دار عبد الله ، وراح يقص على خديجة كيف ضمه الملك وكيف أرسله وهو يقول له : اقرأ . حتى إذا ما انتهى أبو القاسم من حديثه وقالت له زوجه : أبشر يا بن عم فإنى أرجو أن تكون نبى هذه الأمة . لم تحتمل التريث بل أسرعت بارتداء ثيابها وخرجت إلى دار ابن عمها الشيخ ورقة وقصت عليه كل ما سمعت من أبى القاسم ، فلما قال لها ورقة : إنه الناموس الذى جاء موسى انجفلت إلى دارها تكاد يغشى عليها من الفرح ، فقد تحققت كل أمانيها وأحلامها وأصبح محمد نبى هذه الأمة .

وشهدت خديجة وبناتها أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وقد انعكس الإيمان العميق على الوجوه المستبشرة . وقالت بنات محمد فى فرح وهن ينصرفن إلى دورهن إنهن سيتحدثن إلى أزواجهن بالنبأ العظيم ، ولكن محمداً ﷺ طلب منهن أن يكتمن هذا الأمر حتى يأمره الله بإعلانه .

وعند الغروب وقف محمد عليه السلام يصلى وخلفه خديجة ، وبينا هما مستغرقان فى صلاتهما دخل على بن أبى طالب وظل يرقبهما فى عجب ، حتى إذا ما أتما صلاتهما تقدم على من ابن عمه وقال :

ــ ما هذا ؟

فأقبل محمد ــ صلوات الله عليه وسلامه ــ على الصبى الذى تربى فى

كنفه والذى طالما حدثه حديث الروح وقال :

ـــ دين الله الذى اصطفاه لنفسه وبعث به رسله ، فأدعوك إلى الله وحده لا شريك له وإلى عبادته ، وإلى الكفر باللات والعزى .

فراح على يرمق ابن عمه فى دهش ثم قال :

ـــ هذا أمر لم أسمع به قبل اليوم ، فلست بقاض أمرا حتى أحدث أبا طالب .

وكره أبو القاسم أن يفشى عليه سره قبل أن يستعلن أمره ، فقال له :

ـــ يا على إذا لم تسلم فاكتم هذا .

وانصرف على ومحمد ﷺ مطمئن إلى أن الفتى لن يفشى سره فهو ربيبه تلقى عنه مكارم الأخلاق ، وما كان لمن شب فى حجر النبى أن يخونه أو يفشى سرا طلب منه أن يخفيه .

ودخل على لينام وهو يفكر فيما رأى وفيما سمع من الرجل الذى أحبه بكل جارحة من جوارحه والذى اتخذه أسوة حسنة ، إنه يدعوه إلى دين اصطفاه الله لنفسه وبعث به أنبياءه فهو يدعوه إلى الخير ، وإن كان قد دعاه إلى الكفر باللات والعزى فقد سبق أن غرس ابن عمه الحبيب فى نفسه كراهية الأصنام جميعا فلم يسجد للات والعزى ولا لصنم من الأصنام التى تكدست فى الكعبة ووضعت من حولها . وراح يزن كل كلمة من الكلمات التى قالها لابن عمه لما عرض عليه الإسلام ، إنه قال له إنه لن يقضى أمرا حتى يحدث أبا طالب ، وإذا بأفكار أكبر من سنه تغمر رأسه فقد أراد الله له الرشد فأنار بصيرته وجعله يسأل نفسه : آلله استشار أبا طالب لما أراد أن يخلقه ؟! فما دام الله لم يحدث أباه يوم أن أرادت مشيئته

أن يهبه الحياة فلماذا يؤجل هو اعتناقه عقيدة خيرة تدعو إلى إله واحد لا شريك له إلى أن يحدث أباه ؟

وأحس الفتى الصغير نسائم حرية صادقة تهب على وجدانه ، وراح يتذكر كل ما رآه من الأمين من صدق ومروءة ونخوة وإغاثة للملهوف وصلة الرحم وخلق كريم فإذا بهامس يهمس فى أغواره : إن لم يكن أبو القاسم نبى هذه الأمة فمن يكون ؟

وإذا برحمة من الله تطوف به فبات يتحرق شوقا على طلوع النهار ليعلن إسلامه .

وأشرقت شمس يوم الثلاثاء اليوم التالى لنزول الوحى على محمد ﷺ فى حراء ، وتأهب محمد وخديجة للصلاة وإذا بباب يفتح ويخرج منه على ويندفع إلى أبى القاسم وهو يقول فى انفعال :

— أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدا رسول الله .

وضم محمد ﷺ عليا إلى صدره فى حب عميق ، وراحت خديجة ترنو إليهما وقد ترقرقت فى عينيها الدموع .

وتوضأ على ووقف خلف رسول الله ، ووقفت خديجة خلف على وراحوا يصلون ركعتين لله سرا . وقد أحست خديجة أن الدار تفيض بالأنوار وأنه عما قريب ستغمر رسالة السماء المشارق والمغارب ، وسيتحقق حلمها الذى رأته منذ أكثر من خمسة عشر عاما .

وجاء زيد بن حارثة فاستقبله أبو القاسم باشّا ثم راح يعرض عليه الإسلام ، فأطرق زيد برهة وإذا بكل حياته مع الرجل الرحيم الذى تبناه تمر فى مخيلته كلمح البصر ، ورن فى ضميره صوت محمد ﷺ فى ذلك

اليوم الذى جاء فيه أبوه وعمه لفدائه : أنا من قد علمت وقد رأيت صحبتي لك فاخترنى أو اخترهما ، وإذا به يقول : ما أنا بالذى أختار عليك أحدا . أنت منى مكان الأب والعم .

اختاره على أبيه وأمه وأهله ، فضله على أسرته وقبيلته ووطنه ، وهو يعرض عليه الآن أن يكفر بالأصنام وأن يقر بألوهية الله وحده لا شريك له ، وإنها لدعوة تطمئن إليها الفطرة ، وإنه لعلى خلق عظيم ، وهو أهل لأن يكون لله رسولا . وأحس زيد إشراقا فى ضميره وانشراحا فى صدره فأعلن عن رضى واغتباط إسلامه .

وجلست أم أيمن إلى محمد وخديجة تصغى إليهما وهما يحدثانها حديث الدعوة الجديدة التى تنفى الألوهية عن كل الآلهة ثم تثبتها فى قوة لله وحده لا شريك له ، ورأت أم أيمن أنها دعوة بسيطة لا تعقيد فيها ، دعوة يقبلها العقل وتبتهج بها الروح وتشرق لها النفس ويطمئن الفؤاد ، فدخلت فى الدين الجديد وهى مستبشرة بما أتاها .

وعند الغروب قام محمد ومن خلفه على وزيد ومن خلفهم خديجة وأم أيمن يصلون لله ، وباتت دار خديجة هذه الليلة وهى أول بيت من المسلمين .

١٥

كانت خديجة قد قطعت كل العلائق بالتجارة وزينة الحياة الدنيا بعد أن رفع محمد ﷺ الحجاب عن قلبها وطهر كل السبل لوصول الحقيقة إلى فؤادها وجعلها تتذوق لذة الإنفاق حبا فى رضوان الله ، وكانت تعيش على أمل أن تتحقق أحلامها وبشارات الكهان والأحبار والرهبان ويصبح أبو القاسم النبى المنتظر . فلما نزل الوحى على زوجها الحبيب فى غار حراء وتأكدت من صدق نبوءته وأن ما جاءه هو الناموس الأكبر الذى جاء الأنبياء من قبله وأنه قد علمه الوضوء والصلاة لرب العالمين ، كاد يغشى عليها من الفرح ولكنها أحست بفطرتها السليمة أن نزول الوحى هى بداية الجهاد والشدة ، وأكد صدق إحساساتها قول ورقة للنبى ﷺ : ولتؤذينه ولتخرجنه ولتقاتلنه .

إنها دعوة وإن أبا القاسم خير من ينهض بها ، وإنها جهاد وإنه لخير المجاهدين ، وإنها لشدة وهو خير الصابرين على الشدائد ، وإنها لقتال فى سبيل الله وهو فارسها ، فهو يجيد ركوب الخيل والضرب بالسيف وتسديد الرماية وإنه يدرب ابن عمه الفتى على بن أبى طالب ليشب فارس قريش وخير صناديدها .

كان إيمانها به وبقدرته ليس له حدود ، وكانت تراه كفئا للرسالة وأعبائها وإلا لما اصطفاه ربه لرسالته ، وكانت ترى نفسها المتفرحة فى الله

المتفتحة لعطايا الله الهائمة فى ملكوت الله المتأهبة لتحمل كل الشدائد فى سبيل الله حسنة من حسناته ، فهى أول مريدة فى مدرسة النور ومكارم الأخلاق .

وأسلمت وجهها لله وعرفت لذة مناجاته وطول النظر إليه ، ولكنها كانت متلهفة على أن يستعلن أمر الأمين ليغمر النور أفئدة قومها وليهديهم ربهم الصراط المستقيم ، فقلبها الكبير كان عامرا بحبهم بل بحب البشر أجمعين .

وأطلقت لخيالها العنان وراحت تفكر فى بيوت شرف قريش العشرة ، وكان بنو أسد رهطها أول من فكرت فيهم ، فورقة بن نوفل قس قريش وأكثرهم علما بالأديان قال لأبى القاسم : والذى نفسى بيده إنك لنبى هذه الأمة . وهى تحسب أن مثل هذا القول من شيخ بنى أسد سيجعل الأسديين يهرعون إلى الدخول فى دين الله أفواجا ، وطاف بذهنها ابن أخيها حكيم بن حزام ، إنه سيد من سادات دار الندوة وله مكانة مرموقة بين أشراف قريش ، فلو اعتنق حكيم بن حزام الدين الجديد لشجع ذلك كثيرا من قومه على الدخول فى الإسلام . ولكن هل يفعل حكيم ؟

وفكرت فى الزبير بن العوام ، إنه فتى جلد فى الثانية والعشرين من عمره مات أبوه العوام بن خويلد من عشرين سنة فى حرب الفجار ، وقد حزنت عليه حزنا شديدا وغمرت ابنه بحنانها فكان يأتى لزيارتها ويجلس إلى زوجها طويلا يلقى إليه سمعه وهو مبهور بحديثه الشجى الذى لا يرتفع إليه أحاديث حكماء العرب ، وهو وإن كان ابن أخيها فهو فى ذات الوقت ابن عمته صفية ، وهو راجح العقل حر التفكير ، وهى على ثقة من أنه

سيرحب بالدين الجديد بل سيكون من خيرة جنوده ، فهو لا يزال فى مقتبل العمر لم تفسده المطامع الدنيوية و لم تجمد نفسه على التعصب الأعمى للآلهة .

وفكرت فى أختها هالة وفى ابن أختها العاص بن الربيع زوج العزيزة زينب ، فخفق قلبها حبا وعطفا وخوفا ، فهى ترجو صادقة أن يشرح الله قلبيهما للإيمان بالدعوة الجديدة لأنها تحب لهما الخير والسعادة والهداية ، بيد أنها تخشى أن تأخذهما العزة بالإثم فتصبح حياة ابنتها المؤمنة التى شهدت أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله أليمة لقلبها الغض الذى تفتح لحياة مشرقة جديدة على قومها .

واشتد وجيب قلبها واستولى عليها خوف شديد لما احتلت العزيزتان رقية وأم كلثوم صفحة رأسها ، إنها تهللت بالفرح لما شهدت العزيزتان بوحدانية الله ورسالة محمد بن عبد الله ، ولكنها لما فكرت فى مآلها فى دار أبى لهب بعد أن كفرتا بآلهة قريش استشعرت كأن يدا قوية تعتصر قلبها عصرا ، فعتبة ومعتب ألعوبتان فى يد أمهما أم جميل ، وهى قاسية القلب عنيفة فى عداوتها قُد فؤادها من صخر ، وأبو لهب رجل أطلق لشهواته العنان يمضى وقته فى الشراب والمقامرة والتنابذ بالألقاب . فهو يمجد الآباء والأجداد ولا يطيق من تسول له نفسه أن يمس معتقداتهم بسوء ، فلطالما سخر من الذين يفكرون فى نبذ آلهة آبائهم ليعتنقوا اليهودية أو النصرانية أو المجوسية أو غيرها من الأديان .

ولف خديجة وجوم فمستقبل بناتها قد بات يتأرجح ، فإن استعلن أمر محمد ﷺ و لم يدخل أزواجهن فى الدين الجديد فستغلق فى وجوههن

أبواب الأزواج وسيعدن إليها كسيرات الفؤاد . ولكن ماذا تستطيع أن تفعل وماذا يستطيع أبو القاسم أن يفعل غير أن يستمر فيما يأمره الله به بعد أن اصطفاه ، إنها الرسالة وإن أعباءها ثقيلة لا يستطيع حملها إلا أولو العزم من الرجال .

وهمست خديجة فى إيمان : « فلتأت مشيئة الله بما يشاء » . وراحت تعجم أعواد بنى هاشم فأبو طالب يحب محمدا حبه لولده أو أشد ، وهو سيد بنى هاشم وزعيمهم وإن كان يقاسى قلة فى المال ، وهو راجح العقل وقد اعتاد أن تكون كلمته هى العليا . أفيرضى بعد أن ذهبت السنون وبلغ من العمر عتيا أن يكون تابعا لابن أخيه وإن كان رسول رب العالمين ؟ وأبت عقلية خديجة التى تمرست فى التجارة وفى الحساب وسبر أغوار الرجال أن تخدع نفسها وتصدق أن أبا طالب سيفرح بالدين الجديد وسيدخل فيه راضى النفس . وأحست كدرا فهى تقدر أبا طالب وترى أن وقوفه إلى جوار الأمين كسب للدعوة الجديدة ما بعده كسب ، وتمنت صادقة لو أن الأيام تكذب حدسها ويحتضن شيخ الهاشميين رسالة السماء ، حتى يشرق النور على العالمين .

وورد على ذهنها عمه العباس بن عبد المطلب ، إنه مشغول عن الآلهة بتجارته وبأمواله الممدودة التى يقرضها بالربا ، وهو سعيد بأن صارت إليه السقاية والرفادة ، وهو يسقى الحجيج ويطعم فقراءهم ليقال إنه جواد ولشرف الدنيا وللأحاديث والذكر ، وهو طيب القلب معدنه نفيس ، فلو أنه طرح كبرياءه للبى داعى ابن أخيه . أما زوجه أم الفضل فهى الطيبة والطهارة والخلق الكريم ، وقد دارت بينهما أحاديث عن

الأمين فكانت أم الفضل تشرق بالفرح كلما قالت لها : إنها لترجو أن يكون أبو القاسم نبى هذه الأمة . وها هو ذا أبو القاسم قد صار نبيا فلو أنها بعثت إليها بأن أحلامها قد صدقت وأن الله قد أرسل محمدا عليه السلام رسولا لآمنت به وصدقته ولهرعت إليه والدموع تترقرق فى مقلتيها .

واحتل ذهنها حمزة بن عبد المطلب وقد تنكب قوسه وركب فرسه ، إنه أخوه فى الرضاعة رفيق طفولته وشريكه فى حزنه على عبد المطلب وصديق الشباب وإن اتخذ كل منهما سبيلا ، فقد آثر محمد العزلة وانغمس حمزة فى مجتمع قومه ومع ذلك كان الود بينهما متصلا ، وكان الفارس معجبا بابن أخيه الأمين الذى اشتهر بخصاله الحميدة ، وإن خديجة لتطمع فى أن تقوده فروسيته إلى الطريق القويم . إلى الإيمان بوحدانية الله ورسالة ابن أخيه .

وخطر على فكرها أبو سفيان بن الحارث ابن عم الأمين الذى يشبهه والذى كان يلازمه على الدوام ، وذكَّرها الحارث بشباب الهاشميين طالب وعقيل وجعفر فألفت نفسها تتهلل بالأمل ، فقد رأت فيهم شباب الدعوة الذين سيتحمسون للدين الجديد ، وامتدت أحلامها إلى عمته عاتكة التى ربطت الأسباب بين بنى هاشم وبنى مخزوم بزواجها بأبى أمية بن المغيرة . إنها تحب ابن أخيها حبا جما وهى التى جاءت إليها أيام كانت تستأجر الرجال للخروج فى تجارتها وعرضت عليها أن تستأجر ابن أخيها محمد بن عبد الله ، فلو أنها آمنت برسالة محمد لتبعها ولداها عبد الله وزهير ومن يدرى فقد يتفشى الإسلام فى بنى مخزوم بفضلها .

وطاف بها خاطر : لو أن الوليد بن المغيرة اعتنق الدين الجديد لتبع بنو

مخزوم سيدهم ، ولكن ذلك يكاد يكون مستحيلا . أوّ يعقل أن يتنازل الوليد عن مكانته وأن يطعن كبرياءه بيده ويسلس قياده ليتيم قريش !

وأبو سفيان بن حرب ما يكون موقفه من الدعوة ؟ إنه سيضع أصابعه فى أذنيه ولن يستجيب لداعى السماء ما دام ابن عبد الله سينتزع الزعامة من الأمويين للهاشميين . إنه لا يستطيع أن يرى إلا أنها منافسة بين الهاشميين والأمويين ولن يقر أبو سفيان لأحد غيره فى قريش كلها بالسيادة .

وعتبة بن ربيعة سيد عبد شمس ، وشيبة بن ربيعة وأبو الحكم بن هشام (أبو جهل) ، وأمية بن خلف ، والعاص بن وائل ، وعبد الله بن أبى ربيعة ، والأرقم بن أبى الأرقم . والمطعم بن عدى ، وعقبة بن أبى معيط ، والحارث بن كلدة الثقفى طبيب العرب زوج خالته ، وابنه النضر ، ماذا يكون موقفهم منه ؟! وأحست خديجة قشعريرة تدب فيها من الرأس إلى القدم إشفاقا على زوجها ، فالطريق محفوف بالصعاب والأهوال . وقبل أن تستسلم لمخاوفها لاحت لعين ذاتها الحقيقة ناصعة ، إنه ليس وحده ، إنه مع الله ، ومن كان مع الله كان الله معه .

وجاءت جارية حكيم بن حزام لزيارتها فأقبلت عليها متفتحة النفس وراحت تقص عليها بعض ما كان فى غار حراء وتخبرها أن الله قد اصطفى محمدا ﷺ لرسالته ، وما كادت خديجة تتم حديثها حتى أسرعت الجارية إلى مولاها ، ودخلت على حكيم وعنده أبو بكر فقالت له :

ـــ إن عمتك خديجة تزعم فى هذا اليوم أن زوجها نبى مرسل مثل موسى .

وخفق قلب أبى بكر ، إنه كان يكثر غشيانه فى منزله وكان يحاوره

فكان يعجب بأصالة أفكاره ويرى أنها فيض من الله ، وقد سمع قول ورقة له لما ذهب معه إليه فكان يترقب فى لهفة أن يسمع من محمد ما يكون بعد أن آب إلى حراء عقب أن طلب منه ورقة أن يثبت إذا ما سمع الصوت الذى يناديه ورأى النور الذى يغشى الغار ، ولكنه لم يعلم أن صديقه قد قفل عائدا من تحنثه يحمل رسالة السماء .

ولم يستطع أبو بكر صبرا فاستأذن فى الانصراف وانطلق إلى دار خديجة وقد تذكر رؤياه التى رآها ، فإنه رأى القمر ينزل إلى مكة فدخل فى كل بيت منه شعبة ثم كان جميعه فى حجره ، وإنه ليحس الساعة أن رؤياه صادقة وأنه فى طريقه لتحقيقها .

لم تكن بأبى بكر غطرسة وما كانت له زعامة مهددة بالزوال وما كان من المؤمنين بالأصنام ، بل إنه كرهها منذ أن قال لإلهه إنى جائع فأطعمنى وظل إلهه غارقا فى بلهه وسكونه ، وما كان ذهنه مغلقا وما كان صاحب هوى ولا حليف الشهوات ، فهو يريد جوهر الحقيقة ، وإنه ليرى فى صديقه الأمل الذى يخفق فى قلوب طلاب الإصلاح ، فما إن سمع مولاة حكيم تقول إن خديجة تزعم أن زوجها نبى مرسل مثل موسى حتى صدق أن محمدا رسول الله حتى قبل أن يلقاه .

ووقف أبو بكر على باب خديجة يطرقه فى انفعال ، ومرت لحظات ثم انفرج الباب عن جارية قادته إلى حيث ينتظر ، ثم ذهبت إلى حيث كان أبو القاسم وأهل بيته وأنبأته بقدوم عتيق بن أبى قحافة .

وذهب محمد — عليه السلام — للقاء صديقه ، وقامت خديجة وقد تحركت عواطفها لتسمع ما يكون بين الصديقين وكانت على ثقة من أن

ابن أبى قحافة سيستجيب لدعوة الحبيب ، ودخل أبو القاسم على صديقه مشرق الوجه فقام إليه أبو بكر وقال فى انفعال :

ــ يا أبا القاسم ! ما الذى بلغنى عنك ؟

فقال النبى ﷺ فى هدوء :

ــ وما بلغك عنى يا أبا بكر ؟

ــ بلغنى أنك تدعو إلى توحيد الله وزعمت أنك رسول الله .

ــ نعم يا أبا بكر . إن ربى جعلنى بشيرا ونذيرا وجعلنى دعوة إبراهيم ، وأرسلنى إلى الناس جميعا .

ودق قلب خديجة فى صدرها وأرهفت سمعها ، و لم يطل انتظارها فقد سمعت أبا بكر يقول فى صوت ينم عن الصدق والإيمان بما يقول :

ــ والله ما جربت عليك كذبا ، وإنك لخليق بالرسالة لعظيم أمانتك وصلتك لرحمك وحسن فعالك . مد يدك فإنى مبايعك .

وغمر خديجة فرح فياض ، فما تردد أبو بكر ولا أبى عليه ولا أرجعه فى الكلام ، بل قال : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأنك رسول الله . فاندفعت خديجة إليه مستبشرة وعليها خمار أحمر، فقالت :

ــ الحمد لله الذى هداك يا بن أبى قحافة .

وانصرف أبو بكر وما بين لابتيها أشد سرورا من رسول الله ﷺ بإسلامه .

١٦

جاء الليل فعاد سعد بن أبى وقاص إلى الدار ، فكان أول ما فعله أن ذهب إلى أمه يغمرها بحنانه . ومد الطعام فجلس إلى جوارها يطعمها أطيبه ، ينافسه أخوه عامر فى البر بها والعطف عليها . كانت أسرة هانئة سعيدة ترفرف عليها السكينة وتطوف بها آمال متواضعة ، فما كانت أمانى الأم لتمتد إلى أكثر من أن يوفق سعد فى صناعة برى النبل وأن ينجح عامر فى تجارته .

وحان وقت النوم فنهضت الأم إلى الصنم الموجود فى البيت لتؤدى له صلاتها وهى توصى ولديها بالصلاة للآلهة شكرا اتقاء لشرهم فى الدنيا وجلبا للرزق وإطالة العمر على الأرض ، وكانت أمهما مؤمنة بآلهتها متعصبة غاية التعصب لتقاليد قومها يضيق صدرها بأية بادرة تسىء إلى دينها أو تخدش قدسيته ولو من بعيد .

ونهض سعد وهم بأن يتمسح بالصنم ولكنه وجد تثاقلا فى نفسه ، إنه سمع من أبى القاسم كلاما بذر الشك فى عين ذاته فى قدرة آلهته على القدرة ، إنها أحجار صماء نحتها الناس ثم عبدوا ما ينحتون غرورا . وقد سمع من أبى بكر وهو من الحنفاء الذين أنكروا دين قريش وعبدوا الله وحده تسفيها لمعتقدات قومه استراح له عقله ، فقد كان فى التاسعة عشرة من عمره يتلفت باحثا عن الحقيقة ، ولم تكن نفسه قد تحجر فيها ما لقن من

عقائد وما اكتسب منها من طول انغماسه فى مجتمعه .

كان يستشعر كلما جلس إلى أبى القاسم أنه بين يدى رجل فاضت عليه الرحمة وأشرق النور فى قلبه فجرت الحكمة على لسانه . وكان يتمنى فى أغواره لو أنه يستطيع أن يقبس من نوره قبسا ينير بالحكمة وجدانه ، فقد كان يطمع فى أن تتلألأ فى فؤاده حقائق الأمور .

إنه يحس إحساسا صادقا بعظمة الأمين ، فما من مجلس كان فيه أبو القاسم إلا وقد تضاءل الرجال إلى جواره ، فشخصيته آسرة إن صمت ، وإن تكلم استولى بفصاحته على القلوب وجذب إليه النفوس لتسعد بالهيام فى دنياه الصافية الرقراقة الخفاقة بالحقيقة واليقين .

وألقى سعد نظرة ازدراء على الصنم ثم أولاه ظهره وسار إلى فراشه يحس راحة فى ضميره وطمأنينة فى فؤاده ، واندس فيه وأسلم جنبه للرقاد وسرعان ما خطفه النوم فراح فى سبات عميق .

ورأى نفسه فى ظلام دامس وهو يحاول الخروج منه كلما خرج من ظلام دخل فى ظلام ، فانبهرت أنفاسه وهو يضرب فى الظلمات ، واستولى عليه فزع وهلع واضطراب ، وبينا هو فى ضيقه وتبرمه إذ أطل القمر على المكان فبدد بنوره دياجير الظلام ، فتفرس فى القمر فى استبشار فرأى أبا بكر وعلى بن أبى طالب وزيد بن حارثة يطلون من القمر ويشيرون إليه أن يلحق بهم ، فقال لهم :

— متى انتهيتم إلى ها هنا ؟

فقالوا له :

— الساعة .

وهب من نومه يحس كأنما حلمه قد حفر فى قلبه ، وتولته دهشة لاجتماع أبى بكر وعلى وزيد فى مكان واحد وأين ؟ فى القمر ، إنها رفعة .. إنها إشراق لطيف .. إنها دعوة لأن يرتفع مثلهم .. لو دعاه أحدهم إلى خير ليتبعنه .

وفر الليل هاربا أمام النهار فغادر سعد فراشه وذهب إلى حيث كانت أمه ليلقى عليها تحية الصباح فإذا بأخيه عامر قد سبقه إليها وراح يسبغ عليها عطفه ، فأقبل عليهما مشرق الوجه يبذل لأمه كل نفسه لعلها ترضى .

وخرج سعد إلى عمله وجلس يبرى النبل لفرسان قريش الخارجين للقنص ، فأقبل نوفل بن العدوية أسد قريش ، وخالد بن الوليد فارس بنى مخزوم ، وحمزة بن عبد المطلب وشباب مكة المولع بالصيد ليبروا سهامهم ، ودار بينهم حديث شائق حول صيد الغزلان وصيد الحسان وسعد غائب عنهم بالتفكير فى الرؤيا التى رآها .

وخرج أبو بكر من داره وقد عزم على أن يدعو إلى الدين الذى اعتنقه من يثق فيهم من شباب قريش وكان على ثقة فى أنهم سيستجيبون لدعوته ، فهو معظم فى قريش على سعة من المال وكرم الأخلاق من أعف الناس محبب فى قومه حسن المجالسة من أعلم الناس بتعبير الرؤيا وأعلم الناس بأنساب العرب وما فيها من خير وشر ، ولكنه ما كان يعد مساويهم ومن ثم كان محببا فيهم . بخلاف عقيل بن أبى طالب فإنه كان مبغضا إليهم لأنه كان يعد مساويهم .

كان أبو بكر عند أهل مكة من خيارهم يستعينون به فيما يأتيهم ، وكانت له بمكة ضيافات لا يفعلها أحد ، ولعله كنى بأبى بكر لابتكاره

الخصال الحميدة ، فكان المتطلعون إلى مستقبل أفضل لمدينتهم المقدسة يهرعون إليه بعد أبى القاسم ليجدوا عنده النور الذى ينير لهم السبيل .

وجاء أبو بكر إلى سعد فألفاه فردا بعد أن انصرف فرسان قريش للهو ، فقال له :

ـــ جئتك يا سعد فى أمر ذى بال . أنت يا سعد أعلم الناس بمحمد بن عبد الله ومقدار صدقه وأمانته ، فأنت خاله وهو منكم .

فقال سعد فى حماس :

ـــ إن محمدا غير متهم . فهو يؤدى الأمانة ويصل الرحم ويقرى الضيف ويعين على نوائب الدهر .

ـــ قد نزل على محمد وحى من السماء أخبره أنه نبى هذه الأمة ، وأمره أن يدعو إلى عبادة الله وحده .

ـــ أيكفر باللات والعزى ؟

ـــ نعم ، إنه يدعو إلى التحرر المطلق من عبادة هذه الأصنام التى لا تملك لنفسها شيئا ولا تدفع عن نفسها ضرا .

ـــ ومن تبعه على دينه هذا ؟

ـــ أنا وعلى بن أبى طالب وزيد بن حارثة .

وتذكر سعد رؤياه فقال فى انفعال :

ـــ وأين رسول الله الآن ؟

ـــ فى شعب أجياد يعبد الله مستخفيا .

كان النبى ﷺ إذا حضرت الصلاة خرج إلى شعاب مكة وخرج معه على مستخفيا من قومه فيصليان فيها ، فبينا هما فى صلاتهما إذ عثر عليهما

أبو طالب فوقف ينظر فى دهش ، حتى إذا ما أتما صلاتهما قال لابنه :

ــ ما هذا الذى أنت عليه ؟

فقال على :

ــ يا أبت آمنت بالله ورسوله وصدقت ما جاء به ودخلت معه .

فالتفت أبو طالب إلى أبى القاسم وقال :

ــ يا بن أخى ما هذا الذى أراك تدين به ؟

فقال محمد ﷺ وهو يطمع فى إسلام عمه الذى يحبه من كل قلبه .

ــ هذا دين الله ودين ملائكته ورسله ودين أبينا إبراهيم بعثنى الله به رسولا إلى العباد ، وأنت أحق من بذلت له النصيحة ودعوته إلى الهدى وأحق من أجابنى إلى الله تعالى وأعاننى عليه .

كان أبو طالب يرى أن الله أجل من أن يبعث بشرا رسولا فقال :

ــ إنى لا أستطيع أن أفارق دين آبائى وما كانوا عليه .

ثم التفت إلى ابنه على و لم ينهره بل قال :

ــ أما أنه لم يدعك إلا إلى خير فالزمه .

وانصرف أبو طالب وجاء أبو بكر والفتى الدحداح سعد بن أبى وقاص وكان فى التاسعة عشرة من عمره سليم القلب خالص النية ، وما إن وقعت عيناه على محمد ﷺ حتى استشعر رهبة وإجلالا ، وراح النبى ﷺ يعرض عليه الإسلام ثم قرأ : ﴿ اقرأ باسم ربك الذى خلق * خلق الإنسان من علق * اقرأ وربك الأكرم * الذى علم بالقلم * علم الإنسان ما لم يعلم ﴾ . فأخذ سعد بعذوبة القرآن وفتن برقته وانتشى بحلاوته وكان لجرسه وقع عظيم فى نفسه ، فقال :

ـــ أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله .

وانقلب سعد إلى أهله مسرورا ، وما مالت الشمس للغروب حتى وقف يصلى لله فدخلت عليه أمه فألفته قد خر ساجدا ، فرمقته فى عجب فإذا به يصلى صلاة لم تألفها فقالت :

ـــ سعد ! سعد ! ماذا تفعل ؟ ولمن تسجد ؟

وأتم صلاته فقال لها :

ـــ أسجد لله رب العالمين . إنى أدعوك يا أماه إلى الله وحده لا شريك له وإلى الكفر باللات والعزى وشهادة أن محمدا عبده ورسوله .

فقالت أمه فى فزع :

ـــ سعد .

ـــ إنه دين حسن يدعو إلى التراحم والتواد والتقوى وصلة الرحم وبر الوالدين .

ـــ إنى لا أفارق دين آبائى أبدا . ثب إلى رشدك يا سعد .

ـــ استمعى إلى يا أماه عسى أن يهديك الله إلى الصراط المستقيم .

ـــ ألست تزعم أن الله يأمرك بصلة الرحم وبر الوالدين ؟

ـــ نعم .

ـــ والله لا أكلت طعاما ولا شربت شرابا حتى تكفر بما جاء به محمد وتمس إسافا ونائلة .

ـــ لا . لا تفعلى يا أمت .

ـــ لتدعن دينك أو لا آكل ولا أشرب حتى أموت فتعير بى .

ـــ إنى لا أدع دينى .

وجاء أوان تناول الطعام فدعا سعد وعامر أمهما إلى العشاء فأبت ، فتركها سعد وظل عامر يحاول أن يثنيها عن عزمها دون جدوى ، وانقضى يوم وأم سعد على عهدها لا تأكل ولا تشرب . ثم مر اليوم الثانى وهى لا تأكل ولا تشرب فأصبحت وقد خمدت ، فجاء إليها سعد وقال :

ــ تعلمين والله يا أمه لو كان لك مائة نفس تخرج نفسا نفسا ما تركت دين هذا النبى ، فكلى إن شئت أو لا تأكلى .

وراح أهل الدار يفتحون فاها ثم يلقون فيه الطعام والشراب ، فلما فتحت عينيها التفتت إلى عامر وقالت لسعد تعيره :

ــ هو البر لا يفارق دينه ولا يكون تابعا .

وخرج سعد إلى شعب أجياد يصلى مع النبى وعلى وأبى بكر وزيد مستخفين ، فلما صلى الركعتين اللتين يصلونهما بالعشى عاد إلى الدار فوجد أمه على الباب تصيح :

ــ ألا أعوان يعينوننى عليه من عشيرتى أو عشيرته فأحبسه فى بيت وأطبق عليه بابه حتى يموت أو يدع هذا الدين المحدث ؟

فقال لها سعد وهو حزين :

ــ لا أعود إليك ولا أقرب منزلك .

فرجع من حيث جاء وأمه تتميز غيظا فقد أحست الهزيمة ، وما كان يدور بخلدها أن يعصى سعد لها أمرا أو يخيب رجاء وهو البار بها المتفانى فى رضاها . ترى ما كنه هذا الدين الذى استولى على لبه ؟ سحره محمد ورب الكعبة .

وراحت ترقب عودته نادما مستغفرا ولكن الأيام تمر وسعد لا يئوب

إليها فتشعر أنها تكاد تختنق اختناقا ، وتأبى كرامتها أن ترضخ لذلك العقوق فتصطبر على مضض ثم ترسل إليه :

— عد إلى منزلك ولا تتضيفن فيلزمنا عار .

فرجع إلى منزله فمرة تلقاء بالبشر ومرة تلقاه بالشر وتعيره بأخيه عامر وتقول :

— هو البر لا يفارق دينه ولا يكون تابعا .

ولم يخطر لأمه حمدونة بنت سفيان بن أمية بن عبد شمس على قلب أن سيأتى يوم قريب يشرق فيه نور الإسلام فى فؤاد ابنها عامر ، وأنه سيلقى منها ما لم يلق أحد من الصياح والأذى ، وأنها ستعطى آلهتها عهدا ألا يظلها نخل ولا تأكل طعاما ولا تشرب شرابا حتى يدع صبأته .

١٧

كانت الشمس تنحدر فى الأفق الغربى لتختفى خلف جبال مكة ، وكان الناس فى الحرم يطوفون بالبيت أو يجلسون فى المسجد وقد انتشرت بطون قريش فى نواديهم ، ودخل سادات القوم دار الندوة تلك الدار التى أصبحت لحكيم بن حزام . وكانت غاية آمال شباب قريش أن يكون لهم فى ذات يوم رأى فى تلك الدار التى تبسط سلطانها على أهل الحرم .

وكانت السادة والعبيد من كل دين ومن كل مذهب يمارسون شعائرهم فى حرية فى جنبات أول بيت وضع للناس ، فقد كان حرما آمنا تجبى إليه طيبات كل شىء ، وكان أهله متسامحين مع كل الملل والنحل ما دام أصحاب المذاهب لا يتعرضون لآلهتهم بسوء ، ولا يهاجمون دينهم ، ولا ينتقدون سوء توزيع الأموال بينهم ، ولا يحاولون أن يحدوا من حرياتهم الجنسية أو يكبحوا جماح شهواتهم الضارية .

وكان فى الطائفين بالبيت والجالسين حوله من أنكروا الخالق والبعث والإعادة وقالوا بالطبع المحيى والدهر المفنى ، ومنهم من أقروا بالخالق وابتداء الخلق والإبداع وأنكروا البعث والإعادة ، ومنهم من أقروا بالخالق وابتداء الخلق ونوع من الإعادة ، وأنكروا الرسل وعبدوا الأصنام وزعموا أنها شفعاؤهم عند الله فى الدار الآخرة وحجوا إليها ونحروا لها الهدايا وقربوا القرابين وتقربوا إليها بالمناسك والمشاعر وأحلوا وحرموا .

وكان منهم حنفاء يعتقدون بوحدانية الله ويحاولون أن يهتدوا إلى ملة أبيهم إبراهيم ، وما كانوا على هدى واحد بل كان كل منهم يعبد الله على قدر جهده واجتهاده وقد ضربوا جميعا فى البلاد بحثا عن دين إبراهيم ، فمنهم من تنصر أو تهود ومنهم من بقى على دينه ينتظر مبعث النور .

ووضع نصارى العرب تمثالا لمريم وهى تحمل المسيح بين تماثيل اللات والعزى ومناة وهبل وود وسواع ويغوث ويعوق ونسر أصنام قبائل العرب ، فما وجد العرب فى ذلك غرابة فما يضيرهم أن يضاف تمثال إلى الثلاثمائة وثلاثين تمثالا التى كانت فى جوف الكعبة ومن حولها .

ومنهم من كان على دين المجوس ، ومنهم من كان يصبو إلى الصابئة ويعتقد فى الأنوار اعتقاد المنجمين فى السيارات حتى لا يتحرك ولا يسكن ولا يسافر ولا يقيم إلا بنوء من الأنواء ، ومنهم من كان يصبو إلى الملائكة فيعبدهم ، بل منهم من كانوا يعبدون الجن ويعتقدون فيهم أنهم بنات الله .

كانت الحرية الدينية مكفولة للجميع لا عن سماحة خلق بل لأن أهل مكة كانوا يعيشون على الاتجار بالدين . وماذا يهمهم من تعبد المتعبدين ما دامت حريتهم الجنسية مكفولة ، وما دامت أموالهم تربو مع الأيام ، وما دامت الخمور تجلب من الشام . وما دام الناس يمتدحون الأيسار الذين يمضون سواد الليل فى الميسر والتنابذ بالألقاب ، وما دام الأشراف والسادة يجمعون الذهب والفضة من فتياتهم اللاتى يجلسن للبغاء .

* * *

ومن خباء قريب من حيث جلس العباس بن عبد المطلب خرج محمد ﷺ فنظر إلى الشمس . فلما رآها مالت ذهب إلى بئر زمزم فتوضأ فأسبغ

الوضوء ثم خرج غلام مراهق فتوضأ ثم جاءت امرأة من ذلك الخباء فتوضأت . ثم قام محمد ﷺ يصلى وقام الغلام إلى جنبه وقامت المرأة خلفهما ، ثم ركع الرجل وركع الغلام وركعت المرأة ، ثم خر الرجل ساجدا وخر الغلام وخرت المرأة .

وكان عند العباس عفيف الكندى وكان امرأ تاجرا قدم للحج وأتى العباس ليبتاع منه بعض التجارة وكان العباس له صديقا ، فراح يرمق المصلين فى دهش ثم التفت إلى العباس وقال :

— ويحك يا عباس ، وما هذا الدين ؟

فقال العباس فى بساطة :

— هذا دين محمد بن عبد الله ابن أخى يزعم أن الله بعثه رسولا ، وهذا ابن أخى على بن أبى طالب وهذه امرأته خديجة .

ترى أكان العباس يعلم أن زوجه أم الفضل قد أعلنت إسلامها فى ذلك اليوم وأنها شهدت أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله ؟ وأن أسماء بنت أبى بكر قد دخلت معها فى دين الله ؟

وكان عثمان بن عفان فى طريقه إلى داره ، وما إن دخل حتى ألفى خالته سعدى بنت كريز عند أمه أروى فراحت تحدثه عن محمد ﷺ وعن الوحى الذى نزل عليه من السماء وعن صفات الأمين ، وتؤكد له أنه نبى هذه الأمة الذى بشرت به الأنبياء ، وجعلت تحثه على اتباعه وهى تزين له الإسلام .

كانت أم أروى وسعدى بنتى أم حكيم البيضاء بنت عبد المطلب وكانت وعبد الله توأمين . فكان محمد ﷺ ابن خالهما وكانتا تعرفان عنه أنه أجود

الناس كفا ، وأجرأ الناس صدرا . وأصدق الناس لهجة ، وأوفى الناس ذمة ، وألينهم عريكة ، وأكرمهم عشرة ، قد قطع كل علائقه بالدنيا ليتصل بربه ويشرق نور المعارف فى صدره . وقد توجت عزلته وتعبده لله وحده بأن اصطفاه ربه وبعثه رسولا للعالمين .

وكان لعثمان مجلس من أبى بكر وكانا كلما تحاورا تحدثا عن الدين . ويا طالما أسهب أبو بكر فى حديثه عن محمد وتحنثه ومحبته للعزلة وزهده فى الدنيا وهو القادر على أن يكون من أعظم تجار مكة ومن أثريائها ومن أشرف رجالها ، فكان يهتدى إلى أن أبا القاسم ما هجر اللذات وفرض على نفسه حياته الخشنة التى يحياها إلا لشىء أسمى من اللهو والتجارة .

وكان عثمان يتهلل بالفرح الروحى الفياض كلما جلس إلى أبى القاسم وأعاره سمعه ، فقد كان يحس كأنما حديث ابن خال أمه يرفعه من الأرض إلى السماوات ويجعله يحلق فى ملكوت صيغ من مكارم الأخلاق .

ونهض عثمان وانطلق قاصدا أبا بكر والأفكار تتزاحم فى رأسه . إنه تمنى ذات يوم أن يتزوج رقية بنت محمد وكانت من أجمل خلق الله . وما كانت رغبته فيها لذلك الجمال فحسب بل ليربط الأسباب بينه وبين ذلك الرجل الكريم الذى تتسلل محبته إلى قلوب الناس ، وليتيسر له أن ينهل من ينبوع الحكمة الذى تفجر فى قلب محمد من طول سهره مع الله . ولكن بينما كان فى فناء الكعبة قيل : أنكح محمد عتبة بن أبى لهب بنته رقية . فدخلته حسرة ألا يكون سبق إليها ، فإن كان زواج رقية من عتبة قد أبعده عن الرجل الذى تعلق به فؤاده فهذه الدعوة الفاضلة التى يدعو إليها ستجعله يدنو منه دنوا يشرح صدره ، وييسر له قبس النور من نبع النور .

وجاء أبا بكر فأصابه وحده ، وأطرق متفكرا فسأله أبو بكر عن تفكره فقال :

ــ انصرفت إلى منزلى فوجدت خالتى سعدى بنت كريز فأخبرتنى أن الله أرسل محمدا .

فراح أبو بكر يرغبه فى الإسلام ويحثه أن يكون من أوائل الملبين لداعى الله وعثمان يصغى فى اهتمام ويستشعر كأن نورا يضىء فى جوانحه وبردا ينزل على قلبه وسلاما يسربل روحه ، وبينا النور ينداح فى ظلام نفسه مر رسول الله ﷺ ومعه على بن أبى طالب يحمل ثوبا ، فقام أبو بكر وهمس فى أذن صاحبه ، فقعد ﷺ ثم أقبل على عثمان فقال :

ــ أجب الله تعالى إلى جنته فإنى رسول الله إليك وإلى جميع خلقه .

فما تمالك عثمان حين سمعه أن قال :

ــ أشهد أن لا إله إلا الله ، وأنك رسول الله .

وذاع فى بنى أمية أن عثمان قد دخل فى الدين الجديد . وما إن صك ذلك النبأ أذنى عمه الحكم بن أبى العاص بن أمية والد مروان بن الحكم حتى ثار ، وأغضبه أن يتنكر ابن أخيه لآلهة آبائه فذهب إليه يحاول أن يثنيه عن ذلك الدين ، ولكن عثمان وقف فى وجه عمه كالطود الأشم ، فلما فل سلاح الإقناع بالحسنى أخذه عمه فأوثقه كتافا وقال :

ــ ترغب عن ملة آبائك إلى دين محمد ! والله لا أصلك أبدا حتى تدع ما أنت عليه .

فقال عثمان فى صلابة :

ــ والله لا أدعه ولا أفارقه .

واستمر الحكم فى تعذيب عثمان وعثمان لا يهن ولا يضعف ولا يتزعزع إيمانه بل يظل صلبا فى الحق ، فخشى عمه أن يفتن الضعفاء به فأطلقه وهو كاره حائر لا يدرى أأحسن ساعة أن أوثقه أم أحسن ساعة أن أطلقه أم أساء فى الحالتين !

وكانت الأفكار التى تدور حول محمد قد ملأت رأس الزبير بن العوام ، إنه ألقى سمعه إلى عمته خديجة فحدثته عن أبى القاسم أحاديث عجيبة استولت على لبه وأسرت فؤاده ، وأعار أمه صفية أذنيه فإذا بها تروى عن ابن أخيها روايات تتسرب إلى عين ذاته وترفع الحجب عن وجه الحقيقة فيستشعر كأن شيئا غامضا مثيرا يجذبه إلى صاحب الشخصية الفذة الآسرة الحبيبة .

إن على بن أبى طالب قد أسلم وهو الفتى الذى لم يتجاوز بعد العاشرة من عمره أعلن إيمانه بالدين الجديد بعد أن استبان لعين بصيرته جمال الدعوة ، وهو قد بلغ الثانية والعشرين فما الذى يقعده عن الإقرار بوحدانية الله ورسالة الرجل الذى اصطفاه ربه لهداية البشر ؟!

وانبعثت من أغواره هتافات تهيب به أن آمن بالله ورسوله ما دام نور اليقين قد أنار قلبك ، فلم يجد ملاذا له إلا أن يأتى أبا بكر الرجل الذى يفزع إليه فى كل ما يشغله ، فانطلق إليه يستشيره وإن وضحت لعينيه معالم الطريق .

ودخل على أبى بكر وكان يألفه وراح يحدثه بما يساوره من أفكار ، فإذا بالرجل الحكيم يرغبه فى الإسلام ثم يقوده إلى حيث كان محمد ﷺ لينطق بالشهادتين اللتين اطمأن بهما قلبه .

وسمع عمه ، الذى ثار على صفية يوم أن رآها تضرب ابن أخيه وهو صغير واتهمها بأنها لا تحبه،أن ابن العوام كفر بآلهة قومه واتبع من جعل الآلهة إلها واحدا ، فانقشع من قلبه كل عطف على الفتى اليتيم وذهب إليه والغضب يطل من عينيه وأمره فى حدة أن يقلع عن تلك الصبوة التى عبثت بعقله لكأنما الإيمان يفر مرعوبا أمام سورة الغضب . وزاد فى حنقه أن الزبير لم يرتعد فرقا من خشيته بل قال فى جنان ثابت :

ـــ لن أفارق دينى .

وشد عمه وثاقه وجاء بدخان يعذبه به فملأ عينيه وأسال منهما الدموع وراح يخز مقلتيه وخزا ما أقساه ، وتسرب إلى رئتيه فراح يسعل وقد ضاق نفسه حتى خيل إليه أنه الموت وأن روحه تكاد أن تفر من بين جنبيه ، ولكن حلاوة الإيمان كانت تطغى على كل الآلام فكان يثبت على دينه فى إصرار تحطمت عليه كل أدوات الاضطهاد .

إنه عانى شدة لا يحتملها إلا مؤمن عمر قلبه بحقيقة راسية كالجبال لا تزعزعها عواصف عذاب قد يؤلم الجسد ولكن يعجز عن أن يصل إلى الروح ، وهى شدة هيأت أحسن الفرص لنفوذ سر الله إليه فقد طهرت ضميره من الأدران كما تطهر النار المعادن من الخبث .

لم تكن معتقدات قومه كافية لإشباع طموحه بعد أن اعتاد أن يجلس إلى ابن خاله الأمين ويسمع حديثه عن ملكوت السماء ، فلطالما ذهب لزيارة عمته خديجة وما أكثر ما شارك على بن أبى طالب وزيد بن محمد متعة الإصغاء إلى الرجل الذى تخرج الحكمة من بين شفتيه ، فلما بلغه أن الله بعث أبا القاسم رسولا وألقى سمعه إلى الدين الجديد وجد فى دعوة ابن خاله

روحا جديدا يؤذن بتجديد شباب البشرية وإعادة الكرامة إلى الإنسانية ، فوطد النفس على أن يكون له ظهيرا يؤيده وينصره ويقف معه فى وجه كل طغيان حتى يخرج الناس من الظلمات إلى النور .

* * *

والتقى أبو بكر ببلال مولى بنى جمح فقال له :

— ظهر نبى هذه الأمة .

فقال بلال فى اهتمام :

— من ؟

— محمد بن عبد الله .

فأحس بلال طمأنينة تنزل بقلبه وراحة تنساب إلى ضميره وتستقر فى وجدانه ، فهو يعرف لمحمد ﷺ صدقه فلم يجرب عليه كذبا قط . وعرف له أمانته التى ذاعت فى الآفاق وحسن خلقه وطهارة قلبه الكبير الذى يتسع لكل الناس ، فهو ليس فظا غليظ القلب كسيده أمية بن خلف ، ولا يتصف بالصلف والغرور الذى يملأ جوانح أبى الحكم بن هشام ، وهو كريم جواد لم يعرف عنه البخل الذى كان صفة لأبى سفيان ، ليس بصخاب فى الأسواق ، لا فرق عنده بين سيد وعبد ولا أبيض ولا أسود ، فهو خليق بالرسالة وهو كفء لحمل الأمانة .

وشرد بلال يفكر فى خصال أبى القاسم وهو مبهور بشخصيته الفذة التى ليس لها مثال فى الناس ، ولا غرو فهو ربيب السماء صنعه الله على عينه واصطفاه وجعل فيه نورا يجذب إليه البصائر قبل الأبصار ، وراح أبو بكر يبسط لبلال دعوة محمد — ﷺ — فيقول :

— إنه يدعو إلى التحرر المطلق من عبودية هذه الأحجار إلى عبادة خالق السماء الصافية ، والصحراء المترامية ، والنجوم اللامعة ، والشمس الساطعة ، والماء والرياض ، والهواء والغياض ، إن دعوته لا تفرق بين السادة والعبيد أمام الله إلا بقدر العقيدة والعمل . وتخلى الطريق بين العبد وربه يدخل إليه بغير واسطة ويتقرب إليه بغير زلفى . إنه يدعو إلى التراحم والتوادد والبر والتقوى ، وينفر من الوأد والقطيعة . إن دعوته لهناءة الدنيا وسعادة الأبد .

وانطلق أبو بكر وبلال إلى دار خديجة ودخلا على محمد ﷺ ، فإذا ببلال يرى بعين ضميره كأنما الكون كله يفيض بأنوار سماوية . وراح أبو القاسم يعرض على بلال الإسلام فإذا بخشوع ينزل بفؤاده ، وإذا بلسانه يتحرك بوحى من ذات مؤمنة بأجمل ما تحرك به لسان : شهادة بنفى الربوبية عن الآلهة جميعا وإثباتها لله وحده لا شريك له ، وأن محمدا عبد الله ورسوله .

وتلألأ فى نفس بلال الإحساس بالخير الأسمى ، وشاع فيها الرضا بعد أن محق الشرك من فؤاده وأنصف ذاته ، بل البشر جميعا ، لأن الشرك ظلم عظيم . وغادر بلال دار النبوة وهو مرفوع الرأس يستشعر الراحة والرضا ، وكأنه قد خلق خلقا جديدا . فقد دخل على محمد — ﷺ — وهو عبد لبنى جمح وخرج من عنده وهو عبد لله وحده ليس عليه سلطان إلا ربه ، وهام فى الوجود مستبشرا عظيما فى نفسه قد هان فى عينيه كل سلطان أرضى بعد أن ربط الأسباب بينه وبين السماء .

وأصبح بلال سابق الحبشة إلى الإسلام من أتباع محمد — ﷺ —

يختلف إليه حينما تغفل أعين الناس ، فى قائلة النهار حينا وتحت ستار الظلام أحيانا ، يرشف الحكمة من نبع الحكمة ويتأدب من مؤدب البشرية وينهل الشجاعة من معين الشجاعة ويتزود بالتقوى خير الزاد ، ويتعلم أن الناس سواسية ، وأن لا فضل لعربى على أعجمى ولا أبيض على أسود إلا بصالح الأعمال .

وسرى الهمس فى مكة بأن محمد بن عبد الله يزعم أنه نبى يدعو سرا إلى توحيد إله واحد . وبلغ الهمس دار سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل فإذا بسعيد يتذكر وصية أبيه الذى هجر دين آبائه وآمن بالله وحده ووقف على باب الكعبة يعلن على الملأ أن ليس فى القوم من هو على دين إبراهيم غيره . إنه كان ينتظر ظهور النبى الأمى الذى بشرت به الأنبياء ليصدقه ويؤمن به ، فلما وافته منيته أوصى ابنه سعيدا أن يسارع بتصديقه إذا ما ظهر ، وها هو ذا النبى الذى كان أبوه يرقب مبعثه قد بعث ، فذهب سعيد إلى زوجه فاطمة بنت الخطاب وقال لها فى فرح :

— ظهر نبى هذه الأمة ، إنه محمد بن عبد الله وإنه لخليق بالرسالة .

ودار حوار بين الزوجين اللذين كانا ينتظران ذلك النبى الذى أوصاهما باتباعه زيد بن عمرو بن نفيل قبل أن يذهب للقاء ربه ، وانتهى الحوار بأن ارتدت فاطمة ثياب الخروج وانطلقت مع زوجها إلى دار الطاهرة وسيدة نساء قريش .

وجلس سعيد وفاطمة إلى رسول الله ﷺ وقد أعاره السمع ، فكان حديثه الشجى ينفذ إلى القلب ويشرح الصدر ويجعل نور الإيمان يشرق فى الأفئدة ويرقق النفوس ويرفعها من العالم المادى المحدود إلى عالم الروح .

الذى ليس دونه منتهى ولا وراءه مرمى .

وشهد سعيد شهادة الحق وهو مستبشر بأنه قد صار على نور من ربه وقد احتلت صورة أبيه زيد بن عمرو بن نفيل رأسه وهو على راحلته يقول: اللهم إنى لو أعلم أحب الوجوه إليك عبدتك به ولكن لا أعلم. إلهى إله إبراهيم ودينى دين إبراهيم ، ثم يسجد على ظهر راحلته .

وكان سعيد متفرحا بالهدى الذى أنزل السكينة على قلبه بعد أن عرف أحب الوجوه إلى الله يعبده به ، وكانت فاطمة تستشعر نشوة روحية فياضة وهى تنطق بالشهادتين ، وودت لو أن آل الخطاب جميعا كانوا معها ليحظوا بسعادة الدنيا وهناءة الأبد .

وعاد من اليمن عبد عمرو بن عوف بن عبد الحارث بن زهرة وكان ينزل على عسكلان بن عواكن الحميرى كلما سافر إليها ، ولما كانت اليهودية والنصرانية منتشرتين فى اليمن فقد كان السمر يدور حول الدين والأنبياء وحول البشارات التى يفيض بها الكتاب المقدس عن ظهور نبى من الأمم . وكان ابن عوف يسمع من الأحبار والرهبان أنه سيبعث من البيت الحرام نبى مثل موسى ، فلما دخل على أبى بكر وسمع منه أن الله قد أوحى إلى عبده محمد بن عبد الله ﷺ ما أوحى وأنه قد بعثه رسولا إلى الناس كافة ، تذكر عمرو بن عوف كل ما سمعه عن النبى المنتظر وملأه إحساس عميق برسالة محمد كأنما قد أوحى إليه الإيمان به ووجده أهلا للرسالة ، فهو ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب فى الأسواق ولا يدفع السيئة بالسيئة ولكن يعفو ويغفر ، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، فقام مع أبى بكر وانطلقا إلى دار خديجة .

كان محمد — ﷺ — جالسا وإلى جواره على بن أبى طالب ، فلما دخل عليه أبو بكر وعبد عمرو بن عوف الزهرى رحب بهما ثم راح يعرض على عبد عمرو الإسلام . حتى إذا ما شرح الله قلبه للإيمان وشهد بوحدانية الله ورسالة محمد بن عبد الله ، قال له النبى عليه السلام :

— أنت عبد الرحمن .

ولاح البشر فى وجه ابن عوف . إنه دخل دار خديجة وهو عبد عمرو ، فإذا بالرسول يسميه عبد الرحمن ، وابتسم أبو بكر راضيا فهو أول من سماه رسول الله — ﷺ — من المسلمين . سماه عبد الله بعد أن كان اسمه عبد الكعبة .

كان عبد الرحمن تاجرا من أنجح تجار قريش طارت شهرته فى الأفق لعفته وصدقه وأمانته ، وكان راضيا بما نال من ثقة من وثقوا به وكلفوه بالاتجار فى تجارتهم ، فلما سمع رسول الله ﷺ يقول له :

— أنت أمين فى أهل الأرض أمين فى أهل السماء .. أنت صادق صالح بار .

أحس كأنما قد ذهب عنه كل حزن ونزلت على قلبه سكينة وتهلل بفرح فياض ونشوة روحية تفوق لذات الأرض جميعا .

* * *

وعاد طلحة بن عبيد الله من سوق بصرى ، فلما دخل مكة قال :

— هل من حدث ؟

— نعم ، محمد بن عبد الله الأمين يدعو إلى الله وقد تبعه ابن أبى قحافة .

كان طلحة من بنى تيم وكان أبو بكر سيد بنى تيم ولما يبلغ بعد الأربعين

وإن كان أبو قحافة لا يزال يمشي فى الأرض ، فأبو بكر رجل يألفه الناس محبب سهل أنسب قريش لقريش وأعلم قريش بها وبما كان فيها من خير وشر ، وهو تاجر ذو خلق ومعروف . وكان طلحة يألفه لعلمه وحسن مجالسته وكان حديثه عن صديقه محمد بن عبد الله ينبض بالحماسة والإيمان ، فما إن سمع طلحة أن أبا القاسم يدعو إلى الله وأن أبا بكر قد تبعه حتى هرع إلى أبى بكر وألقى إليه سمعه فإذا بنور اليقين قد أشرق فى فؤاده ، فخرج أبو بكر وطلحة بن عبيد الله حتى دخلا على رسول الله — ﷺ — فابتسم لهما فتألقت أسنانه المفلجة البيضاء ، فاستشعر طلحة كأن الكون كله يبتسم ، وجلسا إليه وراح أبو بكر يتحدث فإذا برسول الله يصغى ملتفتا إليه بكل جسمه ، إنهما ما جاءا إلا ليعرض رسول الله — عليه السلام — على طلحة الإسلام ، فراح محمد صلوات الله عليه — يتحدث بلسان فصيح عن الدين الجديد تشع عيناه الدعجاوان الواسعتان جاذبية وسحرا تحت أهداب طوال حوالك ، وينفذ حديثه الأخاذ إلى قلب طلحة لكأنما كان كلامه يكتب على لوح فؤاده بأحرف من نور ، وإذا بأنوار تشرق وتضىء ظلمات نفسه وإذا بلسانه يتحرك فى انفعال المأخوذ بالشخصية العظيمة التى بهرته بحكمتها :

— مد يدك أبايعك .

وشهد طلحة بن عبيد الله أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمدا عبده ورسوله ، وشهد بدين الإنسانية فى أمة العصبية ، وآمن بفجر تاريخ البشرية الجديد ، ووطن النفس على أن يكون ظهيرا للدعوة التى ستعيد للبشرية كرامتها وتخرجها من الظلمات إلى النور .

١٨

خرج محمد — ﷺ — إلى جبال مكة وهو حزين فقد انحبس عنه الوحى بعد أن نزل عليه : اقرأ باسم ربك ، وكان ذلك إيذانا بنزول ما يقرأه على الناس وتأكيدا بأن الوحى الذى يأتيه إنما هو وحى ربه . لقد ارتجفت بوادره من الخوف لما غطه جبريل يوم أن جاءه فى غار حراء ففر هاربا فى الأرض ، بيد أنه الآن فى شوق عظيم إلى الروح الأمين ليسمع منه ما يسكن ذلك القلق الذى استولى عليه .

وراح يغدو إلى جبل ثبير وهو يسأل نفسه : أكان ما رآه فى غار حراء حقيقة واقعة أم وهما من الأوهام ؟! أبعثه الله رسولا إلى الناس كافة أم هو يخدع نفسه ؟! إنه يريدها حقيقة ناصعة ترضيه ، فهو صادق مع نفسه قبل أن يكون صادقا مع الآخرين .

شق عليه أن فتر الوحى عنه وخشى أن يكون به جنون أو يكون كاهنا ، وفيما هو فى حزنه تبدى له جبريل على هيئة رجل قد ملأ الفضاء فقال :

— يا محمد إنك رسول الله حقا .

فسكن جأشه وقرت نفسه وعاد إلى دار خديجة يتعبد فى الغرفة التى أعدت لمناجاة ربه . ومرت أيام أخرى وهو يقابل الذين هداهم الله للإسلام و لم ينزل عليه الوحى بقرآن يقرأه على الناس فعاد إليه قلقه وشق

ذلك عليه فغدا إلى حراء وراح يفكر فى انحباس الوحى عنه . وعادت إليه فكرة أن يكون ما يدور بخلده وهما من الأوهام أو مسا من الجنون فلفه حزن ثقيل ، إنه يريد جوهر الحقيقة . يريدها ناصعة لا شية فيها . وفيما هو فى قلقه وأساه تبدى له جبريل فى صورة رجل صاف قدميه فى أفق السماء فقال :

— يا محمد إنك رسول الله حقا .

فسكن روعه واطمأن قلبه وعاد إلى مناجاة ربه وطول السهر معه يسأله أن يكشف له عن حقيقة أمره . واجتهد فى عبادته وفى سهره حتى أصابته وعكة فترك قيام الليل ليلتين . وعجبت جارة من جيرانه لذلك الانقطاع فجاءته فقالت :

— يا محمد إنى لأرجو أن يكون شيطانك قد تركك ، لم أره قربك منذ ليلتين .

ولفه حزن ثقيل ، وزاد فى أساه وشق عليه أن أهل مكة قالوا : ودعه ربه وقلاه . وخشى أن يكون ذلك هو الحقيقة الموجعة لنفسه ، فغدا إلى جبال مكة وتمنى لو يرى جبريل على الهيئة التى خلقه الله عليها لا على هيئة رجل فى أفق السماء ، وفيما هو فى تفكره تبدى له جبريل على هيئة رجل يسبح فى الفضاء . فقال له محمد — ﷺ :

— وددت أنى رأيتك فى صورتك .

فرآه فى الأفق الأعلى من الأرض قد طلع من المشرق فسد الأفق إلى المغرب ، فخر النبى — ﷺ — مغشيا عليه ، فنزل جبريل عليه السلام فى صورة الآدميين وضمه إلى نفسه وجعل يمسح الغبار عن وجهه .

وأفاق من غشيته فانطلق إلى خديجة وقد أخذته رجفة ، وما إن وقعت عيناه على الطاهرة حتى قال :

ــ دثرونى .. دثرونى .

فراحت خديجة تدثره حتى إذا ما سكن روعه صبت عليه الماء ، فجاءه الوحى :

﴿ يأيها المدثر * قم فأنذر * وربك فكبر * وثيابك فطهر * والرجز فاهجر * ولا تمنن تستكثر * ولربك فاصبر ﴾(١) .

وطابت نفس محمد ــ عليه السلام ــ فربه يأمره بإنذار قومه ، وحمى الوحى وتتابع ، فنزل عليه :

﴿ يأيها المزمل * قم الليل إلا قليلا * نصفه أو انقص منه قليلا * أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلا * إنا سنلقى عليك قولا ثقيلا * إن ناشئة الليل هى أشد وطأ وأقوم قيلا * إن لك فى النهار سبحا طويلا * واذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتيلا * رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلا * واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرا جميلا ﴾(٢) .

ثم أوحى إليه :

﴿ والضحى * والليل إذا سجى * ما ودعك ربك وما قلى * وللآخرة خير لك من الأولى * ولسوف يعطيك ربك فترضى ﴾(٣) .

ثم أوحى إليه :

---

(١) المدثر ١ ــ ٧ . (٢)المزمل ١ ــ ١٠ .

(٣) الضحى : الضحى ١ ــ ٥ .

﴿ ن والقلم وما يسطرون * ما أنت بنعمة ربك بمجنون * وإن لك لأجرا غير ممنون * وإنك لعلى خلق عظيم ﴾(١) .

وعرف محمد — عليه السلام — أن الله أوحى إليه قرآنه ليقرأه على الناس ، ونفى عنه فكرة الجنون التى طافت به ، ومدحه ربه بأنه على خلق عظيم فلم يعد فى شك من أمره ، ولكنه أشفق على نفسه من تكاليف الرسالة ، إنه سيقف فى وجه قومه يدعوهم إلى الله والله معه وإنها لدعوة ستغضب الناس الذين ألفوا حياتهم ووقر فى ضمائرهم عبادة ما كان آباؤهم يعبدون ولكن ماذا يهمه من أمر الناس ما دام ربه قد أمره بإنذارهم وهو وكيله وهو ناصره ؟ فوطن النفس على أن يدعو إلى رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو وأن يصبر على ما يقولون حتى تشرق أفئدتهم بالنور .

وراح يملى ما أنزل عليه على كتاب وحيه ، أبى بكر وعلى والزبير بن العوام وعثمان بن عفان . وراح المسلمون الأوائل يقرءون القرآن سرا على من يثقون فيهم من أصحابهم آملين فى أن يخرجوهم من الظلمات إلى النور ، فكان المكيون يسمعون آيات الله ويعجبون ببلاغتها ، فكانت صدور تنشرح للإيمان وكانت قلوب تقفل نوافذها فى وجه النور دون أن تثور ، وكان رجال يغضبون لجعل الآلهة إلها واحدا فيقومون بتعذيب من آمنوا منهم ليردوهم عن الحق المبين .

وبينا كان رسول الله — ﷺ — يقوم الليل ويرتل القرآن ترتيلا كان خالد ابن سعيد بن العاص فى سبات عميق ، فرأى فى نومه نارا متأججة يشيب من هولها الوليد ، ورأى نفسه على شفيرها وأن أباه يريد أن يلقيه فيها وأن محمد بن

---

(١) القلم ١ — ٤ .

عبد الله — عليه السلام — أخذ بحجزته يمنعه من الوقوع فيها ، فقام من نومه فزعا ترتعد فرائصه يحس كأن روحه تكاد أن تفلت من بين جنبيه ؛ وظل مرعوبا حتى إذا ما سكن روعه وانزاح الرعب عن عقله قال فى نفسه :

— أحلف بالله أن هذه رؤيا حق .

وما أشرقت الشمس حتى انطلق إلى أبى بكر ليقص عليه ما رأى ويسمع منه تأويل رؤياه .

فلما جلس إليه وقص عليه حلمه الذى أفزعه قال له أبو بكر :

— أريد بك خيرا . هذا رسول الله — عليه السلام — فاتبعه .

وذهبا إلى حيث كان رسول الله — ﷺ — فقال خالد :

— يا محمد ما تدعو إليه ؟

— أدعو إلى الله وحده لا شريك له ، وأن محمدا عبده ورسوله ، وتخلع ما أنت عليه من عبادة حجر لا يسمع ولا يبصر ولا يضر ولا ينفع .

فشرد خالد قليلا كأنما يتذكر شيئا ثم قال :

— كنت ذات ليلة نائما فرأيت كأنه غشيت مكة ظلمة حتى لا يبصر امرؤ كفه ، فبينا أنا كذلك إذ خرج نور من زمزم ثم علا فى السماء فأضاء فى البيت ثم أصاب مكة كلها ، ثم تحول إلى يثرب فأصابها حتى إنى لأنظر إلى البسر فى النخل ، فاستيقظت فقصصتها على أخى عمرو بن سعيد فقال : يا أخى إن هذا الأمر يكون فى بنى عبد المطلب . ألا ترى أنه خرج من حفر أبيهم .

فقال رسول الله ﷺ :

— يا خالد أنا والله ذلك النور ، وأنا رسول الله .

وأسلم خالد . وقرئ القرآن همسا فى نوادى بيوت أشراف مكة العشرة ، وعرف أقوام أن محمدا — ﷺ — قد عاب آلهتهم وسفه أحلام آبائهم فغضبوا وكان منهم سعيد بن العاص ، فلما بلغه أن ابنه قد صبأ عن دين آبائه واتبع الدين الجديد امتلأ غضبا ، وضايقه وهو السيد المطاع فى قريش أن يتبع ابنه محمدا الذى خالف قومه وجاءهم بما لا علم لهم به ، فأرسل فى طلبه فنهره وضربه بمقرعة كانت فى يده حتى كسرها على رأسه ثم قال :

— اتبعت محمدا وأنت ترى خلافه لقومه وما جاء به من عيب آلهتهم وعيب من مضى من آبائهم ؟

فلم يأبه سعيد لغضب أبيه وهانت آلام جسده بعد أن عرف لذة الوصال برب المشرق والمغرب فقال :

— والله اتبعته على ما جاء به .

فغضب أبوه وقال :

— اذهب يا لكع حيث شئت . والله لأمنعنك القوت ..

— إن منعتنى فإن الله يرزقنى ما أعيش به .

— اخرج .. اخرج .

ثم التفت إلى بنيه وقال :

— لا يكلمه أحد منكم .

فانصرف خالد إلى رسول الله — ﷺ — يلزمه ويعيش معه ويغيب عن أبيه فى نواحى مكة وهو سعيد بالنور الذى يملأ جوانحه وبصحبة

رسول الله التى وجد فيها نعمة من الله لا تقرن بها نعمة أخرى ، فهو ينهل من نبع الحكمة ويقبس من مصدر النور .

وجلس كتاب الوحى يكتبون ما نزل على رسول الله ومحمد يتلو فى صوت يخشع له الكون : ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم * الحمد لله رب العالمين * الرحمن الرحيم * مالك يوم الدين * إياك نعبد وإياك نستعين * اهدنا الصراط المستقيم * صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين ﴾(١) .

وإذا بكل من فى الدار من أوائل المسلمين يقولون : آمين . وهم يستشعرون كأنما آيات الله قد رفعتهم إلى الملكوت .

ومر صهيب على دار رسول الله — ﷺ — وفى رأسه أفكار وفى صدره رغبة جامحة . إنه سمع قرآن محمد وقد سمع من قبل فى دار عبد الله بن جدعان شعر فحول الشعراء ، فرأى بذوقه المرهف أن قرآن محمد من نبع سماوى غير ذلك النبع الذى نهل منه الشعراء ، وما يدعو إليه يقبله العقل ويستريح إليه الفؤاد . إنه استفتى قلبه فزين له الإيمان برسالة الأمين . فجاء ليدخل على رسول الله . وفيما هو يتقدم ليدخل رأى عمار بن ياسر يحوم حول الدار ، إن عمارا خرج مع محمد من قبل فى تجارة خديجة وكان معه يوم أن بعثت خديجة إليه من يزين له التقدم لخطبتها وقد عرف عن كثب أمانته ومكارم أخلاقه ، فلما سمع بعض آى القرآن وبلغه أن محمدا يقول إنه رسول الله وجده أنه أهل للرسالة ، فجاء ليشهد أن لا إله إلا الله ، وأن

---

(١) الفاتحة ١ — ٧ .

محمدا عبده ورسوله .

ودنا عمار من صهيب وقلل :

— أين تريد يا صهيب ؟

فقال صهيب فى ثبات :

— أريد أن أدخل إلى محمد فأسمع كلامه وما يدعو إليه .

فقال عمار فى انشراح :

— وأنا أريد ذلك .

فدخلا على رسول الله — ﷺ — فأمرهما بالجلوس فجلسا ، وعرض عليهما الإسلام وتلا عليهما ما أنزل من القرآن فتشهدا ، واستأنسا بحديثه فظلا يسعدان بعلمه الفياض الذى أشرق فى قلبه من رحمة ربه حتى إذا أمسيا خرجا مستخفيين ، فدخل عمار على أمه وأبيه فسألاه :

— أين كنت ؟

فقال فى ثقة وياسر وسمية ينظران إليه فى دهش وكأنه قد عاد إليهما رجلا آخر :

— كنت عند محمد — ﷺ — ، وقد عرض على الإسلام فأسلمت .

ودار حوار طويل بين عمار وأبويه ياسر وسمية ، عمار يتلو آيات من القرآن فينشرح صدر سمية ويستشعر ياسر كأن نورا ينسكب فى وجدانه ويشرق فى فؤاده ، فيجادل ابنه فى ضعف ثم ينتهى الحوار الذى دار فى سكون الليل بين ابن بار مؤمن وأبوين يريدان وجه الحقيقة لا يخشيان زوال سلطان ولا ضياع أموال إذا أسلما . فتهلل وجه عمار الطيب المطيب بفرح واستبشار ورأى بعين بصيرته الأنوار تغمر الدار .

١٩

وقف عمرو بن عنبسة السلمي يعترض الركبان الخارجين من مكة بعد أن رغب عن آلهة قومه ورأى أنها آلهة باطلة . حجارة لا تضر ولا تنفع ، وبعد أن لقى رجلا من أهل الكتاب فسأله عن أفضل الدين فقال : يخرج رجل من مكة يرغب عن آلهة قومه ويدعو إلى غيرها وهو يأتى بأفضل الدين . فإذا سمعت به فاتبعه . فلم يكن له هم إلا مكة يسأل : هل حدث فيها حدث ؟ فيقولون : لا ، فينصرف إلى أهله . وأهله من الطريق غير بعيد .

ولمح قافلة قادمة من مكة فاعترضها فسأل من فيها :

— هل حدث فى مكة حدث ؟

فنظروا إليه فى دهش وقالوا :

— لا .

فانقلب راجعا إلى أهله . ثم خرج إلى الطريق ذات يوم وقعد ينتظر الركبان الخارجين من مكة وإذا به يرى راكبا مقبلا فقام إليه فقال له :

— من أين أنت ؟.

— من مكة .

— هل فيها من خبر ؟

— نعم . رجل رغب عن آلهة قومه ودعا إلى غيرها .

فقال عمرو فى فرح :

ــ صاحبى الذى أريد .

فشد راحلته وجاء مكة ونزل منزله الذى كان ينزل فيه . فسأل عنه فوجده مستخفيا فانتظر فى الحرم . وما لبث أن جاء رسول الله ــ ﷺ ــ ليطوف بالحرم وسادت قريش فى مجالسهم لا ينكرون مما يقول شيئا . فما عاب الله آلهتهم التى يعبدونها دونه ، وما ذكر بعد هلاك آبائهم الذين ماتوا على الكفر ، فكانوا يشيرون إليه ويقول فى سخرية :

ــ إن غُلام بنى عبد المطلب ليكلَّم من السماء .

وعرفه عمرو بن عنبسة فذهب إليه فقال :

ــ من أنت ؟

ــ أنا نبى الله .

ــ وما نبى الله ؟

ــ رسول الله .

ــ وبم أرسلك ؟

ــ بأن يُعبد الله وحده ولا يُشرك به شىء ، وتكسر الأوثان وتحقن الدماء وتوصل الأرحام .

وكان محمد ــ عليه السلام ــ وحده أعزل من كل سلاح إلا سلاح إيمانه ، وراح يقنع الرجل بالموعظة الحسنة لم يشهر فى وجهه سيفا ولم يرغمه على الكفر بدين آبائه . فلما اقتنع الرجل بمنطقه قال :

ــ نعم ما أرسلت به . أشهد أنى آمنت بك وصدقتك . ابسط يدك أبايعك .

فبايعه على الإسلام ثم قال له :

ــ أقيم معك يا رسول الله ؟

— لا . ولكن الحق بقومك فإذا سمعت أنى قد خرجت فاتبعنى .

وانطلق عمرو بن عنبسة السلمى إلى قومه وقد استراحت نفسه إلى الدين الذى كان ينتظر بزوغ نجمه مذ لقى ذلك الرجل من أهل الكتاب الذى قال له : يخرج رجل من مكة يرغب عن آلهة قومه ويدعو إلى غيرها ، وهو يأتى بأفضل الدين .

* * *

وكان أبو ذر الغفارى وأخوه أنيس جالسين أمام الدار فجاء رجل من مكة ونزل بهما وراح يقص أخبار أهل الحرم . وقال فيما قال إن رجلا خرج بمكة يزعم أنه نبى ، فشغل أبو ذر بذلك النبأ حتى إنه لم يعد يلتفت إلى ما يقول المكى ، فلما انصرف التفت أبو ذر إلى أنيس وقال :

— انطلق إلى هذا الرجل فكلمه وأتنى بخبره .

وذهب أنيس وبقى أبو ذر يرقب عودة أخيه فى لهفة ، حتى إذا جاء هرع إليه وقال له :

— ما عندك ؟

— والله رأيت رجلا يأمر بالخير وينهى عن الشر يزعم أن الله أرسله ، ورأيته يأمر بمكارم الأخلاق .

— فما يقول الناس فيه ؟

— يقولون : شاعر . كاهن . ساحر . والله إنه لصادق وإنهم لكاذبون .

— اكفنى حتى أذهب وأنظر .

— نعم . وكن على حذر من أهل مكة .

فحمل أبو ذر جرابا وعصا ثم أقبل حتى أتى مكة فجعل لا يعرفه ويكره

أن يسأل عنه ، فمكث فى المسجد وطال مكثه . وجاء على بن أبى طالب ولم يتجاوز بعد العاشرة من عمره ليطوف بالبيت ، فألفى أبا ذر جالسا وقد سجا الليل فذهب نحوه وقال :

ــ كأن الرجل غريب ؟

ــ نعم .

ــ تعال معى .

فانطلق على به إلى حيث ينزل الضيفان بدار خديجة فبات أبو ذر ليلته ، ولما أصبح الصباح خرج إلى الحرم يبحث عن النبى لا يسأل أحدا ولا يخبره أحد عنه بشىء . وانقضى النهار وجاء الليل وأقبل على ومر بأبى ذر فقال :

ــ أما آن للرجل أن يعرف منزله بعد ؟

ــ لا .

ــ فانطلق معى .

فانطلقا وبات أبو ذر ليلته ، ثم خرج إلى المسجد يبحث عن النبى وتصرم النهار وأرخى الليل سدوله ، وجاء على ومر بأبى ذر فقال :

ــ تعال معى .

ــ وسارا صامتين ثم قال على :

ــ ما أمرك ؟ وما أقدمك هذه البلدة ؟

ــ إن كتمت علىّ أخبرتك .

ــ فإنى أفعل .

ــ بلغنا أنه خرج هنا رجل يزعم أنه نبى ، فأرسلت أخى ليكلمه فرجع ولم يشفنى من الخبر فأردت أن ألقاه .

ــ أما إنك قد رشدت . هذا وجهى إليه فاتبعنى ، ادخل حيث

أدخل ، فإن رأيت أحدا أخافه عليك قمت إلى الحائط كأنى أصلح نعلى فامض أنت .

وانطلقا ودخل علىّ على النبى — ﷺ — وأبو ذر معه . فلما رأى النبى — ﷺ — استشعر استبشارا وقال :

— السلام عليكم .

وكانت أول تحية ألقيت فى الإسلام ، فقال النبى — صلوات الله عليه — :

— وعليك السلام ورحمة الله وبركاته .

— أنشدنى ما تقول .

— ما هو بشعر فأنشدك ، ولكنه قرآن كريم .

— اقرأ علىّ .

وراح النبى يقرأ على الرجل ما أنزل عليه من ربه وأبو ذر يصغى وهو مأخوذ ، ثم قال :

— أشهد أن لا إلـٰه إلا الله ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله .

وقال له النبى :

— ممن أنت ؟

— من غفار .

فجعل النبى — ﷺ — يرفع بصره فيه ويصوبه تعجبا ، لما كان يعلم من غفار قبيلة السطو والنهب وقطع الطريق ، ثم قال :

— إن الله يهدى من يشاء ، يا أبا ذر اكتم هذا الأمر وارجع إلى قومك فأخبرهم يأتونى ، فإذا بلغك ظهورنا فأقبل .

— والذى بعثك بالحق لأصرخن بهذا بين ظهرانيهم .

كان رسول الله — ﷺ — يدعو من يثق بهم إلى الإسلام سرا ، وكان المكيون ينظرون إليه وهو يصلّى فى الحرم وبعض أنصاره دون مبالاة ، فالحرية الدينية مكفولة فى بيت الله ما دام العابد لا يتعرض لديانة قريش بسوء ولا يجرح شعورهم ، وكان أقصى ما يفعلونه أن يسخروا من ذلك الذى يزعم أن الخبر يأتيه من السماء ويصفونه تارة بأنه شاعر وتارة أخرى بأنه كاهن أو ساحر . وكان بعض أصحاب الأمزجة الحادة يؤدبون من انسلخ من الصابئين عن دين الآباء ثم يفل سلاحهم أمام صمود المؤمنين .

ها هو ذا أبو ذر يأبى أن ينسل إلى قومه راضيا بإيمانه الذى أشرق فى قلبه ، بل وطد العزم على أن يعلن إسلامه مدويا فى جنبات بيت الله ، فلما اجتمعت قريش بالمسجد نادى بأعلى صوته :

— أشهد أن لا إلٰه إلا الله ، وأشهد أن محمدا رسول الله .

كانوا فى لهوهم وعبثهم فما بال هذا الرجل قد جاء يعكر صفوهم ، فمال عليه أهل الوادى بكل مدرة وعظم حتى خر مغشيا عليه . فأكب عليه العباس ثم قال لهم :

— ويلكم ! ألستم تعلمون أنه من غفار وأن طريق تجارتكم عليهم !

فخلوا عنه ، فجاء زمزم فغسل عنه الدم وقصد رسول الله ﷺ فوجد عنده أبا بكر ، فقال له محمد — صلوات الله عليه وسلامه — :

— متى أنت هاهنا ؟

— كنت هاهنا منذ ثلاثة أيام .

— فمن كان يطعمك ؟

— ما كان لى طعام إلا ماء زمزم .

فقال أبو بكر :

— ايذن لى يا رسول الله فى طعامه الليلة .

وانبلج صبح اليوم التالى فخرج أبو ذر إلى المسجد فألفى قريش فى نواديهم ، فنظر إليهم فهانوا فى عينيه ، وأحس رغبة فى أن يعاود الجهر بإسلامه فصاح بأعلى صوته :

— يا معشر قريش ... يا معشر قريش .

فالتفت الناس إليه فصاح فيهم :

— أشهد أن لا إلـه إلا الله ، وأشهد أن محمدا رسول الله .

فزمجر القوم وقاموا إليه وأشبعوه ضربا فخر مغشيا عليه ، وأقبل العباس يواسيه ثم أقبل على القوم فقال :

— ويلكم تقتلون رجلا من غفار وتُجُركم وممركم على غفار !.

ترى أكان العباس الذى أسلمت زوجه أم الفضل مشفقا على قومه حقا أم أن قلبه قد مال إلى دين ابن أخيه فراح يحميه ويحمى المؤمنين برسالته وإن التمس أعذارا تبدو فيها النصيحة لقومه !

وعاد إلى حيث كان رسول الله — ﷺ — فجلس راضى النفس ثم استأذن فى العودة إلى قومه فقال له الرسول الكريم :

— إنى قد وجهت إلى أرض ذات نخل فلا أحسبها إلا يثرب ، فهل أنت مبلغ عنى قومك لعل الله عز وجل ينفعهم بك ويأجرك فيهم ؟

— نعم أفعل .

وخرج أبو ذر وأتى أنيسا فقال له أخوه :

— ما صنعت ؟

— قد أسلمت وصدقت .

— ما لى رغبة عن دينك فإنى قد أسلمت وصدقت .

فأتيا أمهما فقالت لأبي ذر :

ـــ ما رأيت ؟

ـــ رأيت رجلا أفضل قومه مروءة ، وأحسنهم خلقا ، وأكرمهم مخالطة ، وأحسنهم جوارا ، وأعظمهم حلما وأمانة ، وأصدقهم حديثا ، وأبعدهم من الفحش والأذى ، وما رئى ملاحيا أبدا ولا مماريا أحدا ، حتى سماه قومه بالأمين ، يدعو إلى الله بالحسنى ، وينهى عن الفحشاء والمنكر ، فشهدت أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا عبده ورسوله ، وأسلمت وأسلم أخي أنيس .

فقالت أمهما :

ـــ ما لى رغبة عن دينكما ، فإنى قد أسلمت وصدقت .

وأتى أبو ذر قومه فألفاهم جالسين عند خفاف بن إيماء بن رحضة الغفارى سيدهم ، فراح يتحدث فى إيمان عن محمد ـــ ﷺ ـــ ويحبب أهله فى الإسلام ، حتى أسلم خفاف بن رحضة وتبع كثير من القوم سيدهم ، وطمع أبو ذر فى إسلام غفار كلها فالتفت إلى من أبوا أن يدخلوا فى دين الله وقال :

ـــ وأنتم . ما يمنعكم من الإسلام ؟

فقالوا :

ـــ إذا قدم رسول الله أسلمنا .

٢٠

فى عماية الصبح فتح باب دار خديجة فخرج منه رسول الله ـ ﷺ ـ وعلى بن أبى طالب وزيد بن حارثة وهند بن أبى هالة بن سعيد بعد أن هجر أباه ولزم النبى ﷺ ، وانطلقوا فى شوارع مكة الضيقة المسقوفة حتى بلغوا الحرم فطافوا بالبيت سبعا ، ثم انسلوا إلى شعاب مكة ليلتقوا بالمسلمين ليصلوا لله بعيدا عن عيون الذين لم يشرح الله صدورهم بعد للإسلام .

ومن دور بنى تيم خرج أبو بكر ومولاه عامر بن فهيرة وصهيب مولى عبد الله بن جدعان وطلحة بن عبد الله .

وخرج من دور بنى هاشم جعفر بن أبى طالب فى خطى ثابتة فأبو طالب يعلم بإسلامه بل هو الذى أمره أن يصلى مع ابن عمه ، فقد رأى النبى ـ ﷺ ـ وعليا يصليان وعلىّ على يمينه ، فقال لجعفر : صل جناح ابن عمك . فصلى عن يساره ، وكان جعفر فى حيرة من أمر أبيه فهو لم يثر لما عثر ذات يوم على النبى ـ عليه الصلاة الله وسلامه ـ وعلى ابنه علىّ وهما يصليان فى الشعب مستخفيين ، بل قال لابنه : إنه لم يدعُك إلا إلى خير فاتبعه ، فلمادا لم يتبع أبو طالب ابن أخيه ؟ أحقيقة إنه يخشى أن تقول نساء قريش إن شيخ بنى هاشم قد أسلم قياده إلى فتى من فتيان بنى هاشم أم لأنه يؤمن بأن الله أجل من أن يبعث رجلا رسولا ؟

ومن دور بنى أمية خرج عثمان بن عفان وهو على يقين من أن إسلامه قد

ثلم كرامة الأمويين ، فالمنافسة على السيادة كانت مشتعلة الأوار بين بنى هاشم وبنى أمية ، وقد كاد أبو سفيان أن يكون زعيم قريش بلا منازع . أفيقبل بنو أمية أن يكون من منافسيهم رسول يأتيه خبر السماء ؟ ترى ماذا يفعل أبو سفيان عندما يعود من رحلة اليمن ويعلم أن وحيا من السماء قد نزل على محمد بن عبد الله سليل البيت الهاشمى العتيد ؟

كان عثمان هاشميا من ناحية أمه أمويا من ناحية أبيه فكان موزع العواطف بين الحيين المتنازعين على زعامة قريش ، فلما أشرق قلبه بنور اليقين نسى عصبيته لقبيلته ، بل جعل دبر أذنه عصبيته لقوميته بعد أن علمه رسول الله ـ ﷺ ـ أن الناس سواسيه وأن لا فضل لأحد على أحد عند الله إلا بالتقوى ، فصارت غاية أمانيه أن يهدى الله قومه إلى الحق وأن تفيض رحمة ربه على العالمين .

وخرج من دور بنى أسد الزبير بن العوام وكان فى الثانية والعشرين من عمره وقد فرحت عمته خديجة بإسلامه ، إلا أن ذلك الفرح قد كدره عدم إسلام ابن أخيها حكيم بن حزام ، فهى تحب ابن حزام وتتمنى له الهداية وأن يكون من السابقين لتلبية نداء الله . ولكن ما كان ذلك ميسورا فحكيم قد أصبح صاحب دار الندوة اشتراها بماله ليكون له شرف امتلاك دار حكومة قومه ، وهو مسموع الكلمة فى الدار التى يشرئب بأعناقهم إليها الطامحون من رجال قريش ، وهو شريف معدود من أشراف قريش . أوَ يترك كل هذا المجد ليصبح تابعا من أتباع زوج عمته ؟! إن قلب حكيم مشغول بالدنيا متعلق بغرورها بينما كان الزبير لا يزال خلى الفؤاد لم يعم قلبه عن الحقيقة ، فلما بزغ نور الحق لم تعترض سبيله عوائق من المطامع والأهواء .

وخرج من دور بنى زهرة عبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبى وقاص وأخوه عامر ، وقد كانت أمهما تعير سعدا بأخيه عامر وتقول : هو البر لا يفارق دينه ولا يكون تابعا . وقد جاء سعد ذات يوم والناس مجتمعون على أمه وعلى أخيه عامر فقال : ما شأن الناس ؟ فقالوا : هذه أمك قد أخذت أخاك عامرا وهى تعطى الله عهدا لا يظلها نخل ولا تأكل طعاما ولا تشرب شرابا حتى يدع صبأته . فالتفت سعد إليها وقال : والله يا أمه لا تستظلين ولا تأكلين ولا تشربين حتى تتبوئى مقعدك من النار .

كان عبد الرحمن يشق طريقه ليكون من أشهر تجار مكة ، وقد ذاعت أمانته فى الأمصار حتى إن البضائع كانت ترسل باسمه حيثما كان فى الأسواق ليبيعها ويأخذ نصيبه ثم يرد الأموال وأرباحها إلى أصحابها كاملة غير منقوصة . وكان سعد فى التاسعة عشرة وكان عامر فى السادسة عشرة وكانا على الرغم من صغر سنهما يرغبان فى الحقيقة ، فلما اتضح لهما صدق دعوة محمد — ﷺ — أسرعا بالتصديق ، ولم يؤثر فيهما وهما الباران بأمهما صياحها ومحاولاتها لتعيدهما إلى الظلمات بعد أن عرفا طريق النور .

ومن دور بنى مخزوم التى كانت تطل على الحرم من فوق الصفا خرج الأرقم بن أبى الأرقم المخزومى وعياش بن أبى ربيعة بن المغيرة المخزومى أخو أبى الحكم بن هشام (أبى جهل) فأمهما أسماء بنت مخربة التميمية . وكان عياش يعرف قسوة قلب أبى الحكم وأطماعه التى ليس لها حد ، فأموال بنى المغيرة ممدودة ورجال بنى مخزوم رجال الكر والفر والطعن والنزال ، ومن هذه صفاته لا بد أن يرنو إلى الصدارة وإلى منافسة بنى هاشم وبنى أمية . فإن كان الوليد بن المغيرة هو سيد بنى مخزوم فما أقصر أيامه فى

الأرض ، فإن ذهب فلا خليفة له غير أبي الحكم . كانت الدنيا تملأ قلبه وتستولى على تفكيره ، وكانت السيادة تتخايل له والزعامة هدف حياته فما كان يستطيع أن يتصور أن يقوم فى قريش من ينافسه فى أطماعه ، فما بالك إذا قامت دعوة تقوض كل قصور أحلامه وأمانيه ؟

كان عياش يرتجف فرقا من أخيه وكان يجل أبا الحكم ، فلما عرف الإيمان طريقه إلى قلبه هان فى عينيه كل سلطان إلا سلطان الله ، ولم يعد يخشى بنى المغيرة ولا بنى مخزوم بل ولا العالم بأسره ، فإن كان ينسل الآن ليصلى مع رسول الله ـ ﷺ ـ فما ذلك إلا استجابة لرغبة النبى الكريم ، فهو لا يريد أن تقف النبتة فى وجه العواصف قبل أن يشتد عودها .

وخرج أبو سلمة المخزومى مشرق النفس فأمه برة بنت عبد المطلب تبارك دعوة ابن أخيها ، فهو كالزبير بن العوام كلاهما ابن عمة صاحب الدعوة ، غير أن الزبير ابن أخى خديجة حاضنة الإسلام .

وخرج عمار بن ياسر وأبوه ياسر متسللين حتى لا يفجأهما أحد من بنى مخزوم ، فهما ليسا منهم بل حلفاء لهم . تزوج ياسر سمية وكانت جارية من جواريهم ، فلما جاء عمار ثمرة ذلك الزواج شب فيهم وإن كانت عواطفه منذ نعومة أظفاره مع محمد بن عبد الله ، فقد بهرته مكارم أخلاقه وما آتاه الله من الحكمة ، فلما سمع أن الله قد بعث صديقه العظيم رسولا إلى الناس كافة هرع إليه مغتبطا ليعلن إسلامه ، فهو يراه خليقا لأن يكون رسول رب العالمين .

ومن دور بنى جمح خرج عثمان بن مظعون وأخواه قدامة وعبد الله وحاطب بن الحارث وأخواه حطاب ومعمر وبلال بن رباح مولى أمية بن

خلف ، وانطلقوا فى هدوء لا يترقبون قد غمرتهم نشوة روحية أنستهم كل خطر ، وكانوا فرحين بما آتاهم الله يغذون السير لينعموا بلقاء رسول الله ﷺ ويسعدوا بالوقوف بين يدى رب العالمين .

وخرج عبد الله بن مسعود من دار عقبة بن أبى معيط ، إنه يخرج فى غنم لآل عقبة ، وذات يوم جاء رسول الله — ﷺ — ومعه أبو بكر إلى حيث كان عبد الله يرعى الغنم . إنه قصير طوله نحو ذراع ، خفيف اللحم رجلاه دقيقتان ، ما يراه أحد إلا ويبتسم لقصره ودقة رجليه ، إلا أن النبى ﷺ دنا منه وقال فى صوت رصين ليس فيه أثر من سخرية أو هزء :

— هل عندك لبن ؟

— نعم ، ولكن مؤتمن .

وكشف الصبى القصير عن ضمير حى ومعدن نفيس . فأقبل رسول الله عليه السلام يحادثه وابن مسعود يستشعر كأن نورا يصب فى فؤاده فتشرق نفسه بالنور . وما انتهت المقابلة إلا وكان ابن أم عبد — وكان يعرف بأمه — قد نطق الشهادتين بلسانه بعد أن أقر بهما فؤاده ، وقال : يا رسول الله علمنى . فمسح رأسه وقال : بارك الله فيك فأنت غلام معلم .

كان صدق إيمانه وحسن حظه ونعمة الله عليه ما حرك لسانه بالتماس العلم من ربيب السماء ، فإذا به يحس بعد أن مسح رسول الله — ﷺ — رأسه كأن كنوزا من الحكمة تفجرت فى قلبه ، وتعلق الفتى بالرسول الذى آمن به وصدقه فسار يمشى أمامه ومعه ويستره إذا اغتسل ويوقظه إذا نام ويلبسه نعليه إذا قام ، فعرف بصاحب سر رسول الله .

وخرج أبو عبيدة بن الجراح مشرق القلب يحمد الله على أن هداه إلى

الإسلام ، فمن حسن طالعه أنه كان يألف أبا بكر ، ومن رحمة الله عليه أن جعله ذا بصيرة تستطيع أن تغوص فى نفس أبى بكر لتكتشف الكنوز الزاخرة فيه بالصدق ورجاحة العقل وإرهاف الضمير ، فوقر فى وجدانه أن أبا بكر رجل عظيم لا تهفو نفسه إلا إلى العظمة والكرامة والطهر . فإن كان أبو بكر قد آمن بما جاء به محمد بن عبد الله فلا بد أن ما جاء به شيء عظيم ! فلما ألقى سمعه إلى الرسول — ﷺ — إذا ما رآه وما سمعه يفوق كل ما تصوره عقله . وإذا بغشاوة تنزاح عن قلبه ، وإذا به يمتلئ بأنوار اليقين .

وخرج من دور بنى عدى سعيد بن زيد وما كان يهاب من قومه غير عمر بن الخطاب ، فهو يعرف ما نال أباه زيد بن عمرو بن نفيل من اضطهاد الخطاب بن نفيل لما آمن بوحدانية الله وفكر فى أن يدعو قومه إلى دين أبيهم إبراهيم . إن الخطاب كان يحرض عليه شباب مكة فكانوا يرمونه بالحجارة حتى اضطروه لأن يفر إلى الجبال ، وهو على ثقة بأن عمر بن الخطاب أشد تعصبا لآلهة قومه من أبيه ، فلو عرف عمر أن سعيدا ابن عمه قد أسلم وكفر بدين آبائه ، وأنه قد يسر لأخته فاطمة بنت الخطاب الدخول فى الدين الجديد ، فسيبطش عمر الجبار به وبزوجه ولن يرقق قلبه أنه ابن عمه وأنها أخته ، فهو لا يحفل بأية صلة إذا ما ثار للأرباب !

ومن دور عبد شمس خرج هاشم بن عتبة بن ربيعة . إنه ابن سيد عبد شمس ، بل ابن من تجله قريش كلها حتى إن أبا سفيان يراه أشرف الناس . أوَيرضى عتبة عن صبوة ابنه ؟ عتبة الذى كان يرشحه أمية بن أبى الصلت للرسالة لما عرف من الرهبان أن الرسالة المنتظرة فى قريش وليست فى ثقيف ؟ إنه كان يراه الرسول الموعود لولا أنه أزرت به السن فقد فات عتبة

الأربعين ، وقد قيل لأمية إن النبى المنتظر يبعث على رأس الأربعين . كيف فات هاشم أنه باتباعه لمحمد يسىء إلى أبيه وإلى أبى سفيان زوج أخته هند ؟! إن نور الدعوة قد بهره وبساطتها أرضت فطرته السليمة ، إنها الحق وإنها من ربه ، وما كان ليحفل بأبيه ولا بأبى سفيان بعد أن استبان له العدل وأن الشرك ظلم شديد .

بذر محمد ـ ﷺ ـ بذرة الإيمان فى كل بيت من بيوت شرف قريش العشرة بعون من ربه الذى جعل قلوب الأحرار والعبيد تفتح لدينه القويم . وستتغلغل البذور فى المجتمع المكى ، وستروى بدماء الشهداء لتستوى أعوادا قوية ، وتتفرع لتظلل الإنسانية من هجير الوثنية .

وأحس بعض المكيين بالمتسللين فخرجوا فى أثرهم يرصدونهم ، حتى إذا ما اجتمع المسلمون برسول الله ـ ﷺ ـ وألقوا إليه أسماعهم وتفتحت له قلوبهم ، عادوا مهرولين إلى دور بنى مخزوم وأفضوا إلى أبى جهل بما رأوا ، فجمع أبو جهل بعض رجاله ثم انطلق إلى حيث كان محمد ـ ﷺ ـ وصحبه .

كان المسلمون قد اصطفوا خلف نبيهم الأمين وقد أسلموا وجوههم لله رب العالمين ، قد قطعوا كل علاقتهم بالدنيا وراحوا ينعمون بمناجاة بهم الواحد القهار . فلما أقبل أبو جهل ورفاقه أخذهم ذلك الخشوع الذى ران على المصلين الواقفين بين يدى إلـٰه لا يرونه ، فاختفوا خلف صخرة ينظرون وقد صوبت عيونهم إلى سليل بنى هاشم وقد أم أصحابه فاستشعر أبو جهل حسدا أسدل حجبا على بصره وبصيرته فلم ير عياش بن أبى ربيعة بين المصلين ، ولم ير الأنوار التى غمرت المكان وفاضت من القلوب . كل ما رآه أن على بعد خطوات منه جماعة شقت عصا الطاعة وعبدت إلـٰها

غير ما يعبدون ، فوجب عليه تأديبهم . ولكنه رأى أن ما معه من رجال أهون من أن يقضوا على هؤلاء الصابئين ، فوقف ينظر وهو يتميز غيظا يكاد صدره أن يتمزق .

وقضيت الصلاة وانطلق سعد بن أبى وقاص وبعض أصحابه لقضاء حاجة فمروا بأبى جهل وصحبه ، فراح أبو جهل يسخر بمحمد وبما جاء به وبمن اتبعه ، فمشى الرجال إلى الرجال وتشابكوا بالأيدى وراحوا يتقارعون بالألسن . المسلمون يمجدون ربهم فى إيمانهم والمشركون يذكرون هبل واللات والعزى ومناة وما يخطر على قلوبهم من أسماء آلهتهم ، فكانت قلوب المسلمين على قلب رجل واحد تتجه إلى رب واحد . بينما كانت قلوب المشركين شتى تتعصب لآلهة متعددة لا ترتفع إلى أكثر من حجارة منحوتة و أخشاب محفورة أو منقورة أو معادن مصنوعة ، ما أيسر أن تكبها على وجوهها يد إنسان .

وامتدت الأيدى إلى الحجارة فما كانت السيوف فى مناطق الرجال ، وتناول سعد بن أبى وقاص عظم بعير فضرب به وجه رجل من رجال أبى جهل فشجه ، فسالت أول دماء بين المسلمين والمشركين . كانت دماء يسيرة ولكنها كانت إيذانا بإراقة دماء تروى أرض العرب فى الصراع المرير الذى سينشب بين الحق والباطل ، حتى يتم نور الله .

واشتد الصراع ضراوة وأصيب سعد بن أبى وقاص بشج أذنه وارتفعت أصوات المتلاحمين ، فخشى أبو جهل أن يبلغ الصوت محمدا وصحبه فيخفوا لنجدة إخوانهم ، فانسل والذين معه من المكان وقد غرس فى قلب طاغية قريش كراهية محمد وأصحابه ، فإن كان ينقلب إلى أهله اليوم والغيظ ينهش صدره فسيعمل على استئصال البدعة التى جاءهم

بها ابن أبى كبشة ، فلم ينس القرشيون أن أبا كبشة جد محمد — ﷺ — من ناحية أمه قد ابتدع لقومه عبادة الشعرى دون سائر الكواكب والنجوم !

وعاد سعد ورفاقه إلى النبى — ﷺ — والدم يسيل من أذنه ، فضمد محمد — عليه السلام — له جرحه وقال له :

— فى سبيل الله دمك يا سعد .

٢١

خرجت قريش كلها لاستقبال القافلة العائدة من اليمن ، وانطلق أشراف قريش لاستقبال أبي سفيان فهو سيد بنى أمية ، وقد تزوج فى بيوت شرف قريش والقبائل فربط الأسباب بينه وبين ذوى الجاه فى العشائر ، فأمه صفية بنت حزن بن بجير من بنى عامر بن صعصعة ، فكان بنو عامر أخواله ، وهى عمة ميمونة وأم الفضل بنت الحارث زوجة العباس بن عبد المطلب ، وقد تزوج صفية بنت أبي العاص بن أمية فكان له منها حنظلة ورملة وأميمة ، وتزوج زينب بنت نوفل فكان له منها يزيد بن أبي سفيان ، وتزوج عاملة بنت أبي أزيهر من الأزد فكان له منها عنبسة ثم محمد ، وتزوج صفية بنت أبي عمرو بن أمية بن عبد شمس وكان له منها عمرو وهند وصخرة ، وتزوج لبانة بنت أبي العاص بن أمية ، وتزوج هند بنت عتبة بن ربيعة بن عبد شمس فكان له منها معاوية وجويرية وأم الحكم وعتبة .

جمع أبو سفيان بين الأختين وتزوج فى قريش وفى اليمن لأن هذه كانت سنة قومه ، وليجمع حوله الأصهار والأنسباء من ذوى الجاه والسلطان ممن يهبون لنصرته إذا تحزبت الأمور واحتاج إلى أعوان .

وتعانق الرجال الذين أشرقت وجوههم بالبشر للقاء بعد طول الغياب ، وهرع الأبناء ليلقوا بأنفسهم فى أحضان الآباء . ونظرت النسوة من الشرفات والقلوب تخفق بين الجوانح والدموع تترقرق فى

العيون والعواطف الجياشه تمور فى الصدور ، فاليوم من أيام مكة النابضة بأحر المشاعر وأغنى الإحساسات .

وانطلق أبو سفيان إلى داره ومن حوله أولاده وأصهاره حنظلة ويزيد وعنبسة وعمرو ومعاوية ، وعبيد الله بن جحش زوج ابنته أم حبيبة ، وحويطب بن عبد العزى زوج أميمة ، والحارث بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب زوج هند ، وسعد بن الأخنث بن شريق الثقفى زوج صخرة وكان يبغض قريشا ، وأبو مُرة بن عروة بن مسعود ؛ وفتحت أبواب دار أبى سفيان لاستقبال الوافدين لتحية أبى حنظلة .

وجاء الناس يسلمون عليه ويسألون عن بضائعهم ، وجاء محمد — ﷺ — ودخل على أبى سفيان وهند بنت عتبة عنده تلاعب صبيانها فسلم عليه وسأله عن سفره ومقامه ولم يسأله عن بضاعته ، ثم قام — ﷺ — تعلوه المهابة والوقار فقال أبو سفيان لهند :

— والله إن هذا ليعجبنى . ما من أحد من قريش له معى بضاعة إلا وقد سألنى عنها وما سألنى هذا عن بضاعته .

فقالت له هند وهى مستمرة فى ملاعبة صبيانها :

— وأما علمت شأنه ؟

فقال أبو سفيان وهو فزع :

— ما شأنه ؟

— يزعم أنه رسول الله .

فشرد أبو سفيان وتذكر ما كان بينه وبين أمية بن أبى الصلت يوم أن خرجا معا إلى الشام ودخل أمية على عالم من علماء النصارى يسأله عن أشياء فقد كان يطمع فى أن يكون النبى المرتقب ، ورن فى وجدانه ما كان

بينهما من حوار :

ـــ حدثنى عن عتبة بن ربيعة ، أيجتنب المظالم والمحارم ؟

ـــ إى والله .

ـــ ويصل الرحم ويأمر بصلتها .

ـــ إى والله .

ـــ وكريم الطرفين وسط فى العشيرة ؟

ـــ نعم !

ـــ فهل تعلم قرشيا أشرف منه ؟

ـــ لا والله لا أعلم .

ـــ أمحوج هو ؟

ـــ لا . بل هو ذو مال كثير .

ـــ وكم أتى عليه من السن ؟

ـــ قد زاد على المائة .

ـــ فالشرف والسن والمال أزرين به ؟

ـــ كلا والله ما أزرى به ذلك ، وأنت قائل شيئا فقله .

ـــ لا . تذكر حديثى يأتى منه ما هو آت .. فإن الذى رأيت أصابنى أنى جئت هذا العالم فسألته عن أشياء ، ثم قلت أخبرنى عن هذا النبى الذى ينتظر . قال : هو رجل من العرب . قلت : قد علمت أنه من العرب فمن أى العرب هو ؟ قال : من أهل بيت يحجه العرب . قلت : وفينا بيت تحجه العرب ! قال : هو من إخوانكم من قريش . فأصابنى والله شىء ما أصابنى مثله قط ، وخرج من يدى فوز الدنيا والآخرة ، وكنت أرجو أن أكون إياه . قلت : فإذا كان ما كان فصفه لى . قال : رجل شاب حين

دخل فى الكهولة . بدوٌّ أمره يجتنب المظالم والمحارم ويصل الرحم ويأمر بصلتها ، وهو محوج كريم الطرفين متوسط فى العشيرة ، أكثر جنده من الملائكة .

فرجف أبو سفيان حتى قالت له هند :

— ما لك ؟

فانتبه فقال :

— إن هذا لهو الباطل ، لهو أعقل من أن يقول هذا .

— بلى والله إنه ليقولن ذلك ويدعو إليه ، وإن له لصحابة على دينه .

— هذا هو الباطل .

وخرج أبو سفيان ، فبينا هو يطوف بالبيت إذ به قد لقي الرسول عليه السلام فقال له :

— إن بضاعتك قد بلغت كذا وكذا فأرسل من يأخذها ولست آخذ منك فيها ما آخذ من قومي . كان فيها خير .

فأبى رسول الله إلا أن يأخذ منه أبو سفيان ما يأخذه من قومه وقال :

— إذن لا آخذها .

— فأرسل فخذها وأنا آخذ منك ما آخذ من قومي .

فأرسل رسول الله — صلى الله عليه وسلم — إلى بضاعته فأخذها ، وأخذ منه أبو سفيان ما كان يأخذه من غيره .

ولم ينشب أن أخرج إلى اليمن ثم قدم الطائف فنزل على أمية بن أبى الصلت ، قال أمية :

— يا أبا سفيان ما تشاء ، هل تذكر قول النصرانى ؟

— أذكره وقد كان .

— ومن ؟.

— محمد بن عبد الله .

فقال أمية فى انفعال :

— ابن عبد المطلب ؟

— ابن عبد المطلب . قالت لى هند : يزعم أنه رسول الله .

وأحس أمية كأن خنجرا يغوص فى قلبه ويمزق أحشاءه ، فقد عاش سنين طويلة وهو يحلم بأن يكون النبى المنتظر . ويا طالما جلس إلى نساء ثقيف يحدثهن حديث الدين ويقول فى زهو إنه المرتقب والموعود ومن بشرت به الأنبياء . وقد نزل به هم ثقيل لما قال له عالم النصارى إن الموعود من قريش وإنه فى الأربعين . فخرجت النبوة من يده فهو ليس من قريش وقد فات تلك السن بأعوام كثيرة . فلما تلفت فى قريش لم يجد فيها غير عتبة بن ربيعة إلا أن المال والسن والشرف أزرين به . وما خطر له على قلب أبو القاسم فهو فى عزلة عن نوادى قومه وساحات الشعراء ، وقد حسب أنه استكان إلى الدعة التى وفرتها له الطاهرة وسيدة نساء قريش .

كان حزنه عميقا لما وصف له النصرانى نبى الأميين ، وقد اعتكف بعد عودته من تلك الرحلة وكره الدنيا والناس . أفيستمر فى زعمه بأنه ينتظر أوامر ربه ليبلغ رسالته أم يطبق شفتيه ويلتزم الصمت حتى ينسى أهل الطائف ما سرى بينهم من وهم كان هو مصدره ؟

تبخرت آمال سنين عقب مقابلة ذلك النصرانى ، وهانت فى عينيه مسوح الرهبان التى كان يرتديها ، وفترت حماسته وهو ينظر فى كتب الدين فقد كان يتعبد لغاية . فلما تصدع يقينه واهتز إيمانه باصطفاء الله إياه استشعر هوان أمره ، وتمنى من أعماقه لو أن الناس غضوا أبصارهم عنه

وتركوه فى زوايا النسيان يمضغ آلامه وحده .

إنه عانى أعمق الأسى لما قيل له إنه ليس المنتظر . أما وقد بعث الله رسوله فهو يستشعر بنفسه تذهب شعاعا وكأنما لم يعد له وجود ، وأحس استحياء من نساء قريش وإن لم يلق منهن أحدا أنه كان يحدثهن أنه هو .

وقال فى صوت خافت كأنما يأتى من قرار سحيق :

ـــ فالله يعلم ؟

وأخذ يتصبب عرقا ثم قال :

ـــ والله يا أبا سفيان لعله . إن صفته لهى ، ولئن ظهر وأنا حى لأطلبن من الله فى نصره عذرا .

ترى أَوَيصدق وعده ويتبع أمية بن أبى الصلت من كان يطمع فى النبوة محمدا رسول الله ـــ ﷺ ـــ ، وقد استبان له الرشاد ؟

ومضى أبو سفيان إلى اليمن وكان فى القافلة العباس بن عبد المطلب ، وراحت الأيام تمضى فى هدوء أشبه بذلك الهدوء الذى يسبق العاصفة .

٢٢

دبت الحياة فى بيت خديجة ، فأم أيمن تغدو وتروح فى الدار وقد لاح على وجهها الاهتمام ، ووقفت فاطمة الزهراء عند مدخل غرفة نوم أمها الحبيبة ، بينا كانت زينب والقابلة عند فراش الطاهرة ينتظران أن تضع ما فى بطنها .

وجلس محمد ـ ﷺ ـ حيث اعتاد أن يجلس أهل البيت ، وعلى مقربة منه على بن أبى طالب وهند بن أبى هالة وزيد بن حارثة وقد لزموا الصمت وإن أرهفت حواسهم وامتدت آذانهم إلى حجرة سيدة نساء قريش .

وخفت الرجل بعد أن هرعت أم أيمن إلى سيدتها ، ولف الدار سكون وعلا الوجوه ترقب وانتظار ، وإذا بصوت وليد يجلجل فى المكان فتنتشى النفوس وتنزل طمأنينة بالقلوب وتنبسط الأسارير ، وإن كان فى الضمائر تشوف إلى نوع المولود .

وجاءت أم أيمن تسبقها فاطمة وعلى وجهيهما البشرى ، وقبل أن تصلا إلى حيث كان رب الدار سبقتهما إليه أصواتهما النابضة بالفرح :

ـ ولد .. ولد .

وانفرجت ابتسامة رضا عن أسنان رسول الله ـ ﷺ ـ المفلجة ، وحمد الله على ما آتاه ، وغمر الدار فرح فياض . وزاد فى غبطة رسول الله ـ عليه السلام ـ أن رأى تهلل الاستبشار على وجوه على وفاطمة وهند

وزيد وأم أيمن ، فقد كانت المشاعر النبيلة تهزه حتى لتكاد تبلل أهداب عينيه .

وقام ليدخل على زوجه التي واسته وشدت أزره ووقفت إلى جواره على الدوام ، فمشى يتقلع كأنما ينحط من صبب ذريع الخطوة سائل الأطراف تعلوه مهابة . فقد غض طرفه ليخفى الفرح الذى يترقرق فى مقلتيه .

وتقدم من فراش خديجة فتوجت شفتيه ابتسامة رقيقة ما إن رأتها زوجه حتى تبددت كل أوصابها واستشعرت كأن رحمة من ربها فاضت عليها ، فإذا بكل مشاعرها تسجد لله شكرا وإذا بروحها تؤدى فى لحظة أعمق صلاة .

ومدت زينب يديها ورفعت الوليد فى رقة فقدمته إلى أبيها ، فأخذه رسول الله — عليه السلام — على كفّى الحنان فدفقت من كنوز قلبه مشاعر نابضة بأجمل ما فى النفس البشرية من إحساسات الحب والرأفة والرحمة والإشفاق .

ورنت خديجة إلى زوجها وفلذة كبدها بين يديه وهو يميل عليه ليضع قبلة على جبينه فأحست كأن فؤادها يلثم الوجود جميعه ، وكأن كل أفراح الأرض والسماء تنسكب فى وجدانها وتغمر عواطفها ، فلا تجد لها منفسا إلا أن تترقرق فى مآقيها الدموع كأنها من رحمة الرحمة وعين الرأفة وذات الرقة والإشراق . كانت ترجو أن يكون لها ولد من الرجل العظيم الذى اصطفاه رب العالمين لتبليغ رسالته ، فهو شرف لا يدانيه شرف فى الدنيا أن يكون لها ولد من خاتم الأنبياء . وكانت تقدر النعمة التى خصها الله بها من فيض كرمه فلم تجد للتعبير عن شكرها العميق لما أعطاها الله غير

الإنفاق فى سبيل الله ، فأمرت بنحر النحائر وتوزيعها على فقراء مكة ابتغاء مرضاة الله .

وذاع فى مكة أن الطاهرة وسيدة نساء قريش أنجبت لأبى القاسم ذكرا وأنه سماه عبد الله ، فهرع المسلمون مستبشرين فرحين إلى دار النبى — ﷺ — مهنئين بأن منَّ الله عليه بمن يرث الأمجاد . ولما خرج أبو القاسم عليهم به خفقت قلوبهم بالحب وهم يمدون أعينهم إلى بضعة من الرسول — عليه السلام — . ولما كان عبد الله قد ولد بعد اصطفاء الله لأبيه — ﷺ — ولم يشهد من أمر الجاهلية شيئا ، فقد لقبه المسلمون بالطيب والطاهر ، ولا غرو فقد ولد فى نور الإسلام .

وتعلق قلب خديجة بالوليد فأبت أن تدفع به إلى المرضعات فى اليوم الثامن من مولده كما كانت عادة سادات قريش ، وأقنعت نفسها بأنه لن يجد فى قبائل البادية من هو أفصح من رسول الله — ﷺ — ولا من هو فى مثل علم على بن أبى طالب ربيب ربيب السماء . كانت دارها منارة للدين الجديد وإنه لخير لعبد الله أن يشب فى منبع الحكمة والنور .

وكان على وفاطمة يداعبان عبد الله وخديجة ترنو إليهما متفرحة وسرعان ما يشرد خيالها فتذكر ما قال زوجها الحبيب ليلة مولد ابن أبى طالب : « لقد ولد لنا الليلة مولود يفتح الله علينا به أبوابا كثيرة من النعمة والرحمة » . ففى تلك الليلة كشف عن بصر محمد — ﷺ — فشاهد أنوارا وهو يتبتل فى غار حراء ، وكان رسول الله — ﷺ — يتيمن بتلك السنة ويسميها سنة الخير وسنة البركة .

كان على فى حجر ابن عمه ولد على الفطرة وقبل أن يفسد أبواه تلك الفطرة بتلقينه عادات قومه ومعتقداتهم ، أكرمه الله بأن دفع به إلى دار

الندوة ليتولى أبو القاسم تربيته فيعصمه من مساوئ الجاهلية ، فإن كان الله قد كرم وجه على وقد ولد قبل الرسالة بعشر سنين فعبد الله قد ولد بعد المبعث ولا كان كافرا طرفة عين .

كانت خديجة سعيدة بعلى ، سعيدة بفاطمة ، سعيدة بنور النبوة التى أشرقت فى دارها . وبلغت سعادتها ذروتها لما أنجبت لرسول الله — ﷺ — عبد الله . فغبطتها قد فاقت ذلك السرور الذى غشيها لما جاءت بالقاسم ، فالقاسم كان ابن الرجل النبيل الذى تطمع خديجة فى أن يكون هو النبى المرتقب . أما عبد الله فهو وريث مجد رسول الله من اصطفاه ربه ليبلغ الناس رسالته . وهو مجد ليس دونه منتهى ولا وراءه مرمى .

وراحت خديجة تحتضن ابنها وقد جاشت عواطف الأمومة فيها حتى كادت تفتنها عن جليل رسالتها . فهى لم تخلق لتكون حاضنة لوليد حتى لو كان ولد رسول الله — ﷺ — ، بل خلقت لتكون حاضنة أعظم رسالة حملها بشر ، لتكون أمّا للمؤمنين جميعا فى مشارق الأرض ومغاربها ، أمّا يفيض حنانها وعطفها وشذى ذكراها العطرة على أبناء ذلك الدين القويم الذى بزغ نوره أول ما بزغ من دارها على مر السنين والأجيال والقرون . وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

كان الإسلام لا يزال سرا فى صدور المؤمنين به ، فإن كان الله قد أمر رسوله بأن يقوم وينذر ويكبر ربه فقد كان يدعو صحابته ومن يثق بهم . وكان أبو بكر يدعو سرا فى ناحية وعثمان يدعو سرا فى ناحية وسعد والزبير وطلحة وعبد الرحمن بن عوف وأبو عبيدة بن الجراح وكل من أشرق قلبه بنور اليقين يدعون إلى الدين الجديد همسا ، فما استعلن أمر الإسلام بعد ،

وهو فى حاجة إلى جهود مضنية وصبر طويل وكفاح مرير حتى يتم الله نوره ، وهو أحوج ما يكون إلى إيمان خديجة ونصرتها وصمودها كالطود إلى جانب الرسول — عليه السلام — ، لا تزعزعها عواصف الشرك ولا تنال من عزيمتها أسلحة الاضطهاد ولا يشغلها عن تأييد دين الله مشاغل من ولد ودنيا ، فقد ارتضت أن تكون لله ومن كان لله لا يشغل عنه بما سواه .

ومرت الأيام ومحمد — ﷺ — يقابل الراغبين فى الدين الجديد فى داره أو فى شعاب الجبال بعيدا عن عيون سادات مكة وأشرافها . يعرض عليهم الإسلام أو يفقههم فيه ثم يعود إلى خديجة يقص عليها ما كان فى يومه ، وهى تصغى إليه فى فرح واستبشار . ثم تدفع إليه بابنه عبد الله فيأخذه ويقبله ويداعبه فيستشعر كأن أوصاب اليوم قد تبخرت وأن عواطف رقيقة حانية تتفجر من فؤاده فتغمره بسعادة واستبشار .

كان يحب زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة وكان يفيض عليهن من فيض قلبه الكبير . وقد حزن على موت القاسم ، فلما منَّ الله عليه بعبد الله وجد فيه عوضا عن أخيه فتعلق به وأحبه . وكان يحس غبطة لما يسمع أصحابه يكنون الصغير بالطيب والطاهر . وقد شكر الله بلسانه وفؤاده وكل جوارحه أن جاء عبد الله بعد أن اصطفاه ربه لرسالته ، فسيشب فى وهج الأنوار .

وذات يوم هرعت إليه خديجة وفى وجهها هلع وقالت له إن عبد الله مريض ، فخف إلى حيث كان ابنه فى أحضان أم أيمن ونظر فى وجهه فألفاه ذابلا وقد ضاق صدره وكأنه يتنفس من ثقب إبرة ، فأحس أبو القاسم أسى يطوف به ، وتحركت رقته فمد يديه وتناول ابنه وضمه إلى صدر

الحنان ، فاستشعر بالطيب ينتفض فى حضنة فترقرق الدمع فى عينيه . ورأت خديجة العبرات بين أهدابه الطويلة . فاشتد وجيب قلبها وانتشرت رهبة بين ضلوعها ونزل حزن ثقيل . فقد فطنت إلى أن عبد الله يموت .

أيمضى عبد الله هكذا سريعا بعد أن ملأ الدار حياة وأملا ؟ أتموت أمانيها المشرقة المجنحة العريضة التى داعبتها كلما مدت عينيها إلى ابن رسول الله — ﷺ — ؟ كانت ترى فيه وريث النفحة الإلـٰهية والشرف الذى لا يسمو إليه شرف . وما اتضحت لها فى ذاك الوقت حقيقة أن ما جاء به محمد عليه السلام ليس ميراث فرد من البشر أو جماعة من الناس ، بل ميراث البشرية جمعاء .

إنها تقرأ فى وجه زوجها هول الفاجعة وتستشعر من الأسى الذى غمره قمة المأساة فترتجف من الرأس إلى القدم ، فعبد الله يجود بأنفاسه ويدب الفناء فيه ليودع الدنيا .

واحَر قلباه ! واكَرباه ! ذهب عبد الله ولن يئوب ، وسيقبر كما قبر أخ له من قبل مخلفا فى القلب حسرات . إنها حزنت على فقد القاسم ولكن حزنها على فقد عبد الله يفوق كل ما مر بها من أحزان ، فالأمل فى أن تنجب لأبى القاسم ولد بعد القاسم كان كبيرا ، أما اليوم فلا أمل فى الإنجاب . ووقعت عيناها على زوجها الواله الحزين وهو يسجى ابنه الحبيب فى فراشه والدموع تسيل على خديه وتبلل لحيته ، فلم تستطع احتمال لوعة النفس فأجهشت بالبكاء . وارتفع صوت أم أيمن بالنحيب ، وجاء على وفاطمة وقد فطنا إلى أن الموت قد اختطف الطيب فخنقتهما العبرات . وراحت خديجة تذرف الدمع الهتون ولقيت من مصيبتها نصبا ، فذهب إليها رسول الله — ﷺ — يواسيها ويمسح بحنانه عن فؤادها الأحزان ، وإن كان فؤاده يكاد ينفطر على الطاهر الحبيب .

٢٣

راح محمد — ﷺ — يدعو الناس إلى الإسلام سرا وجهرا ، فاستجاب لله تعالى من شاء من أحداث الرجال وضعفاء الناس حتى كثر من آمن بالله ، وكفار قريش غير منكرين لما يقول . ودخل دار الأرقم بن أبى الأرقم وكانت على الصفا تطل على الحرم ودار الندوة وتكشف حركات سادات قريش وكل ما يجرى فى الكعبة .

وفى دار الأرقم كان المسلمون يصلون ويتفقهون فى أمر الدين ، وكان الراغبون فى الإسلام يفدون إلى رسول الله — ﷺ — يلقون إليه أسماعهم فتنشرح صدورهم للدين الجديد ، وما كان كفار قريش يفعلون أكثر من السخرية من ذلك الذى يأتيه خبر السماء فما كانوا يقدرون خطر دعوته .

كانت العبادات تمارس فى حرية فى أول بيت وضع للناس ، فكانت اليهودية والنصرانية والمجوسية والوثنية والحنيفية والصابئة تعيش فى ظل الكعبة جنبا إلى جنب ما دام أصحاب تلك الديانات لا يعيبون دين قريش . وما كان أكابر القوم يرون فى دعوة ابن عبد الله ما يثير غضبهم فقد حسبوها فى أول الأمر دعوة من دعوات التوحيد الهادئة التى كانت تظهر بين الحنفاء بين الحين والحين .

وأوحى الله إلى عبده : ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين * واخفض

جناحك لمن اتبعك من المؤمنين ﴾(١) . فاشتد ذلك على النبى — ﷺ — فمكث شهرا جالسا فى بيته يفكر فى أمر الله وخديجة تشد أزره وتهون عليه الأمر ، وهو يستشعر عجزه عن احتمال الوقوف فى وجه بنى هاشم وبنى عبد المطلب وبنى عبد شمس وبنى نوفل الثائرين الغاضبين .

وظنت عماته أنه مريض فدخلن عليه عائدات ، فقال — ﷺ — :

— ما اشتكيت شيئا ولكن الله أمرنى بقوله : وأنذر عشيرتك الأقربين . فأريد أن أجمع بنى عبد المطلب لأدعوهم إلى الله تعالى .

— فادعهم ولا تجعل عبد العزى (أبا لهب) فيهم فإنه غير مجيبك إلى ما تدعوه إليه .

وراح محمد — ﷺ — يفكر فيما أمره به ربه . إنه أوحى إليه : ﴿ فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين ﴾(٢) . وقد نصحه عماته ألا يدعو عمه أبا لهب ولكنه لا يستطيع أن يستجيب لتلك النصيحة ، فعمه من عشيرته الأقربين . وما كان لرسول أن يعصى أوامر ربه وإن كان على يقين أن أبا لهب سيسمعه ما يكره ، بل قد تكون دعوته إلى الإسلام من أسباب تنغيص حياة ابنتيه الحبيبتين رقية وأم كلثوم ، فقد زوج ابنتيه لابنى عمه عتبة ومعتب وهما ألعوبة فى يد أمهما أم جميل بنت حرب التى تنهش الغيرة قلبها إذا ما أصاب غيرها خير .

وأصبح الصباح فبعث رسول الله — ﷺ — إلى بنى عبد المطلب فحضروا وكان فيهم أبو لهب وقد ظن أنه ما جمعهم إلا لأنه يريد أن ينزع عما يكرهون إلى ما يحبون ، فقال له :

---

(١) الشعراء ٢١٤ — ٢١٥ (٢) الحجر ٩٤

ـــ هؤلاء عمومتك وبنو عمومتك فتكلم بما تريد ، واترك الصبأة واعلم أنه ليس لقومك بالعرب طاقة ، وإن أحق من أخذك وحبسك أسرتك وبنو أبيك . إن أقمت على أمرك فهو أيسر عليك من أن تثب عليك بطون قريش وتمدها العرب ، فما رأيت يا بن أخى أحدا قط جاء بنى أبيه وقومه بشر مما جئتهم به .

ودار حوار شديد بين عبد المطلب وبين رسول الله ـــ ﷺ ـــ انتهى بأن انسحب الموجودون دون أن يستجيب أحد منهم إلى دعوة محمد ـــ ﷺ ـــ ، ومرت أيام ونزل عليه جبريل وأمره بإمضاء أمر الله تعالى فجمعهم رسول الله ـــ ﷺ ـــ ثانيا وخطبهم ثم قال لهم :

ـــ إن الرائد لا يكذب أهله . والله لو كذبت الناس جميعا ما كذبتكم ، ولو غررت الناس جميعا ما غررتكم . والله الذى لا إلـه إلا هو إنى لرسول الله إليكم خاصة ، وإلى الناس كافة . والله لتموتن كما تنامون ، ولتبعثن كما تستيقظون ، ولتحاسبن بما تعملون ، ولتجزون بالإحسان إحسانا وبالسوء سوءا ، وإنها لجنة أبدا أو لنار أبدا . والله يا بنى عبد المطلب ما أعلم شابا جاء قومه بأفضل مما جئتكم به . إنى قد جئتكم بأمر الدنيا والآخرة .

فتكلم القوم كلاما لينا غير أبى لهب فإنه قال :

ـــ يا بنى عبد المطلب هذه والله السوءة ، خذوا على يديه قبل أن يأخذ على يديه غيركم فإن أسلمتموه حينئذ ذللتم وإن منعتموه قتلتم .

فقالت له أخته صفية :

ـــ أى أخى أيحسن بك خذلان ابن أخيك ؟ فوالله ما زال العلماء يخبرون أنه يخرج من ضئضىء (أصل) عبد المطلب نبى فهو هو .

قال أبو لهب فى ضيق :

ــ هذا والله الباطل والأمانى وكلام النساء فى الحجال ، إذا قامت بطون قريش وقامت معها العرب فما قوتنا بهم ؟ فوالله ما نحن عندهم إلا أكلة رأس .

فقال أبو طالب :

ــ والله لنمنعنه ما بقينا .

وأحس محمد ــ ﷺ ــ صدق تأييد أبى طالب ، فذهب إلى داره واجتمع هناك ببنى عبد المطلب فقال لهم :

ــ يا بنى عبد المطلب إن الله قد بعثنى إلى الخلق كافة وبعثنى إليكم خاصة ، فقال : وأنذر عشيرتك الأقربين . وأنا أدعوكم إلى كلمتين خفيفتين على اللسان ثقيلتين فى الميزان : شهادة أن الله لا إلٰه إلا هو ، وأنى رسول الله . فمن يجيبنى إلى هذا الأمر ويؤازرنى على القيام به ؟

فصمت القوم فقام على فقال :

ــ أنا يا رسول الله .

ــ اجلس . فمن يجيبنى إلى هذا الأمر ويؤازرنى على القيام به ؟

فصمت القوم فقام على فقال :

ــ أنا يا رسول الله .

ــ اجلس .

ثم أعاد القول على القوم ثالثا فلم يجبه أحد منهم ، فقام على فقال :

ــ أنا يا رسول الله .

ــ اجلس ، فأنت أخى ووزيرى .

وعزم محمد ــ عليه السلام ــ على أن يدعو قريشا فقام على الصفا

وقال :

ـــ يا معشر قريش .

فقالت قريش :

ـــ محمد على الصفا يهتف .

فأقبلوا واجتمعوا فقالوا :

ـــ ما لك يا محمد ؟

ـــ أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلا بسفح هذا الجبل أكنتم تصدقوننى ؟

ـــ نعم ، أنت عندنا غير متهم وما جربنا عليك كذبا قط .

ـــ فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد . يا بنى عبد المطلب ، يا بنى عبد مناف ، يا بنى زهرة ...

حتى عدد الأفخاذ من قريش .

ـــ إن الله أمرنى أن أنذر عشيرتى الأقربين ، وإنى لا أملك لكم من الدنيا منفعة ولا من الآخرة نصيبا إلا أن تقولوا : لا إلٰه إلا الله .

فقال أبو لهب :

ـــ تبا لك سائر اليوم .

وانصرف أبو لهب وسار معه رجل من قريش ، فقال له الرجل :

ـــ فما تفعل إن كان ما يقوله محمد حقا ؟

فقال أبو لهب فى سخرية :

ـــ إن كان ما يقوله محمد حقا افتديت منه بمالى وولدى .

وعاد أبو لهب إلى داره وراح يروى على امرأته ما كان من محمد ابن أخيه ، فراحت أم جميل تشاركه فى هزئه وسخريته ولكن ذلك لم يشف غليلها فهى حاقدة بطبعها . أنانية لا تطيق الخير لغيرها . فهى تستشعر

بالنار ترعى فى أحشائها كلما وصف قومها خديجة بالطاهرة . ولولا الخشية من أن تكشف عن خبيئة نفسها الحاسدة الخبيثة لأعلنت على الملأ سب خديجة . فلما بلغها أن محمدا لم يكتف بأن زعم أن الخبر يأتيه من السماء بل دعا قومها إلى شهادة أن لا إلـٰه إلا الله وأنه عبده ورسوله زاد حنقها على ابن عبد الله وزوجه ، فلو آمن الناس بدعوته لربا شرف سيده نساء قريش ، وأعمتها الغيرة عن أن ترى فى نبوة محمد شرف بنى هاشم بل شرف قريش كلها . وأبت أن تصيخ إلى صوت قلبها الذى حاول أن يقنعها بأن نبوءة محمد — ﷺ — شرف عظيم سيسربل ولديها معتب وعتبة زوجى ابنتى رسول الله ، فأحست رغبة طاغية فى أن تحطم الدعوة الجديدة وما تأتى به من أمجاد لغريمتها التى صارت هدفا لغل نفسها .

وانسلت من الدار لتدور على دور قريش تسب محمدا عليه السلام وتنال من خديجة لتشفى مرض قلبها وتحرض الناس على من جعل الآلهة إلـٰها واحدا وزعم أنه يُكلَّم من السماء ، فطفقت تنفث سمومها وتزين للناس مقاومة الدعوة التى فرقت بين الأخ وأخيه ، والمرء وأبيه ، والرجل وصاحبته التى تؤويه . وبعد أن طافت بالدور وفيما هى فى طريق عودتها إلى دارها راحت تجمع الحطب . فلم تنس بخلها الذى جبلت عليه وهى تشن حربها الشعواء على محمد — عليه السلام — وزوجه ، فهى كأخيها أبى سفيان شحيحة وكان البخل أبرز صفاتهما .

وأوحى الله إلى محمد — ﷺ — ﴿ تبت يدا أبى لهب وتب * ما أغنى عنه ماله وما كسب * سيصلى نارا ذات لهب * وامرأته حمالة الحطب * فى جيدها حبل من مسد ﴾[1] . فأرسل لمن كان عنده من كتاب الوحى

(١) المسد ١ — ٥

ليكتب ما أنزل عليه. ولما انتهى شرد يفكر فى ذلك الهجاء الشديد لعمه وامرأته فتبين أن قد انفصمت كل الصلات الطيبة بينه وبينهما .

كانت رقية وأم كلثوم فى كنف ابنى عمهما وقد تيقن بعد نزول الوحى بسورة المسد أن لم يعد لبنتيه الحبيبتين مكان فى دار أبى لهب ، فلو كان الأمر بيده ما هجا عمه ولا امرأته وما عكر صفو رقية وأم كلثوم ، ولكن الله هجاهما وقد أمره الروح الأمين بأن يصدع بما يؤمر فراح يقرأ على المسلمين ما أنزل عليه .

وذاعت سورة المسد فى مكة ومشى بعض الناس بها إلى أبى لهب وأم جميل ، فاربد وجه أبى لهب واستبد به الحنق والغضب فبعث فى طلب عتبة ومعتب وقال لهما إن محمدا قد سبه وسب أم جميل ، ثم التفت إلى عتبة وقال :

— رأسى ورأسك حرام إن لم تفارق ابنة محمد .

فقال معتب فى غضب :

— لآتين محمدا فلأوذينه فى ربه .

وانطلق معتب إلى محمد عليه السلام وكان عند أبى طالب . فأتاه وسب إلٰهه ثم بصق فى وجهه ورد عليه ابنته وطلقها . فقال محمد — ﷺ — :

— اللهم ابعث عليه كلبا من كلابك .

فوجم لها أبو طالب وقال :

— ما كان أغناك يا بن أخى عن هذه الدعوة .

وخرج محمد عليه السلام إلى الحرم والتقى بأبى بكر فراحا يتحاوران ، وفيما هما فى حديثهما إذ أقبلت أم جميل وفى يدها حجر وقد أعماها

الغضب ، فلما رآها أبو بكر قال :

ـ يا رسول الله إنها امرأة بذية فلو قمت فوالله لتؤذينك .

ـ إنها لن ترانى .

فجاءت فقالت :

ـ يا أبا بكر ، صاحبك هجانى .

ـ لا ورب هذا البيت ما هجاك .

وكان أبو بكر يقول صدقا ، فما هجاها رسول الله بل ما هجاها إلا الله .

ـ أنشد فىَّ شعرا .

ـ والله ما صاحبى بشاعر وما يدرى ما الشعر .

ـ والثواقب إنه لشاعر وإنى لشاعرة .

مذمما أبينـــــــا ودينـــه قلينـــــا

وأمره عصينا

ولم يغضب أبو بكر فقد صرف الله عن رسوله شتم قريش ولعنهم ، يشتمون مذمما ويلعنون مذمما وهو محمد .

ثم ولت أم جميل ذاهبة فالتفت أبو بكر إلى الرسول ـ ﷺ ـ ، فلما قرأ فى وجه أبى بكر التساؤل قال :

ـ جعل بينى وبينها حجاب .

ومر رسول الله ـ ﷺ ـ على قومه وهم يسجدون للأصنام فقال :

ـ يا معشر قريش والله لقد خالفتم ملة أبيكم إبراهيم .

وعرفوا أنه يعيرهم بعبادة الأصنام ، فيا طالما قال لهم إنها حجارة لا تملك لنفسها نفعا ولا ضرا فقالوا :

— إنما نعبد الأصنام حبا لتقربنا إلى الله .

وانصرف رسول الله — ﷺ — إلى داره فهرع إليه أصحابه ليتفقهوا فى دينهم ، وجاءت قريش إلى حصين وكانت تعظمه فقالوا له :

— كلم لنا هذا الرجل فإنه يذكر آلهتنا ويسبها .

فجاءوا معه حتى جلسوا قريبا من باب النبى — ﷺ — ، ودخل حصين وابنه عمران مع رسول الله — عليه السلام — ، فلما رآه النبى قال :

— أوسعوا للشيخ .

فجلس حصين فقال :

— ما هذا الذى بلغنا عنك أنك تشتم آلهتنا وتذكرها ؟

فقال :

— يا حصين كم تعبد من إلٰه ؟

— سبعة فى الأرض وواحد فى السماء .

— فإذا أصابك الضر لمن تدعو ؟

— الذى فى السماء .

— فإذا هلك المال من تدعو ؟

— الذى فى السماء .

— فيستجيب لك وحده وتشرك معه ؟ أرضيته فى الشرك يا حصين ؟ أسلم تسلم .

واستمر الحوار فإذا بحصين ينشرح صدره للدين الجديد فيعلن إسلامه ، فيقوم إليه ولده عمران فيقبِّل رأسه ويديه ورجليه فرحا بأن هدى الله أباه إلى الإسلام وزحزحه عن نار جهنم .

وبكى رسول الله ـ ﷺ ـ فشخصت إليه الأبصار فقال :

ـ بكيت من صنع عمران ، دخل حصين وهو كافر فلم يقم إليه عمران ولم يلتفت ناحيته ، فلما أسلم وفّى حقه فدخلني من ذلك الرأفة .

فلما أراد حصين الخروج قال رسول الله ـ ﷺ ـ لأصحابه :

ـ شيعوه إلى منزله .

فلما خرج من سدة الباب رأته قريش قالوا :

ـ قد صبأ .

وتفرقوا عنه وصدورهم تكاد تميز من الغيظ وتنفجر من الغضب .

٢٤

كان أبو سفيان والعباس بن عبد المطلب يجوبان السوق فى اليمن وإذا برسول يقدم من مكة ويقدم إلى أبى سفيان كتابا من ابنه حنظلة ، فيقرأ الكتاب فيتغير لونه ويظهر فى وجهه أثر الانفعال . فلما رأى العباس ما اعتراه قال له :

ـــ ماذا فى الكتاب يا أبا حنظلة ؟

فقال أبو سفيان وهو شارد :

ـــ إن محمداقائم فى أبطح مكة يقول : أنا رسول الله ، أدعو إلى الله .

ففشا ذلك فى مجالس أهل اليمن فجاء حبر من اليهود إلى حيث كان أبو سفيان والعباس فقال :

ـــ بلغنى أن فيكم عم هذا الرجل الذى قال ما قال .

قال العباس :

ـــ نعم .

فقال الحبر وهو يتفرس فى وجه العباس :

ـــ نشدتك الله هل كان لابن أخيك صبوة ؟

ـــ لا والله ولا كذب ولا خان ولا كان اسمه عند قريش إلا الأمين .

ـــ هل كتب بيده ؟

فأراد العباس أن يقول نعم ، فخشى من أبى سفيان أن يكذبه ويرد عليه فقال :

— لا يكتب .

فوثب الحبر وترك رداءه وقال :

— ذبحت يهود وقتلت يهود .

ورجع العباس وأبو سفيان إلى منزلهما فقال أبو سفيان :

— يا أبا الفضل إن يهود تفزع من ابن أخيك .

كان العباس على علم بأن زوجه أم الفضل على دين محمد ، وكان فى كل ما فعل هواه مع ابن أخيه فقال :

— قد رأيت لعلك أن تؤمن به .

— لا أومن به حتى أرى الخيل فى كداء .

وعجب العباس فما كانت الخيل تطلع على كداء فهو جبل وعر ، فقال ؟

— ما تقول ؟

ولم يدر أبو سفيان لم قال ذلك القول فقال :

— كلمة جاءت على فمى إلا أنى أعلم أن الله لا يترك خيلا تطلع على كداء .

ولو اخترق بصر أبى سفيان حجب الغيب لرأى خيل خالد بن الوليد تطلع على كداء يوم فتح مكة ، يوم يأخذه العباس إلى رسول الله — ﷺ — ليعلن إسلامه .

وأقبل أبو سفيان حتى نزل على أمية بن أبى الصلت بالطائف فقال :

— يا أبا عثمان قد كان من أمر الرجل ما قد بلغك وسمعته .

وصمت أمية قليلا وهو يفكر فى رسول الله — ﷺ — ، ثم قال :

— قد كان لعمرى .

— فأين أنت منه يا أبا عثمان ؟

— والله ما كنت لأومن برسول من غير ثقيف أبدا .

ورأى أبو سفيان الحيرة فى وجه أمية فقال له :

— ما يمنعك من اتباعه ؟

فقال ابن أبى الصلت وهو يطرق برأسه :

— ما يمنعنى إلا الاستحياء من نساء ثقيف . إنى كنت أحدثهن أنى هو ثم يريننى تابعا لغلام من بنى عبد مناف .

وساد الصمت بينهما برهة ، ثم قال أمية :

— كأنى بك يا أبا سفيان قد خالفته ثم قد ربطت كما يربط الجدى حتى يؤتى بك إليه فيحكم فيك بما يريد .

* * *

وكانت فى ثقيف بيت آخر قد أهمه ظهور محمد — ﷺ — ودخله من النفاسة والحسد ما أقلق أهله ، كان ذلك البيت بيت الحارث بن كلدة زوج خالة رسول الله — عليه السلام — . وكان الحنق يملأ جوانب ابن خالته النضر فهو يحسب أنه أعلم العرب طرا ما دام قد ذهب إلى الحيرة وجنديسابور وتعلم أجزاء الحكمة وأحاديث ملوك الفرس وأحاديث رستم وسفَنْديار . فلما بلغه أن ابن خالته قائم على أبطح مكة يقول : أنا رسول الله أحس بالحقد ينهش فؤاده ولم يستطع صبرا ، فشد الرحال إلى مكة ليكون على ابن خالته يهزأ به ويؤلب عليه الناس .

وشد أبو سفيان الرحال إلى مكة وهو يفكر فيما دهاها . ترى ما أمر الناس بها ؟ كان أشياخ قريش فى طريقهم إلى أبى طالب وقد أجمعوا خلاف ابن أخيه وعداوته ، فلما جاءوه قالوا :

— يا أبا طالب إن ابن أخيك قد سب آلهتنا وعاب ديننا وسفه أحلامنا وضلل آباءنا ، فإما أن تكفه عنا وإما أن تخلى بيننا وبينه ، فإنك على مثل ما نحن عليه من خلافه .

فقال لهم أبو طالب قولا رقيقا وردهم ردا جميلا ، فانصرفوا عنه . ومضى رسول الله — ﷺ — يظهر دين الله ويدعو إليه لا يرده عن ذلك شيء ، واستشرى الأمر وانتشر بينهم وبينه حتى تباعد الرجال وأضمروا له العداوة ولصحبه ، فوثب الحكم بن العاص على ابن أخيه عثمان بن عفان وراح يعذبه ، وأخذ نوفل بن العدوية أبا بكر وطلحة بن عبد الله فشدهما فى حبل واحد ولم يمنعهما بنى تيم وراح يعذب القرينين ، وكان نوفل جبارا وكان يدعي أسد قريش . وعاد عم الزبير إلى تعذيبه . وأقبل أبو سفيان إلى مكة فوجد أصحاب محمد — ﷺ — يضربون ويحقرون ، وتذكر وصف أمية للنبى المنتظر فى أثناء عودتهما من الشام : رجل شاب حين دخل فى الكهولة ، بُدُوّ أمره يجتنب المظالم والمحارم ويصل الرحم ويأمر بصلتها ، وهو محوج كريم الطرفين متوسط فى العشيرة أكثر جنده من الملائكة ، فجعل أبو سفيان يقول :

— فأين جنده من الملائكة ؟!

فدخله ما يدخل الناس من النفاسة فمشى إلى أبى طالب مع عقبة بن أبى معيط ، وشيبة وعتبة ابنى ربيعة بن عبد شمس ، وأبى البحترى العاص بن هشام ، والأسود بن المطلب بن أسد ، وأبو جهل عمرو بن هشام ، ونبيه ومنبه ابنى الحجاج بن عامر ، والعاص بن وائل ، فقالوا :

— يا أبا طالب إن لك سنا وشرفا ومنزلة فينا ، وإنا قد استنهيناك من ابن أخيك فلم تنهه عنا ، وإنا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا وتسفيه

أحلامنا وعيب آلهتنا حتى تكفه عنا أو تنازله وإياك فى ذلك حتى يهلك أحد الفريقين .

ثم انصرفوا عنه فعظم على أبى طالب فراق قومه وعداوتهم ، ولم يطب نفسا بإسلام رسول الله ـ ﷺ ـ لهم ولا خذلانه ، فبعث أبو طالب إلى رسول الله ـ ﷺ ـ فقال :

ـ يا بن أخى إن قومك قد جاءونى فقالوا لى كذا وكذا . فأبق علىّ وعلى نفسك ولا تحملنى من الأمر ما لا أطيق .

فظن رسول الله ـ ﷺ ـ أنه قد بدا لعمه فيه وأنه خاذله ومسلمه ، وإنه قد ضعف عن نصرته والقيام معه فقال له :

ـ يا عم ، والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته .

ثم استعبر رسول الله ـ ﷺ ـ وقام ، فلما ولى ناداه أبو طالب فقال :

ـ أقبل يا بن أخى .

فأقبل عليه رسول الله ـ ﷺ ـ فقال :

ـ اذهب يا بن أخى فقل ما أحببت ، فوالله لا أسلمك لشىء أبدا .

وعرفت قريش أن أبا طالب قد أبى خذلان رسول الله ـ ﷺ ـ وإسلامه ، وإجماعه لفراقهم فى ذلك وعداوتهم فمشوا إليه بعمارة بن الوليد بن المغيرة فقالوا له :

ـ يا أبا طالب هذا عمارة بن الوليد بن المغيرة أنهد فتى فى قريش وأجمله ، فخذه فلك عقله ونصره واتخذه ولدا فهو لك خير ، وأسلم لنا ابن أخيك هذا الذى قد خالف دينك ودين آبائك وفرق جماعة قومك وسفه

أحلامهم فنقتله ، فإنما هو رجل برجل .

— والله لبئس ما تسومونني ، أتعطوني ابنكم أغذوه لكم وأعطيكم ابني تقتلونه ؟ هذا والله لا يكون أبدا .

فقال له المطعم بن عدى بن نوفل بن عبد مناف :

— والله يا أبا طالب لقد أنصفك قومك وجهدوا على التخلص مما تكره ، فما أراك تريد أن تقبل منهم شيئا .

فقال له أبو طالب .

— والله ما أنصفوني ولكنك جمعت خِذلاني ومظاهرة القومَ على ، فاصنع ما بدا لك .

— فأرسل إليه فلنعطه النَّصَف .

فأرسل إليه أبو طالب ، فجاء رسول الله — ﷺ — فقال :

— يا بن أخى ، هؤلاء عمومتك وأشراف قومك وقد أرادوا ينصفونك .

فقال رسول الله — ﷺ — :

— قولوا أسمع .

— تدعنا وآلهتنا وندعك وإلـٰهك .

قال أبو طالب :

— لقد أنصفك القوم فاقبل منهم .

فقال رسول الله — ﷺ — :

— أرأيتكم إن أعطيتكم هذه هل أنتم معطيَّ كلمة ، إن أنتم تكلمتم بها ملكتم بها العرب ودانت لكم بها العجم ؟

فقال أبو جهل :

— إن هذه الكلمة مربحة ، نعم وأبيك لنقولنها وعشَر أمثالِها .

قال :

— قولوا لا إلـه إلا الله .

فاشمأزوا ونفروا منها وغضبوا ، وقال عقبة بن أبى معيط :

— واصبروا على آلهتكم إن هذا لشيء يراد .

وخرجوا من عند أبى طالب وهم يقولون :

— لا نعود إليه أبدا وما خير من أن نغتال محمدا .

فلما كان من مساء تلك الليلة جاء أبو طالب وعمومة محمد — ﷺ — إلى منزله فقد بلغهم ما عزم عليه القوم فلم يجدوه ، فجمع أبو طالب فتيانا من بنى هاشم وبنى المطلب ثم قال :

— ليأخذ كل واحد حديدة صارمة ثم ليتبعنى إذا دخلت المجلس فليجلس كل فتى منكم إلى عظيم من عظمائهم ، فيهم ابن الحنظلية (أبو جهل) فإنه لم يغب عن شر إن كان محمد قد قتل .

فقال الفتيان :

— نفعل .

فجاء زيد بن حارثة فوجد أبا طالب على تلك الحال ، فقال :

— يا زيد أرأيت ابن أخى ؟

فقال زيد :

— نعم كنت معه آنفا .

فقال أبو طالب :

— لا أدخل بيتى أبدا حتى أراه .

فخرج زيد مسرعا حتى أتى رسول الله — ﷺ — وهو فى بيت عند

الصفا ومعه أصحابه يتحدثون . فأخبره الخبر فجاء رسول الله — ﷺ — إلى أبى طالب فقال :

— يا بن أخى أين كنت ؟ أكنت فى خير ؟

— نعم .

— ادخل بيتك .

فدخل رسول الله — ﷺ — ، فلما أصبح أبو طالب غدا على النبى — ﷺ — فأخذ بيده فوقف على أندية قريش ومعه الفتيان الهاشميون والمطلبيون فقال :

— يا معشر قريش ، هل تدرون ما هممت به ؟

— لا .

فقال للفتيان :

— اكشفوا عما فى أيدكم .

فكشفوا فإذا كل رجل معه حديدة صارمة ، فقال :

— والله لو قتلتموه ما بَقيتُ منكم أحدا حتى نتفانى نحن وأنتم .

فانكسر القوم وكان أشدهم انكسارا أبو جهل .

٢٥

اجتمع المسلمون فى دار الأرقم بن أبى الأرقم يتحدثون وكانت الدار على الصفا تطل على الحرم ، وحانت التفاتة من أبى بكر فرأى قريشا فى مجالسهم فضاق بأن المشركين كانوا آمنين فى بيت الله بينما كان المسلمون يترقبون خشية من الناس . إنه على الحق وهم على الضلال فكيف يختفى النور تاركا الدنيا للظلمات ؟

وراح أبو بكر يحدث محمدا — ﷺ — ويلح على رسول الله فى الظهور ، فقال رسول الله — ﷺ — :

— يا أبا بكر إنّا قليل .

كانوا قلة حقا ولكنهم كانوا أقوياء باليقين الذى نزل بأفئدتهم . فهان القوم فى عينى أبى بكر فجعل يتحدث فى حماس وصدق يزين له الخروج إلى المسجد لإعلاء كلمة الله ، ولم يزل به حتى خرج رسول الله — ﷺ — ومن معه من أصحابه إلى المسجد .

وقام أبو بكر فى الناس خطيبا ورسول الله — ﷺ — جالس ودعا إلى الله ورسوله ، فامتلأ سادات قريش حنقا فقد ضاقوا بدعوة ابن عبد الله وكلموا أبا طالب فيه وبيتوا الغدر لمن سب آلهتهم وسفه أحلامهم ، وقبل أن ينالوا منه شيئا ، أيأتى ابن أبى قحافة ليسخر منهم على أعين الناس ؟

إنها الفتنة وإن سكتوا عليها استشرى الشر فى مكة ، فثاروا على أبى بكر وعلى المسلمين وضربوهم ضربا مبرحا ، ووُطئ أبو بكر بالأرجل وضرب

ضربا شديدا ، وصار عتبة بن ربيعة يضرب أبا بكر بنعلين مطبقتين ويحرفهما إلى وجهه بعنف حتى صار لا يعرف أنفه من وجهه ، فقد غرق فى دم غزير بعد هذه القسوة القاسية .

وطار الخبر إلى بنى تيم رهط أبى بكر فجاءوا والشر يطل من أعينهم وأصوات مزمجرة متوعدة تنطلق من أفواههم ، فأجلوا المشركين عن أبى بكر وحملوه فى ثوب إلى أن أدخلوه منزله لا يشكون فى موته ، ثم رجعوا فدخلوا المسجد فقالوا :

— والله لئن مات أبو بكر لنقتلن عتبة .

ثم رجعوا إلى أبى بكر ، وصار والده أبو قحافة وبنو تيم يكلمونه فلا يجيب ، حتى إذا كان آخر النهار تكلم وقال :

— ما فعل رسول الله — ﷺ — ؟

فراحوا يلومونه على ما فعل فعاد يقول :

— ما فعل رسول الله — ﷺ — ؟

ونظر إلى أمه فقالت :

— والله ما لى علم بصاحبك .

— اذهبى إلى أم جميل بنت الخطاب فاسأليها عنه .

وخرجت أمه إلى دار سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل ودخلت على فاطمة بنت الخطاب وقالت لها :

— إن أبا بكر يسأل عن محمد بن عبد الله .

فقالت فاطمة :

— لا أعرف محمدا ولا أبا بكر .

كانت فاطمة ترتجف خشية أن يعرف أخوها عمر بن الخطاب أمر

إسلامها فيأتى ليبطش بها ، فهو جبار لا يطيق الدعوة الجديدة ويقتفى أثر المؤمنين بها ليصب عليهم سوط عذاب ، فلما اطمأنت فاطمة إلى أم أبى بكر قالت لها :

— تريدين أن أخرج معك ؟

— نعم .

فخرجت معها إلى أن جاءت أبا بكر فوجدته صريعا فصاحت وقالت :

— إن قوما نالوا هذا منك لأهل فسق وإنى لأرجو أن ينتقم الله منهم .

فقال لها أبو بكر فى لهفة :

— ما فعل رسول الله — ﷺ — ؟

فالتفتت أم جميل ناحية أم أبى بكر وقالت :

— هذه أمك تسمع .

— فلا عين عليك منها .

— سالم .

— أين هو ؟

— فى دار الأرقم .

— والله لا أذوق طعاما ولا أشرب شرابا أو آتى رسول الله — ﷺ —

وهمّ أبو بكر بالنهوض فخفت إليه أمه وقالت :

— فأمهلنا .

وراحت أم أبى بكر تفكر فى ذلك الدين الذى يتحمل أتباعه فى سبيله كل هذا الاضطهاد فلا يزدادون إلا إيمانا وتسليما . إنها تعرف ابنها عاقلا

رشيدا وتعرف محمد بن عبد الله حق المعرفة . فهو الأمين الصادق الذى عرف بخلفه القويم . واستمرت تفكر فى الدعوة التى جاء بها فألفتها دعوة يقبلها العقل ويستريح إليها الفؤاد ، حتى إذا هدأت الرجل وسكن الناس خرجت به أمه وأم جميل بنت الخطاب يتكئ على أمه حتى دخل على رسول الله — ﷺ — ، فرق له رقة شديدة وأكب عليه يقبله وأكب عليه المسلمون يقبلونه وقد غامت أعينهم بالدمع ، فقال أبو بكر :

— بأبى وأمى أنت يا رسول الله ما بى من بأس إلا ما نال الناس من وجهى ، وهذه أمى برة بولدها فعسى الله أن ينقذها بك من النار .

فدعا لها رسول الله — ﷺ — ودعاها إلى الإسلام ، فقالت :

— أشهد أن لا إلٰه إلا الله ، وأشهد أن محمدا رسول الله .

فطفق أبو بكر يرنو إليها وليس على وجه الأرض من هو أسعد منه لإسلام أمه البارة بولدها .

ودخل إلى الحرم رسول الله — ﷺ — وبعض صحبه فيهم عبد الله ابن مسعود يمشى أمامه ، وجلس المسلمون وقام رسول الله — ﷺ — يصلى وقد نُحر جزور بين إساف ونائلة وبقى روثه فى كرشه . وكان أبو جهل وعقبة بن أبى معيط وبعض سادات قريش فى مجلسهم ، فلما رأى أبو جهل محمدا — ﷺ — يصلى — قال لمن عنده :

— أيكم يأخذ سلى الجزور فيضعه بين كتفيه إذا سجد ؟

فقام أشقى القوم عقبة بن أبى معيط وجاء بذلك الفرث فألقاه على النبى وهو ساجد . فاستضحكوا وجعل بعضهم يميل على بعض من شدة الضحك . وكان صحابة الرسول — عليه السلام — من المستضعفين فهابوا أن يلقوه عنه — ﷺ — فما كانت لهم منعة ، وإذا بفاطمة قد

أقبلت ورأت الروث بين كتفى أبيها فخفت إليه وألقته عنه ، ثم نظرت إلى أبى جهل وعقبة وأمية بن خلف والذين معهم وفوضت أمرها وأمر أبيها إلى الله ، فلما قضى رسول الله ـ ﷺ ـ الصلاة رفع يديه وقال :

ـ اللهم عليك بقريش . اللهم عليك بقريش . اللهم عليك بقريش . اللهم عليك بأبى الحكم بن هشام (أبى جهل) . وعتبة بن ربيعة ، وعقبة ابن أبى معيط ، وأمية بن خلف .

فلما سمعوا صوته ذهب عنهم الضحك وهابوا دعوته .

وأصبحت العداوة سافرة بين محمد ـ ﷺ ـ وسادات قريش الذين كانوا يرتجفون فرقا من أن تذهب الدعوة الجديدة بنفوذهم وسلطانهم ، فكانوا كلما التقوا به آذوه وسخروا منه . فلما دخل ـ ﷺ ـ يطوف بالبيت ويده فى يد أبى بكر ، كان فى الحجر ثلاثة نفر جلوس : عقبة بن أبى معيط وأبو جهل بن هشام وأمية بن خلف ، فمر رسول الله ـ ﷺ ـ فلما حاذاهم أسمعوه بعض ما يكره . وكان عثمان ابن عفان جالسا فى الحرم فعرف فى وجه النبى ـ ﷺ ـ أثر ما قالوا من فحش القول ، فقام فدنا منه حتى جعله وسطا فكان ـ ﷺ ـ بين عثمان وبين أبى بكر ، وأدخل أصابعه فى أصابع عثمان فطافوا جميعا ، فلما حاذهم قال أبو جهل :

ـ والله لا نصالحك ما بل بحر صوفة ، وأنت تنهى أن نعبد ما كان يعبد آباؤنا .

فقال رسول الله ـ ﷺ ـ :

ـ أنا ذلك .

ثم مشى عنهم فصنعوا به فى الشوط الثالث مثل ذلك ، حتى إذا كان

الشوط الرابع قاموا له ووثب أبو جهل يريد أن يأخذ بمجامع ثوبه ـ ﷺ ـ فدفع عثمان صدره فوقع على إسته ، ودفع أبو بكر أمية بن خلف ، ودفع رسول الله ـ ﷺ ـ عقبة بن أبي معيط ، ثم انفرجوا عن رسول الله ـ ﷺ ـ وهو واقف ثم قال :

ـ أما والله ما تنتهون حتى يحل بكم عقابه . بئس القوم أنتم لنبيكم .

ثم انصرف إلى بيته وتبعه أبو بكر وعثمان حتى انتهى إلى باب بيته ، ثم أقبل عليهما بوجهه فقال :

ـ أبشروا فإن الله عز وجل مظهر دينه ومتمم كلمته وناصر نبيه ، إن هؤلاء الذين ترون مما يذبح الله على أيديكم عاجلا .

٢٦

اجتمع عقبة بن أبى معيط وأبو الحكم بن هشام والعاص بن وائل وأبو سفيان بن حرب والوليد بن المغيرة وأمية بن خلف وأبى بن خلف وسهيل بن عمرو وسادات قريش وكبراؤهم فى الحجر وكانوا يحسدون رسول الله ـ ﷺ ـ على ما آتاه الله من فضله لخبث نفوسهم وتكبرهم وتعجبهم من أن يتقدم عليهم غلام يتيم ، وخوفهم من أن يقوض سلطانهم بدعوته التى استمالت الضعفاء فأحالت ضعفهم قوة . ولم يخطر لهم على قلب أنه لا يطمع فى مال ولا جاه فقد عود نفسه الفكر فى جلال الله وعظمته ، وملكوت أرضه وسمائه ، فصار ذلك ألذ عنده من كل نعيم ، فهو لا يزاحمهم فى دنياهم . فكل ما يبغيه أن يهديهم سبل ربهم ولو اهتدوا ما زاحموه فى لذته ، بل زادوه لذة بمشاركتهم إياه فى الأنس بالله .

إنه يطلب نعمة لا زحمة فيها ، ولذة لا كدر لها فقد عرف لذة الشوق بعد الذوق ، وهو يحب أن يرفعهم جميعا إلى موائد ربه ليذوقوا . فمن لم يذق لم يعرف ومن لم يعرف لم يشتق ومن لم يطلب لم يدرك ومن لم يدرك بقى مع المحرومين فى أسفل السافلين .

وقال سادات قريش وكبراؤهم :

ـ ما صبرنا لأمر كصبرنا لأمر هذا الرجل قط . ولقد سفه أحلامنا وشتم آباءنا وعاب ديننا وفرق جماعتنا وسب آلهتنا . لقد صبرنا على أمر عظيم .

وبدت البغضاء من أفواههم ، فبينا هم فى حديثهم إذ طلع عليهم رسول الله ــ ﷺ ــ ، فأقبل يمشي حتى استلم الركن ثم مر طائفا بالبيت . فلما مر بهم لمزوه ببعض القول فتغير وجهه ، ثم مر بهم الثانية فلمزوه بمثلها فاحتقن وجهه بالدم ، ثم مر بهم الثالثة فلمزوه فوقف عليهم وقال :

ــ أتسمعون يا معشر قريش ؟ أما والذى نفس محمد بيده لقد جئتكم بالذبح .

فنزل الرعب فى قلوبهم وما تبقى رجل منهم إلا وكأنما على رأسه طائر وقع ، وصاروا يقولون :

ــ يا أبا القاسم فوالله ما كنت جهولا .

فانصرف رسول الله ــ ﷺ ــ ، فلما كان الغد اجتمعوا فى الحجر فقال بعضهم لبعض :

ــ ذكرتم ما بلغ منكم وما بلغكم عنه حتى إذا ناداكم بما تكرهون تركتموه .

فبينا هم كذلك إذ طلع عليهم رسول الله ــ ﷺ ــ فتواثبوا إليه وثبة رجل واحد وأحاطوا به وهم يقولون :

ــ أنت الذى تقول : ﴿ إن للمتقين عند ربهم جنات النعيم * أفنجعل المسلمين كالمجرمين * ما لكم كيف تحكمون * أم لكم كتاب فيه تدرسون ﴾[1] .

ــ نعم أنا أقول ذلك .

ــ أنت الذى تقول : ﴿ ومن يعص الله ورسوله فإن له نار جهنم

القلم ٣٤ ــ ٣٧

خالدين فيها أبدا ﴾(١) .

— نعم أنا أقول ذلك .

— أنت الذى تقول : ﴿ إن هى إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ﴾(٢) .

— نعم أنا أقول ذلك .

فأقبل عليه عقبة بن أبى معيط فأخذ بمنكب رسول الله ﷺ وسلم ولوى ثوبه فى عنقه فخنقه خنقا شديدا ، وتشبثوا به بأجمعهم فأتى الصريخ إلى أبى بكر فقيل له :

— أدرك صاحبك .

فخرج أبو بكر حتى دخل المسجد فوجد رسول الله — ﷺ — والناس مجتمعون عليه ، فقام أبو بكر دونه وهو يبكى ويقول :

— ويلكم ، أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله وقد جاءكم بالبينات ؟

وراحوا يجذبون رأسه — ﷺ — ولحيته ، حتى سقط أكثر شعره وأبو بكر يحاول أن يحول بينه وبينهم . فأقبلوا على أبى بكر يضربونه وأبو بكر يجاهد أن يدفعهم عن حبيبه رسول الله — ﷺ — ، وإذا بصوت الرسول يرتفع كالنذير :

— دعهم يا أبا بكر ، فوالله الذى نفسى بيده إنى بعثت إليهم بالذبح .

ففرجوا عنه وخرج رسول الله — ﷺ — ، من المسجد ، وانطلق أبو بكر إلى داره ليغسل ما سال من دمائه وهو يقول :

— تباركت يا ذا الجلال والإكرام .

وسار رسول الله — ﷺ — إلى داره ، وما تقدم فى الطريق خطوات

---

(١) الجن ٢٣ (٢) النجم ٢٣

حتى سار الصبيان خلفه يهجونه بشعر لقنه إياهم عمرو بن العاص ، فقد كان ابن العاص شاعرا لا هم له إلا هجو محمد ـ ﷺ ـ .

وأفاق أبو لهب والحكم بن أبى العاص وعقبة بن أبى معيط من الرعب الذى نزل بقلوبهم لما توعدهم رسول الله ـ ﷺ ـ ، فانطلقوا إلى داره يطرحون عليه الأذى . فأخذه وخرج به ووقف على بابه يقول :

ـ يا بنى عبد مناف . أى جوار هذا ؟

وصبر واحتمل فهو يعلم أن أشد الناس بلاء الأنبياء .

وخرجت فاطمة الزهراء إلى الحرم فألفت سادات قريش فى الحجر ، وكانوا يتحاورون وقد سمعت نجواهم قالوا :

ـ إذا مر محمد فليضربه كل واحد منا ضربة .

فدخلت على أبيها وقالت وهى تبكى :

ـ تركت الملأ من قريش قد تعاقدوا فى الحِجر وحلفوا باللات والعزى وإساف ونائلة إذا هم رأوك يقومون إليك فيضربونك بأسيافهم فيقتلونك .

فقال ـ ﷺ ـ فى حنان :

ـ يا بنية لا تبكى .

وذهب وتوضأ ثم خرج فدخل عليهم المسجد فرفعوا رءوسهم ثم نكسوا ، فأخذ قبضة من تراب فرمى بها نحوهم ثم قال :

ـ شاهت الوجوه .

وراح محمد ـ ﷺ ـ يصلى لله ، وسادات الكفر فى الحجر ينظرون ، فلما ذهب عنهم الروع قام أبو جهل إلى رسول الله ـ ﷺ ـ وقال :

ـــ ألم أنهك عن هذا ؟

فانصرف إليه النبى ـــ ﷺ ـــ فنهره . فقال أبو جهل :

ـــ والله إنك لتعلم ما بها ناد أكثر منى .

فأنزل الله تعالى : ﴿ أرأيت الذى ينهى * عبدا إذا صلى * أرأيت إن كان على الهدى * أو أمر بالتقوى * أرأيت إن كذب وتولى * ألم يعلم بأن الله يرى * كلا لئن لم ينته لنسفعا بالناصية * ناصية كاذبة خاطئة * فليدع ناديه * سندع الزبانية * كلا لا تطعه واسجد واقترب ﴾(١) .

وجاء العباس بن عبد المطلب وجلس فى المسجد ، فأقبل أبو جهل يرغى ويزبد فقال :

ـــ لله على إن رأيت محمدا ساجدا أن أطأ عنقه .

فخرج العباس إلى رسول الله ـــ ﷺ ـــ فأخبره بقول أبى جهل ، فخرج غضبان حتى دخل المسجد فعجل أن يدخل من الباب ، فاقتحم من الحائط وقرأ :

﴿ اقرأ باسم ربك الذى خلق * خلق الإنسان من علق * اقرأ وربك الأكرم * الذى علم بالقلم * علم الإنسان ما لم يعلم ﴾(٢) .

وكان النبى قد بلغ أبا جهل فاستمر فى القراءة :

﴿ كلا إن الإنسان ليطغى * أن رآه استغنى ﴾(٣) .

واستمر يقرأ إلى أن بلغ آخر السورة وسجد ، فقال إنسان لأبى جهل :

ـــ يا أبا الحكم هذا محمد قد سجد .

---

(١) العلق ١٣ : ١٩ (٢) العلق ١ : ٥ (٣) العلق ٦ ـــ ٧

فأقبل إليه أبو جهل ثم نكص راجعا فقيل له :

— لم تطأ عنقه !

فقال أبو جهل :

— ألا ترون ما أرى ؟ لقد سد أفق السماء عليّ .

وجلس رسول الله — ﷺ — وتأهب ليتلو ما تيسر من القرآن فإذا سادات قريش يسرعون إليه ، تقف له جماعة عن يمينه وجماعة عن يساره وراحوا يصفقون ويصفرون ويروون الأشعار بأصوات عالية حتى تختلط بآيات الله فلا يسمعونها ولا يسمعها أحد ممن فى الحرم .

وراح رسول الله يفكر فى وسيلة يسمع بها هؤلاء الجاحدون كلام الله لعل قلوبهم القاسية تلين . إنه إذا جهر بصلاته قاموا إليه ينشدون أشعارا ماجنة لاستهواء أسماع الناس ، وإذا خافت بها لم تصل إلى الراغبين فى سماع ما جاء به . ونـزل عليه من وراء سبع سماوات ، فأوحى الله إليه ﴿ ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها ﴾[1] حتى يستطيع من يهوى أن يلقى إليه السمع فى غفلة من قومه أن يسمع ما يقرأ من آى الذكر .

وراح رسول الله — ﷺ — يصلى لا يجهر بصلاته ولا يخافت بها وقرأ : ﴿ الحاقة * ما الحاقة * وما أدراك ما الحاقة * كذبت ثمود وعاد بالقارعة * فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية * وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية * سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية * فهل ترى لهم من باقية ﴾[2] .

---

(١) الإسراء ١١٠ (٢) الحاقة ١ : ٨

وكان النضر بن الحارث فى سادات قريش الجالسين فى الحجر وقد أعار محمدا — ﷺ — سمعه ، فلما مس القرآن أذنيه أحس الحسد يأكل صدره ولم يطق أن يصبر على نار الغيرة التى تلظت فى جوفه ، فقام إلى ابن خالته محمد — ﷺ — وقال لأصحابه :

— إن محمدا يحدثكم بحديث عاد وثمود وأنا أحدثكم بحديث رستم واسفنديار وأخبار الأكاسرة .

وجلس النضر وجعل يروى أحاديث رستم الشديد واسفنديار . والتف حوله الوليد بن المغيرة وأبو جهل بن هشام وأبو لهب بن عبد المطلب وأمية بن خلف وأبى بن خلف وسادات قريش وأظهروا إعجابهم به . فاستخفه الطرب فقال :

— والله ما محمد بأحسن حديثا منى وما حديثه إلا أساطير الأولين ، اكتتبها كما اكتتبتها .

وهز السرور كفار قريش ، واستمر النضر يروى ما سمع فى الحيرة وفى بلاط كسرى وأعجب بنفسه فقال فى سخرية :

— سأنزل مثل ما أنزل الله .

فأنزل الله فيه : ﴿ ومن الناس من يشترى لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزوا أولئك لهم عذاب مهين * وإذا تتلى عليه آياتنا ولّى مستكبرا كأن فى أذنيه وقرا فبشره بعذاب أليم ﴾(١) .

﴿ وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا * قل أنزله الذى يعلم السر فى السموات والأرض إنه كان غفورا رحيما ﴾(٢) .

---

(١) لقمان ٦ ، ٧ (٢) الإسراء ٥ ، ٦

﴿ ويل لكم أفاك أثيم * يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصر مستكبرا كأن لم يسمعها فبشره بعذاب أليم ﴾(١) .

وانطلق رسول الله ـ ﷺ ـ فالتقى وهو يخرج من باب بنى سهم بالعاص بن وائل . فوقفا يتحدثان وصناديد قريش فى المسجد جلوس ، فلما دخل العاص قالوا له :

ـ من الذى كنت تحدث ؟

فقال فى سخرية :

ـ الأبتر .

ولاموه على أن وقف يحدثه فقال :

ـ دعوه فإنما هو رجل أبتر ، لا عقب له لو هلك انقطع ذكره واسترحتم منه .

فأنزل الله تعالى : ﴿ إنا أعطيناك الكوثر * فصل لربك وانحر * إن شانئك هو الأبتر ﴾(٢) .

وبلغت السورة كفار قريش فعجبوا ، فالحديث كان يدور بينهم وما كان فيهم أحد من أتباع محمد ـ ﷺ ـ وراحوا ينالون من رسول الله ـ ﷺ ـ ، فقال قائل منهم :

ـ أسروا قولكم لئلا يسمع إلٰه محمد .

فأنزل الله تعالى : ﴿ وأسرُّوا قولكم أو اجهروا به إنه عليم بذات الصدور ﴾(٣) . فلما بلغ ذلك صناديد قريش لاح الدهش فى وجوههم

---

(١) الجاثية ٧ ، ٨ (٢) سورة الكوثر (٣) الملك ١٣

وأطرق الوليد بن المغيرة يفكر فيما يسمع ، فاستشعر رغبة طاغية ليلقى سمعه إلى قرآن محمد .

واجتمع أصحاب رسول الله — ﷺ — ذات يوم فى الحرم فقالوا :

— والله ما سمعت قريش القرآن جهرا إلا من رسول الله — ﷺ — ، فمن فيكم يسمعهم القرآن جهرا ؟

فقال عبد الله بن مسعود :

— أنا .

فقالوا فى خوف :

— نخشى عليك منهم وإنما نريد رجلا له عُشيرة يمنعونه من القوم .

فقال ابن مسعود فى إيمان :

— دعونى فإن الله سيمنعنى منهم .

ثم قام عند المقام وقت الشمس وقريش فى أنديتهم فقال :

— ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ .

ورفع صوته :

— ﴿ يس * والقرآن الحكيم * إنك لمن المرسلين * على صراط مستقيم * تنزيل العزيز الرحيم * لتنذر قوما ما أنذر آباؤهم فهم غافلون * لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون ﴾(١) .

وتأملته قريش وقالوا :

— ما بال ابن أم عبد ؟

---

(١) يس ١ : ٧

— يتلو بعض ما جاء به محمد .

واستمر عبد الله بن مسعود فى قراءته :

— ﴿ إنا جعلنا فى أعناقهم أغلالا فهى إلى الأذقان فهم مقمحون * وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لا يبصرون ﴾(١) .

وقام إليه سادات قريش وفيهم عقبة بن أبى معيط وهو فى دهش وغيظ ، فما كان يدور بخلده يوما أن ابن أم عبد من كان يرعى له غنمه ومن لا يزيد طوله على ذراع ، يقف ذلك الموقف متحديا سادات قريش كلها .

وراحوا يضربون وجهه وهو مستمر فى تلاوة آيات الله :

— ﴿ وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون * إنما تنذر من اتبع الذكر وخشى الرحمن بالغيب فبشره بمغفرة وأجر كريم * إنا نحن نحيى الموتى ونكتب ما قدموا وآثارهم وكل شيء أحصيناه فى إمام مبين ﴾(٢) .

وانهالوا ضربا عليه وهو كالطود يستشعر حلاوة الإيمان فلا يزيده الاضطهاد إلا عزما وإصرارا ، واستمر يتلو :

— ﴿ واضرب لهم مثلا أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون * إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث فقالوا إنا إليكم مرسلون * قالوا ما أنتم إلا بشر مثلنا وما أنزل الرحمن من شيء إن أنتم إلا تكذبون * قالوا ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون ﴾(٣) .

---

(١) يس ٨ ، ٩ (٢) يس ١٠ : ١٢ (٣) يس ١٣ : ١٦

واستمروا يضربون وجهه وهو مستمر فى قراءته حتى قرأ غالب السورة ، ثم انصرف إلى أصحابه وقد أدمت قريش وجهه ، فقال له أصحابه :

ــ هذا الذى خشينا عليك منه .

فقال فى صدق :

ــ والله ما رأيت أعداء الله أهون علىّ مثل اليوم ، ولو شئتم لأُتيتهم بمثلها غدا .

ــ لا . قد أسمعتهم ما يكرهون .

٢٧

الإسلام ينتشر بين الضعفاء والعبيد الذين يتطلعون إلى الحرية ، والأحرار الذين لا يخشون أن يقوض الدين الجديد نفوذهم أو يذيب كنوزهم من ذهب وفضة ، واشتد الحوار فى الحرم بين رسول الله — ﷺ — وبين شيوخ قريش وساداتها ، واشتعل أواره بين ابنى الخالة محمد — عليه السلام — والنضر بن الحارث ، وكان النبى — ﷺ — يفحم النضر على الدوام بتأييد من الله .

وجاء رسول الله — ﷺ — إلى الكعبة فطاف بها ، فلما أتم الطواف ذهب إلى حيث كان الوليد بن المغيرة وأشراف قريش وكان فيهم النضر بن الحارث ، فتكلم رسول الله فعرض له النضر فكلمه رسول الله — ﷺ — حتى أفحمه ، ثم تلا عليه وعليهم : ﴿ إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون * لو كان هؤلاء آلهة ما وردوها وكلٌّ فيها خالدون * لهم فيها زفير وهم فيها لا يسمعون ﴾[1] .

ثم قام رسول الله — ﷺ — وأقبل عبد الله بن الزبعرى السهمى شاعرهم الفصيح فألفاهم واجمين ، فقال وهو يرمقهم فى دهش :

— مالكم ؟

فقال الوليد :

(١) الأنبياء ٩٨ : ١٠٠

ـــ والله ما قام النضر بن الحارث لابن عبد المطلب وما قعد ، وقد زعم محمد أنَّا وما نعبد من آلهتنا هذه حصب جهنم .

فقال عبد الله بن الزبعرى فى خيلاء :

ـــ ادعوه لى .

وأرسلوا يدعون أبا القاسم فجاء ووجهه يبتسم ، فهو يرحب بكل حوار يدور بينه وبينهم حتى تتاح له فرصة إبلاغ رسالة ربه إليهم ، فقال له ابن الزبعرى :

ـــ يا محمد ، هذا شيء لآلهتنا خاصة أو لكل من عبد من دون الله ؟

ـــ بل لكل من عبد من دون الله .

فصاح ابن الزبعرى صيحة فرح وقال :

ـــ خصمت ورب هذه البنية .

أقسم بالكعبة أن رسول الله ـــ ﷺ ـــ قد وقع فيما نصب له من فخاخ ، إنه سيلزمه الحجة على الملأ ، فقال وهو يتهلل بالفرح :

ـــ ألست تزعم أن الملائكة عباد صالحون وأن عيسى عبد صالح ؟ وهذه بنو مليح يعبدون الملائكة ، وهذه النصارى يعبدون عيسى ، وهذه اليهود يعبدون عزيزا .

وصاح أهل مكة فرحين :

ـــ ألزمه الحجة .. ألزمه الحجة .

فأنزل الله على عبد : ﴿ إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون * لا يسمعون حسيسها وهم فيما اشتهت أنفسهم خالدون ﴾(١) .

---

(١) الأنبياء ١٠١ : ١٠٢

ونزل فيمن يعبدون الملائكة ويقولون إنها بنات الله : ﴿ وقالوا اتخذ الرحمن ولدا سبحانه بل عباد مكرمون * لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون * يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون * ومن يقل منهم إنى إلٰه من دونه فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزى الظالمين ﴾(١) .

﴿ ولما ضرب ابن مريم مثلا إذا قومك منه يصدون *وقالوا أآلهتنا خير أم هو ما ضربوه لك إلا جدلا بل هم قوم خصمون *إن هو إلا عبد أنعمنا عليه وجعلناه مثلا لبنى إسرائيل * ولو نشاء لجعلنا منكم ملائكة فى الأرض يَخلفون * وإنه لعِلم للساعة فلا تمترنّ بها واتبعون هذا صراط مستقيم ﴾(٢) .

وعجب الوليد من حجته وخصومته ومست آيات الله وترا حساسا فى نفسه ، ولكن الحسد جثم على صدره فعقل لسانه عن أن يشهد بالحق فقال :

— أيُنزل على محمد وأترك وأنا كبير قريش وسيدها ؟ ويترك أبو مسعود عمرو بن عمير الثقفى سيد ثقيف، ونحن عظيما القريتين !

فأنزل الله فيه : ﴿ وقالوا لولا نزّل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم * أهم يقسمون رحمة ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا ورحمة ربك خير مما يجمعون ﴾(٣) .

وأراد أبو جهل أن يسخر من محمد — ﷺ — على الملأ خشية أن

---

(١) الأنبياء ٢٦ : ٢٩ (٢) الزخرف ٥٧ : ٦١

(٣) الزخرف ٣١ ، ٣٢

يفتن الناس به فقال :

— يا معشر قريش . هل تدرون ما شجرة الزقوم التي يخوفكم بها محمد ؟

قالوا :

— لا .

فقال وهو يضحك ملء شدقيه :

— عجوة يثرب بالزبد ، والله لئن استمكنا منها لنتزقمنها (نبتلعها) تزقما .

فأنزل الله تعالى : ﴿ إن شجرة الزقوم * طعام الأثيم * كالمهل يغلى فى البطون * كغلى الحميم * خذوه فاعتلوه إلى سواء الجحيم * ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم * ذق إنك أنت العزيز الكريم * إن هذا ما كنتم به تمترون ﴾[1] .

وملأ الحنق فؤاد أبى جهل ، وزاد فى حنقه أنه قال لرسول الله — ﷺ — : أنا العزيز الكريم . فإذا بقرآن محمد يسخر منه ، وإذا بتلك السخرية الأليمة تنتشر فى مكة بين المسلمين والكافرين على السواء .

ومشى أبى بن خلف إلى رسول الله — ﷺ — بعظم بال قد تحطم وتكسر ، فقال :

— يا محمد أنت تزعم أن الله يبعث هذا بعدما أرم (بلى) ؟

ثم فته فى يده ثم نفخه فى الريح نحو رسول الله — ﷺ — ، فقال رسول الله — ﷺ — :

---

(١) الدخان ٤٣ : ٥٠

— نعم أنا أقول ذلك . يبعثه الله وإياك بعدما تكونان هكذا ، ثم يدخلك الله النار .

فأنزل الله تعالى فيه : ﴿ وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحيى العظام وهى رميم * قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم * الذى جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فإذا أنتم منه توقدون ﴾(١) .

وكان الأخنس بن شريق بن عمرو بن وهب الثقفى حليف بنى زهرة من أشراف القوم وممن يُستمع منه . فكان يجادل الرسول — ﷺ — ويرد عليه ، وكان الرسول — صلوات الله عليه — يعرف عيب نسبه فما كان يلزمه به ، فأنزل الله تعالى فيه : ﴿ ولا تطع كل حلاف مهين * هماز مشاء بنميم * مناع للخير معتد أثيم * عُتُلٍّ بعد ذلك زنيم ﴾(٢) .

كان سادات قريش يحرصون على ألا يسمعوا القرآن وإن كانوا فى شوق إلى أن يلقوا إلى أبى القاسم أسماعهم ، إنهم سمعوا منه آيات متفرقة فى أثناء الحوار الذى كثيرا ما يدور بينه وبينهم ولكنهم يريدون أن يصغوا إليه فى هدوء لولا خشية أن يراهم الناس وهم جالسون إليه ، فيفتحوا بذلك أبواب الفتنة التى بذلوا كل الجهود لتظل مغلقة فى وجه دعوة ابن عبد الله .
وذات ليلة خرج أبو سفيان بن حرب وأبو جهل بن هشام والأخنس بن شريق ليستمعوا من رسول الله — ﷺ — وهو يصلى فى الليل فى بيته ، فأخذ كل رجل منهم مجلسا يستمع فيه وكل لا يعلم بمكان صاحبه ، فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرقوا ، فجمعهم الطريق فتلاوموا وقال بعضهم لبعض :

---

(١) يس ٧٨ : ٨٠ (٢) القلم ١٠ : ١٣

— لا نبرح حتى نتعاهد ألا نعود .

فتعاهدوا على ذلك ثم تفرقوا .

فلما أصبح الأخنس بن شريق أخذ عصاه ثم خرج حتى أتى أبا سفيان فى بيته فقال :

— أخبرنى يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد ؟

— يا أبا ثعلبة والله لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف ما يراد بها ، وسمعت أشياء ما عرفت معناها .

— وأنا والذى حلفت به كذلك .

ثم خرج الأخنس من عنده حتى أتى أبا الحكم بن هشام فدخل عليه فى بيته فقال :

— يا أبا الحكم ما رأيك فيما سمعت من محمد ؟

فقال أبو جهل فى حنق وحسد :

— ماذا سمعت ! تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف ، أطعموا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا ، وأعطوا فأعطينا ، حتى إذا تجاذبنا[1] على الرّكب وكنا كفرسى رهان قالوا : منا نبى يأتيه الوحى من السماء ، فمتى ندرك مثل هذه ؟ والله لا نؤمن به أبدا ولا نصدقه .

كانوا يتلهفون على سماع القرآن وكانوا ينسلون إلى دار النبى — ﷺ — وقد أرهفوا أسماعهم حتى لا يفوتهم شىء مما يقرأ ، حتى إذا ما خرج رسول الله — عليه السلام — إلى الكعبة وتلا عليهم القرآن ودعاهم إلى الله قالوا يهزءون به :

---

(١) تجاذبنا : أقصينا ، والمشهور تحاذينا على الركب ، وهو تصحيف .

— قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه لا نفقه ما تقول ، وفى آذاننا وقر ولا نسمع ما تقول ، ومن بيننا وبينك حجاب قد حال بيننا وبينك ، فاعمل بما أنت عليه إننا عاملون بما نحن عليه إنا لا نفقه عنك شيئا .

فأنزل الله تعالى : ﴿ وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابا مستورا * وجعلنا على قلوبهم أكِنَّة أن يفقهوه وفى آذانهم وقرا وإذا ذكرت ربك فى القرآن وحده ولّوا على أدبارهم نفورا * نحن أعلم بما يستمعون به إذ يستمعون إليك وإذ هم نجوى إذ يقول الظالمون إن تتبعون إلا رجلا مسحورا * انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلا * وقالوا أإذا كنا عظاما ورفاتا أإنا لمبعوثون خلقا جديدا * قل كونوا حجارة أو حديدا * أو خلقا مما يكبر فى صدوركم فسيقولون من يعيدنا قل الذى فطركم أول مرة فسينغضون إليك رءوسهم ويقولون متى هو قل عسى أن يكون قريبا ﴾[1] .

---

(١) الإسراء ٤٥ : ٥١

٢٨

كان العاص بن وائل يتأهب للانطلاق إلى القافلة الخارجة إلى الشام ، وكان لخباب بن الأرت دين عليه فأتاه يتقاضاه . فقال له العاص :

ـــ لا والله حتى تكفر بمحمد .

فقال خباب فى قوة :

ـــ لا أكفر حتى تموت وتبعث .

فقال العاص فى سخرية :

ـــ وإنى لمبعوث بعد الموت ؟ فسوف أقضيك إذا رجعت إلى مالى .

وكأنما استمرأ العاص الهزء بخباب فقال :

ـــ أوَلستم تزعمون أنَ فى الجنة ذهبا وفضة وحريرا ؟

ـــ بلى .

ـــ فأخرنى حتى أقضيك فى الجنة ، فوالله لئن كان ما تقول حقا إنى لأفضل فيها نصيبا منك .

فأنزل الله تعالى : ﴿ أفرأيت الذى كفر بآياتنا وقال لأوتين مالا وولدا * أطَّلع الغيب أم اتخذ عند الرحمن عهدا * كلا سنكسب ما يقول ونمد له من العذاب مدا * ونرثه ما يقول ويأتينا فردا * واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزا * كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدا * ألم تر أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزا * فلا تعجل عليهم إنما نعد لهم عدا * يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفدا * ونسوق المجرمين إلى جهنم وردا *

لا يملكون الشفاعة إلا من اتخذ عند الرحمن عهدا ﴾[1] .

وخرج العاص بن وائل إلى الطريق لينطلق إلى السوق حيث ترك جاريته للبغاء لتعود إليه بأموال طلاب الشهوة ، وفيما هو يدرج فى زهوه إلى الحرم رأى عبد الرحمن بن عوف وصديقه أمية بن خلف يوسع فى خطوه ليلحق به وهو ينادى :

ــ يا عبد عمرو ... يا عبد عمرو .

وصك صوت أمية أذنى عبد الرحمن فلم يحفل له . فأسرع أمية خلفه فلما لحق به قال له :

ــ أفسدك محمد علينا فتركت دين آبائك ودخلت فيما يدعو إليه ، وأدعوك بعبد عمرو فلا تجيب ، أرغبت عن اسم سماكه أبوك ؟

فقال عبد الرحمن فى هدوء :

ــ أنت تعلم أنى سميت حين أسلمت عبد الرحمن .

ــ إنى لا أعرف الرحمن فاجعل بينى وبينك شيئا أدعوك به ، أما أنت فلا تجيبنى باسمك الأول وأما أنا فلا أدعوك بما لا أعرف .

ــ يا أبا على ! اجعل بينى وبينك ما شئت .

ــ فأنت عبد الإله .

ــ نعم .

وساروا إلى حيث أناخت القافلة ، وكان بنو هاشم فى وداع أبى لهب وابنه معتب ورجال آل عبد المطلب . وكان محمد ــ ﷺ ــ هناك ولم يكن قد أتى لوداع عمه ، فإن المطلبيين جميعا قد استجابوا لدعوة عمه أبى

---

(١) مريم ٧٧ : ٨٧

طالب ونهضوا لحمايته إلا أبا لهب فقد انضم إلى بنى أمية فى عداوتهم بفضل زوجه أم جميل ، بل جاء ليودع عقبة بن أبى معيط ، فعقبة صار يختلف إليه كثيرا بحكم صلة القرابة التى بينهما ، وقد ألقى إليه السمع وفتن بالقرآن وإن رسول الله — ﷺ — بات يطمع فى إسلام عقبة والتفريق بينه وبين حليفه أبى بن خلف ، فيحطم حلقة من حلقات العداوة التى تقف فى وجه انتشار دعوة الإسلام والسلام .

وانفصلت القافلة وانطلقت لتغيب فى الأفق البعيد ، وقد ضمت لأول مرة فى تاريخ قريش قلوبا عامرة باليقين وقلوبا يتجاذبها اليقين والشك وقلوبا أبت أن تفتح نوافذها للنور . وعلى الرغم من ذلك التنافر فقد كانت مشغولة برسول الله — ﷺ — تنبض بحبه أو تخفق ببغضه بعد أن كانت تنشرح للقائه وعذب حديثه وحكمته قبل أن يأتى بما سفه به معتقدات الآباء وسخربه بما وقر فى العقول .

ونزلوا منزلا فأشرف عليهم راهب من دير فقال لهم :

— هذه الأرض مسبعة .

فأجمعوا متاعهم إلى صومعة الراهب ثم فرشوا لمبيتهم ، ثم جمعوا جمالهم وأناخوها حولهم ، وسقط الليل وجاء أسد يتشمم فلما دنا من المعسكر وأحست الجمال به رغت . فاستيقظ معتب فلما رأى الأسد كاد يموت من الرعب لما تذكر دعوة محمد — عليه السلام — يوم أن بصق فى وجهه : « اللهم سلط عليه كلبا من كلابك » . وأراد أن ينهض ليفر من وجه الأسد فإذا بالأسد يثب عليه ويضربه ضربة بذنبه ، فيشق سكون الليل صرخة معتب المفزوعة . فيهب رجال القافلة من نومهم ويدب الذعر بينهم ، فيستشعر الأسد بالخطر فينبسل بعيدا .

والتف الرجال حول معتب فإذا به يجود بأنفاسه بين يدى أبيه وقد لاح فى وجه أبى لهب الرعب والأسى ، إنها دعوة ابن أخيه . ومات معتب ففرح بموته من كان هواه مع أبى القاسم وشق ذلك على الكافرين .

وانطلقت القافلة إلى الشام ولا حديث للرجال إلا عن محمد — ﷺ — . بينما كانت الأحداث تجرى فى مكة على غير هوى الكافرين ، فآيات الله تنزل على قلب الأمين والناس يهمسون بها فتنشرح لها قلوب فيهرع من شرح الله فؤاده للإسلام للقاء رسول الله — ﷺ — خفية من قومه لينطق بالشهادتين وهو سعيد .

وكان الوحى ينزل بردود مفحمة على ما يثيره الكافرون من جدل ، وكان يروى أحداثهم التى كانت تقع بعيدا عن عينى محمد — ﷺ — فيثير دهشتهم ، ويقص ما يجرى فى نجواهم فينظر بعضهم إلى بعض كأنما كل منهم يتهم صاحبه بأنه يحمل إلى رسول الله — ﷺ — سرهم ، فقد أبوا أن يؤمنوا بأن الله يوحى إلى أحد من خلقه .

كان أبو سفيان بن حرب ينحر كل أسبوع جزورين . فهو وإن كان بخيلا إلا أنه كان يخشى أن يفضل بنو هاشم بنى أمية بالإنفاق . فأتاه ذات يوم يتيم فسأله شيئا من لحم الجزور فغلبه طبعه فلم يعطه عن سماحة نفس بل قرعه بعصا . فأنزل الله تعالى : ﴿ أرأيت الذى يكذب بالدين * فذلك الذى يدع اليتيم * ولا يحض على طعام المسكين ﴾(١) .

وراح الوليد بن المغيرة يغشى النبى — ﷺ — وأبا بكر حتى حسبت قريش أنه يسلم ، فجاءه أبو جهل وقال له :

---

(١) الماعون ١ : ٣

— إن قريشا تزعم أنك إنما تأتى محمدا وابن أبى قحافة تصيب من طعامهما .

فغضب الوليد فأقبل على قريش يؤنبهم ، وفى ثورة غضبه نطق بالحق قال :

— إنهم ذوو أحساب وذوو أحلام ، وإنكم تزعمون أن محمدا مجنون ، وهل رأيتموه يتكهن قط ؟

— اللهم لا .

— تزعمون أنه شاعر ، هل رأيتموه ينطق بشعر قط ؟

— لا . .

— فتزعمون أنه كذاب ، فهل جربتم عليه شيئا من الكذب ؟

— لا . فما هو ؟

— ما هو إلا ساحر وما يقوله سحر .

فقال له أبو جهل :

— لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه .

فأطرق الوليد قليلا ثم قال :

— فدعنى حتى أفكر فيه .

ولم يجد الوليد جديدا يقوله فقال :

— هذا سحر يؤثر .

فأنزل الله تعالى : ﴿ ذرنى ومن خلقت وحيدا * وجعلت له مالا ممدودا * وبنين شهودا * ومهدت له تمهيدا * ثم يطمع أن أزيد * كلا إنه كان لآياتنا عنيدا * سأرهقه صعودا * إنه فكر وقدّر * فقتل كيف قدر * ثم قتل كيف قدر * ثم نظر * ثم عبس وبسر * ثم أدبر واستكبر * فقال إن هذا

إلا سحر يؤثر * إن هذا إلا قول البشر ﴾[١] .

وكان النضر بن الحارث يستشعر الغيرة تنهش فؤاده إذا ما ذكر القرآن بخير ، فكان يقول :

— قد سمعنا ، لو نشاء لقلنا مثل هذا . إن هذا إلا أساطير الأولين .

وكانت عداوته للرسول — ﷺ — تبلغ مداها لما يجد الناس يدخلون فى دين الله ، فكان يقول فى سخرية لينفر الناس عن الحق :

— اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم .

فأنزل الله فيه : ﴿ سأل سائل بعذاب واقع * للكافرين ليس له دافع * من الله ذى المعارج * تعرج الملائكة والروح إليه فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة * فاصبر صبرا جميلا * إنهم يرونه بعيدا * ونراه قريبا ﴾[٢] .

كانت سخرية النضر بن الحارث تستهوى الكافرين ولكنها سرعان ما تذهب أدراج الرياح . إنه قال عما نزل فى عاد وثمود من آيات إنها أساطير الأولين . وحدث عن رستم واسفنديار ولكن ما إن خلا الناس إلى أنفسهم حتى راحوا يتلون بين الدهش والإعجاب : ﴿ الحاقة * ما الحاقة * وما أدراك ما الحاقة * كذبت ثمود وعاد بالقارعة * فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية * وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية * سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية * فهل ترى لهم من باقية ﴾[٣] .

وصار محمد — ﷺ — ورب ابن عبد الله وما نزل عليه من قرآن

---

(١) المدثر ١١ : ٢٥ (٢) المعارج ١ : ٧ (٣) الحاقة ١ : ٨

حديث الدور فى مكة ، حتى إن رجلين من قريش وختنا لهما من ثقيف كانوا فى بيت فقال بعضهم :

ــ أترون الله يسمع نجوانا ؟

فقال بعضهم :

ــ قد سمع بعضه ولم يسمع بعضه .

ــ لئن كان يسمع بعضه لقد سمع كله .

وخرجوا إلى الحرم فإذا برسول الله ــ ﷺ ــ يتلو : ﴿ ويوم يحشر أعداء الله إلى النار فهم يوزعون * حتى إذا ما جاءوها وشهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون * وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا انطقنا الله الذى أنطق كل شىء وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون * وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيرا مما تعملون * وذلكم ظنكم الذى ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين ﴾(١) .

فراح الرجلان من قريش وختنهما يتبادلون النظرات وهم يعجبون ، فقد نزل القرآن يرد على ما كان يدور بينهم من حديث وما كان الأمين فيهم وما سمع نجواهم ، وفيما هم فى قمة انفعالهم وبينما أفئدتهم تخفق بالرهبة تكاد أن تنفتح قلوبهم للنور ، إذا بأصوات ترتفع فى الحرم :

ــ الصابىء .

ــ الكاهن . لا تصغوا إليه إنه مجنون .

ــ بل ساحر .

---

(١) فصلت ١٩ : ٢٣

ـ هذا سحر مبين .

ودنا أبو جهل والنضر بن الحارث من الرسول ـ ﷺ ـ وقالا له فى انتصار :

ـ إنك لتشقى بترك ديننا .

فانصرف النبى ـ ﷺ ـ وهو حزين ، فإذا بجبريل الأمين يأتيه بما يطمئن فؤاده : ﴿ طه * ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى * إلا تذكرة لمن يخشىٰ * تنزيلا ممن خلق الأرض والسماوات العلى * الرحمن على العرش استوى * له ما فى السماوات وما فى الأرض وما بينهما وما تحت الثرى * وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى * الله لا إلـٰه إلا هو له الأسماء الحسنى ﴾(١) .

وكان النبى ـ ﷺ ـ يلوذ بأبى طالب بين وقت وآخر . فأبو طالب قد عادى قريشا كلها فى سبيل حمايته . فإن كان صناديد الكفار يحجمون عن قتله فما ذلك إلا خوفا من أن يجمع أبو طالب رجال بنى هاشم وينهض للثأر لابن أخيه ؛ وقد هم ذات يوم بأن يشنها حربا شعواء على بنى أمية وبنى مخزوم وبطون قريش الأخرى لما ظن أنهم قد غدروا بالأمين . ولم يضع السلاح إلا بعد أن رأى أبا القاسم واطمأن إلى سلامته .

كان رسول الله ـ ﷺ ـ يحاور عمه وكان يطمع فى إسلامه فهو يحبه ويحب هدايته ، وبينا كانت المناقشة بينهما تدور ، تذكر أبو طالب أن محمدا ـ عليه السلام ـ قد شغل بالحديث عن الطعام ، فقام وأتى النبى

---

(١) طه ١ : ٨

عليه الصلاة والسلام بخبز ولبن ثم جلس ، فبينما هو جالس إذ انحط نجم فامتلأ الأفق بنار . ففزع أبو طالب وقال :

— أى شىء هذا ؟

فقال له النبى — ﷺ — :

— هذا نجم رمى به ، وهو آية من آيات الله .

فعجب أبو طالب وسكن روعه ، فأنزل الله تعالى : ﴿ والسماء والطارق * وما أدراك ما الطارق * النجم الثاقب * إن كل نفس لما عليها حافظ * فلينظر الإنسان مم خلق * خلق من ماء دافق * يخرج من بين الصلب والترائب * إنه على رجعة لقادر * يوم تبلى السرائر * فما له من قوة ولا ناصر ﴾[1] .

وعجب أبو طالب وراح يسأل نفسه : من أين أوتى ابن أخيه هذه الحكمة ؟ إنه شب فى داره وما كان يروى فى الدار غير شعره وشعر أخيه الزبير بن عبد المطلب وشعر شعراء قريش . وقد فرح بنو هاشم لما ظهر فيهم أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ، فقد وجد الشاعر الذى يدافع عنهم وينزل الرعب فى قلوب القبائل من حدة لسانه ، أما أن يُكلم إنسان من السماء فما خطر ذلك لهم على قلب . وإن أبا طالب وإن كان يحس راحة لدعوة ابن أخيه إلا أن فكرة أن الله أكبر من أن يخاطب بشرا كانت مستحوذة عليه ووقرت فى عين ضميره .

كان راضيا عن جوهر دعوة محمد — عليه السلام — وما فيها من دعوة إلى مكارم الأخلاق ، وكان إعجابه بابن أخيه لا يحد إلا أنه كان

(١) الطارق ١ : ١٠

مخلصا مع نفسه ومع تنزيهه لله عن أن يتصل بالبشر أو يوحى إليهم . وكان كلما جلس إلى ابنه على يزداد حيرة فمن أين لعلى كل ذلك الفهم ومن أين له التفقه فى الدين وهو فى مثل سنه وحداثته ؟ ولو سمع قول رسول الله — ﷺ — لعلى بن أبى طالب : « إن الله أمرنى أن أدنيك ولا أقصيك وأن أعلمك وتعى ، وحق على الله أن تعى » وآمن بما قاله ابن أخيه لزال عجبه ، ولوجد راحة نفسية للقلق الموار بين جنبيه .

ورجعت قافلة قريش من الشام وخف الناس لاستقبال العائدين ، فإذا بأبى لهب باسر الوجه قد نكأت العودة جرح قلبه فهو يعود بعد أن غيب معتبا التراب . وراح أبو طالب والعباس وحمزة وسادات بنى هاشم يرحبون بأبى لهب وهو حزين فى عينيه دموع ، وما كانت دموع الفرح باللقاء بل دموع الواله الحزين على فلذة الكبد وهوى الفؤاد . وفطن الرجال إلى أسى الرجل الذى عرف بينهم بقسوة القلب فلما سألوه عما به وعرفوا أن أسدا قضى على معتب لاح فى وجوههم الحزن ، وتذكر أبو طالب دعوة ابن أخيه أبى القاسم على معتب لما بصق فى وجهه فرنت فى أذنيه كأنما كانت قضاء رهيبا : اللهم سلط عليه كلبا من كلابك . فتقاصرت نفسه ولفه خوف وهو يسأل نفسه : ترى أجاء قتل الأسد لابن أخيه معتب مصادفة أم أن الله رب محمد استجاب لدعوته ؟!

وكان عقبة بن أبى معيط لا يقدم من سفر إلا صنع طعاما فدعا إليه أشراف قومه ، فلما قدم من سفره هذا صنع طعاما فدعا الناس ودعا رسول الله — ﷺ — إلى طعامه ، فلما قرب الطعام قال رسول الله — ﷺ — :

— ما أنا بآكل من طعامك حتى تشهد أن لا إلـه إلا الله ، وأنى رسول الله .

فقال عقبة :

ــ أشهد أن لا إلٰه إلا الله ، وأن محمدا رسول الله .

فأكل رسول الله ــ ﷺ ــ وقد انشرح صدره لإسلام من لج فى عداوته ومن كان من أقسى المستهزئين بالدين القويم .

كان أبى بن خلف وعقبة بن أبى معيط متحالفين وكان أبى غائبا ، فلما أخبر بما كان بين عقبة ومحمد ــ عليه السلام ــ كاد يطيش لبه ، ففى إيمان عقبة تقويض لركن ركين فى عداوة ابن أبى كبشه الذى جاء بدعوى تجتث سلطانهم من مكة بل من كل أرض العرب . فخرج وشرر الغضب يتطاير من عينيه حتى إذا ما دخل على عقبة قال له :

ــ صبأت يا عقبة . وجهى من وجهك حرام إن تابعت محمدا .

وخشى عقبة غضب أبىّ أكثر من خشيته من غضب الله ، فقال معتذرا :

ــ والله ما صبأت ولكن دخل على رجل فأبى أن يطعم من طعامى إلا أن أشهد له ، فاستحييت أن يخرج من بيتى ولم يطعم فشهدت فطعم .

ولم يقنع ذلك القول أبىَّ بن خلف فقال :

ــ ما أنا بالذى رضى منك أبدا إلا أن تأتيه فتبزق فى وجهه وتطأ عنقه .

وخرج عقبة إلى المسجد فوجد رسول الله ــ ﷺ ــ ساجدا ، فداس على عنقه حتى كادت عيناه ــ ﷺ ــ أن تخرجا من محجريهما ، فقام ــ عليه السلام ــ وهو يلتقط أنفاسه فى جهد فبزق فى وجهه ، فقال رسول الله ــ ﷺ ــ :

ــ لا ألقاك خارجا من مكة إلا علوت رأسك بالسيف .

وضج الكافرون بالضحك فما كان لمحمد ــ عليه السلام ــ أنصار يمنعونه ، وما كانت لهم بصائر يرون بها نصر الله الذى وعد به رسوله ،

ولم ينزل الوحى ينهاه عن وعده بقتل عقبة إن لقيه خارجا من مكة بل نزل الروح الأمين بالوعيد : ﴿ ويوم يعض الظالم على يديه يقول يا ليتنى اتخذت مع الرسول سبيلا * يا ويلتى ليتنى لم أتخذ فلانا خليلا * لقد أضلنى عن الذكر بعد إذ جاءنى وكان الشيطان للإنسان خذولا * وقال الرسول يا رب إن قومى اتخذوا هذا القرآن مهجورا * وكذلك جعلنا لكل نبى عدوا من المجرمين وكفى بربك هاديا ونصيرا * وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا * ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا ﴾[1] .

---

(١) الفرقان ٢٧ : ٣٣

٢٩

علم أبو جهل أن أبا سلمة المخزومي قد دخل فى دين محمد — ﷺ — فاستبد به الغضب ، فما كان يحسب أن الفتنة تدخل دور بني مخزوم . إنه يجاهد ليكتم صوت الحق حتي لا يذهب الشرف كله لبنى قصى فإذا بأبى سلمة يسلم ويقر بنبوة محمد بن عبد الله .

وتذكر أبو جهل ذلك الحديث الذى دار بينه وبين الأخنس بن شريق ، قال له الأخنس :

— يا أبا الحكم أخبرنى عن محمد أصادق هو أم كاذب ؟ فإنه ليس هنا من يسمع كلامك غيرى .

— والله إن محمدا لصادق وما كذب محمد قط ، ولكن إذا ذهب بنو قصى باللواء والسقاية والحجابة والندوة والنبوة فماذا يكون لسائر قريش ؟

وتذكر ما أنزل الله فيه : ﴿ قد نعلم إنه ليحزنك الذى يقولون فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون ﴾(١) . فلم يلن قلبه ويستجيب للحق بل زاد طغيانا وعزم على أن يعذب أبا سلمة حتى يفتنه عن دينه .

كان أبو سلمة يعلم أن أخا أبى جهل عياش بن أبى ربيعة قد أسلم ،

---

(١) الأنعام ٣٣

وكان يعلم أن أبا جهل يطلبه لينزل به عذابه فلم يقل له : اذهب إلى أخيك قبل أن تأتى إلىّ . بل انطلق إلى خاله أبى طالب ليكون فى جواره فهو ابن برة بنت عبد المطلب ، فكان على أخواله أن يحموه من غضب بنى مخزوم .

وجاء أبو جهل على رأس قوم من بنى مخزوم إلى أبى طالب فقالوا له :

ـــ لقد منعت منا ابن أخيك محمدا فما لك ولصاحبنا تمنعه منا ؟

قال أبو طالب فى ثقة :

ـــ إنه استجار بى وهو ابن أختى ، فإن أنا لم أمنع ابن أختى لم أمنع ابن أخى .

وكان أبو لهب حاضرا فقال مغضبا :

ـــ يا معشر قريش والله لقد أكثرتم على هذا الشيء ؟ ما تزالون تتوثبون عليه فى جواره من بين قومه . والله لتنتهن عنه أو لتقومُنَّ معه فى كل ما قام فيه حتى يبلغ ما أراد .

وخشى أبو جهل أن ينسلخ أبو لهب عنهم أو تأخذه العصبية فينضم إلى ابن أخيه ، فتشتد دعوة محمد ـــ ﷺ ـــ وتقوى فقال :

ـــ بل ننصرف عما تكره يا أبا عتبة .

وانصرفوا وسار أبو جهل وهو يستشعر قهرا ، حتى إذا ما بلغ الصفا مرَّ برسول الله ـــ ﷺ ـــ فتحرك غضبه فراح يسب من سفه أحلامهم وفرق جماعتهم ، ثم صب التراب على رأسه وجارية من دار عبد الله بن جدعان تسمع وتنظر .

وانصرف أبو جهل إلى نادى قريش وانصرف رسول الله ـــ ﷺ ـــ دون أن ينبس بكلمة .

وظلت مولاة عبد الله بن جدعان تسرح الطرف فيما حولها ، حتى إذا

ما رأت حمزة بن عبد المطلب مقبلا متوشحا بسيفه راجعا من قنصه متجها إلى الحرم ليطوف بالبيت قبل أن يعود إلى أهله ، تأهبت لتقص على حمزة ما كان بين أبى جهل ومحمد بن عبد الله .

ومر عليها حمزة فقالت له :

— يا أبا عمارة لو رأيت ما لقى ابن أخيك محمد من أبى الحكم بن هشام ! وجده هاهنا جالسا فآذاه وسبه وبلغ منه ما يكره ، ثم انصرف عنه ولم يكلمه محمد .

فسار حمزة نحو الحرم وهو حانق ، وما كاد يقطع فى الطريق خطوات حتى لحقت به مولاة أخته صفية بنت عبد المطلب وقالت له :

— إن أبا الحكم بن هشام صب التراب على رأس محمد وألقى عليه فرثا .

فاحتمل حمزة الغضب ودخل المسجد فرأى أبا جهل جالسا فى القوم ، فأقبل نحوه حتى قام على رأسه ورفع القوس وضربه فشجه شجة منكرة ثم قال :

— أتشتمه ؟ فأنا على دينه أقول ما يقول ، فرد على ذلك إن استطعت .

فقال أبو جهل فى تضرع :

— سفه عقولنا وسب آلهتنا وخالف آباءنا .

فالتفت حمزة إلى القوم وقال فى حدة :

— ومن أسفه منكم ؟ تعبدون الحجارة من دون الله . أشهد أن لا إلـٰه إلا الله ، وأشهد أن محمدا رسول الله .

فقامت رجال من بنى مخزوم إلى حمزة لينصروا أبا جهل فقالوا :

— ما نراك إلا قد صبأت .

— وما يمنعنى وقد استبان لى منه . أنا أشهد أنه رسول الله وأن الذى يقول حق . والله لا أنزع فامنعونى إن كنتم صادقين .

فقال لهم أبو جهل : دعوا أبا عمارة فإنى والله لقد أسمعت ابن أخيه شيئا قبيحا .

ورجع حمزة إلى بيته وراح يفكر فيما كان بينه وبين أبى جهل : إنه ثار لابن أخيه وأعلن إسلامه فى نوبة من نوبات غضبه فراح الشيطان يوسوس له : « أنت سيد قريش اتبعت هذا الصابئ وتركت دين آبائك . الموت خير لك مما صنعت » .

واستشعر الرجل الشجاع الذى لا يخشى الردى خوفا يلفه وحيرة تكتنفه ، وحاول أن ينام ولكن لم يطف الكرى بعينيه إنه فى قلقه وأرقه . وفى جوف الليل راح يبتهل إلى الله فى حرارة :

— اللهم إن كان راشدا فاجعل تصديقه فى قلبى ، وإلا فاجعل لى مما وقعت فيه مخرجا .

وراح حمزة يغدو ويروح فى الغرفة يحاول أن يستفتى قلبه مرة ، ويصيخ سمعه إلى همزات الشيطان مرة ، ويبتهل إلى الله مرات أن يدركه برحمته ويلقى فى عين بصيرته نورا يرى به جوهر الحقيقة . إنه أقر على الملأ بوحدانية الله ورسالة ابن أخيه ، وقد كان إعلانا حركته عصبية لأبى القاسم أخيه فى الرضاعة وابن أخيه ورفيق الصبا والشباب وحبيب الفؤاد ، إلا أنه لما خلا بنفسه قامت هواجسه تهاجمه فى قسوة ، وراح ينقب عن كبد الحقيقة ، فما كان يحب أن يخدع نفسه أو أن يكون منافقا فى عين ذاته . إنه يبغى الحق ولا شيء غير الحق .

وبات حمزة بليلة لم يبت بمثلها راح فيها يستعرض حياة ابن أخيه فلم يجد فيها مثلبا ، فهو الأمين الذى لم يجرب عليه الكذب قط ، إنه لم يكذب على الناس ، أوَ يكذب على ربه ؟ إنه يحسن الحسن ويقويه ويقبح القبيح ويوهيه ، له نور يعلوه كأن الشمس تجرى فى وجهه ، قد أوتى الحكمة لا ينطوى إلا على الإخلاص ، قد خرج من سلطان نفسه فلا يغضب لها بل يغضب للحق . إنها صفات لا تجتمع إلا فى إنسان يعد لرسالة كبيرة ، وإن ابن عبد الله كفء لحمل أعظم رسالة .

وما يكاد يقنع نفسه بصدق ابن أخيه حتى تهب الوساوس لتقتلع بذور اليقين التى تحاول أن تستقر فى أغوار ذاته وتهجس فى نفسه ، إنه يحاول أن يجد تبريرا لتسرعه فى إعلان إسلامه استجابة لغضبه الذى انبعث لما حاق بابن أخيه من مهانة ، حتى إذا ما أسفر الليل عن وجه الصباح غدا إلى رسول الله — ﷺ — فقال :

— يا بن أخى إنى قد وقعت فى أمر لا أعرف المخرج منه ، وإقامة مثلى على ما لا أدرى ، أرشد هو أو غى شديد .

وقص على ابن أخيه قصته فراح محمد — ﷺ — يذكره ويعظه ويخوفه ويبشره ويتلو عليه القرآن ، وحمزة مأخوذ بما يسمع يستشعر كأن أسجافا ترتفع عن قلبه وأن نورا يشرق فى عين ذاته وأن حديث ابن أخيه يرتفع به عن عالمه المحدود إلى عوالم من الرفعة والسمو والنور . وألقى الله فى قلبه الإيمان فقال فى فرح وانفعال :

— أشهد إنك لصادق ، فأظهر يا بن أخى دينك .

وسر رسول الله — ﷺ — بإسلام أعز فتى فى قريش سرورا كبيرا ، فقد أعز الله الإسلام بأشد قريش شكيمة ، وأحس أن آلام الاضطهاد

الذى تحمله سنين طويلة قد أثمرت خير ثمرة ، فبات يرحب بكل عذاب وشدة وهو على ثقة من أن الله سيتم نوره ولو كره الكافرون .

وأنزل الله تعالى فيما كان من حمزة وأبى جهل : ﴿ أَوَمن كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشى به فى الناس كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها كذلك نبين للكافرين ما كانوا يعملون * وكذلك جعلنا فى كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها وما يمكرون إلا بأنفسهم وما يشعرون * وإذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتى رسول الله الله أعلم حيث يجعل رسالته سيصيب الذين أجرموا صَغَارٌ عند الله وعذاب شديد بما كانوا يمكرون * فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد فى السماء كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون * وهذا صراط ربك مستقيما قد فصلنا الآيات لقوم يذكرون ﴾(١) .

---

(١) الأنعام ١٢٢ : ١٢٦

٣٠

كان الحنق يملأ نفوس سادات قريش ، فإسلام حمزة شد أزر دعوة محمد — عليه السلام — ، فما كان حمزة يخشى أبا جهل ولا أبا سفيان ولا أبا لهب ولا الوليد بن المغيرة ولا ابنى خلف ولا العاص بن وائل ولا النضر بن الحارث ولا عقبة بن أبى معيط ولا عتبة بن ربيعة ولا أخاه شيبة ولا أحدا من أهل العداوة والمبادأة لابن أخيه الذين يطلبون الجدل والخصومة . فسيف حمزة أسرع من لسانه ، وما كان أحد من هؤلاء بزاهد فى الدنيا حتى يثير غضب أبى عمارة .

وعز رسول الله — ﷺ — بأن دخل حمزة فى دين الله ، فكف كفار مكة عن بعض ما كانوا ينالون منه ، فلم يعد الرجال يقفون عن يمينه وعن يساره ويصفقون ويصفرون ويخلطون عليه بالأشعار إذا قرأ القرآن ، ولم يعد أحد يجرؤ على وضع ثوبه على عنقه وخنقه به خنقا شديدا . وكف جيرانه أبو لهب والحكم بن أبى العاص بن أمية وعقبة بن أبى معيط عن طرح الأذى عليه ، ولم يعد أبو جهل يفكر فى صب التراب على رأسه ، فأغلق بإسلام حمزة باب اضطهاد محمد — عليه السلام — الذى ظل مفتوحا على مصراعيه سنوات ، وفتحت أبواب الجدل وطلب المعجزات .

وفى ذات يوم خرج بلال من دور بنى جمح فى البكرة وانطلق إلى الحرم ، فوجد خلوة من الناس فصار يبصق على الأصنام التى وضعت فى جوف الكعبة ومن حولها وراح يقول :

— خاب وخسر من عبدكن .

وراه رجل من قريش فانطلق إلى أمية بن خلف فقال له :

— أصبوت ؟

فقال أمية فى غضب :

— ومثلى يقال له هذا ؟!.

— إن أسودك بصق على الآلهة .

واقشعر بدن أمية وخشى غضب الآلهة فقال لقريش :

— خذوا مائة من الإبل وانحروها للآلهة .

ثم انطلق أمية إلى حيث كان بلال وراح يصب عليه جام غضبه وبلال ثابت لا يتزعزع ، يأمره أن يكفر بمحمد وإله محمد وأن يعود لعبادة آلهة قريش وبلال يهزأ بقلبه وبلسانه من الأصنام التى لا تنفع ولا تضر . ودب اليأس فى قلب أمية وزاد فى حنقه عناد عبده الأسود فألبسه أسمالا بالية ووضع فى عنقه حبلا من مسد ثم نادى صبيان القبيلة ودفع به إليهم، فخرجوا به يتصايحون ويسبون الكافر باللات والعزى وبلال يردد شعاره :

— أحد .. أحد .

وراح بنو جمح يعذبون حمامة أم بلال ، فقد كفرت مع ابنها بدين قريش ودخلت فى الإسلام ويسألونها أن تذكر محمدا — عليه السلام — بسوء وأن تعود إلى عبادة اللات والعزى ، فكانت تحتمل العذاب فى صبر ولا يتحرك لسانها إلا بحمد الله على أن أخرجها من الظلمات إلى النور .

واكتشف أمية بن خلف أن ابنه عليا قد فتن عن دين آبائه فأنزل به سوط عذاب ، فلم يحتمل على بن أمية الآلام المبرحة التى نزلت به فأعطى معذبيه ما يحبون وفتن عن دينه ورجع إلى الشرك والضلال .

وقامت كل قبيلة تعذب من اعتنقوا الإسلام من أبنائهم ومواليهم ليرتدوا إلى دين قريش قبل أن يستفحل الأمر وتنتشر دعوة محمد — عليه السلام — فى القوم فيتزعزع سلطان السادة ويضيع مجد قريش ، فخرج بنو مخزوم بأبنائهم ومواليهم المسلمين وراحوا يعذبونهم على أعين الناس تخويفا لمن تسول له نفسه هجر دين الآباء والدخول فيما يدعو إليه محمد ابن عبد الله ، فكانوا يضربون بالسياط أبا قيس بن الوليد بن المغيرة وعمارا وأمه سمية وأباه ياسرا ضربا تتمزق منه الجلود فتسيل الدماء تروى الرمال .

وراح عمر بن الخطاب يعذب جارية أسلمت يضربها حتى مل ، ثم قال لها :

— إنى أعتذر إليك فإنى لم أتركك حتى مليت .

فقالت له وهى تتلوى من الألم :

— كذلك يعذبك ربك إن لم تسلم .

ولم يكن عمر يدرى أن أخته فاطمة بنت الخطاب قد أسلمت ، ولم يخطر له على بال أن زوج أخته سعيد بن زيد قد دخل فى دين الله . ولو عرف عمر أن الفتنة قد دخلت دور أهله لانطلق حانقا لينزل بالصابئين ألوان العذاب .

وكان خباب بن الأرت مولى لأم أنمار وكان حدادا يعمل طوال النهار ليعود لمولاته بثمرة عرقه ، فلما قامت القبائل على من فتن فيها بالإسلام صارت أم أنمار تأخذ الحديدة وقد أحمتها بالنار فتضعها على رأسه وتسأله أن يسب محمدا عليه السلام وأن يكفر بدينه ، ولكنه كان يحتمل النار فى صبر عجيب ولا تتحرك شفتاه إلا بذكر الله .

وضاقت أم أنمار بذلك العناد فدعت رجالا من أهلها ليعاونوها على

تعذيب ذلك العبد الآبق لعله يعود عن غيه . فأوقدوا نارا ووضعوها على ظهره فارتفع أنين خباب ، وراح الرجال يقولون له :

— سب محمد وإلـٰه محمد .

فلم تتحرك شفتاه إلا بالخير ، واستمرت النار تسرى فيه لا يطفئها إلا دهن ظهره .

ومر رسول الله — ﷺ — على عمار وأمه سمية وأبيه ياسر وبنو مخزوم يعذبونهم بالنار ، فقال :

— صبرا آل ياسر فإن موعدكم الجنة .

وضاق أبو جهل بثبات سمية فقال لها :

— ما آمنت بمحمد إلا أنك عشقته لجماله .

ثم طعنها فى قلبها فماتت فكانت أول شهيدة فى الإسلام ، ولم يحتمل ياسر عذاب النار ففاضت روحه والنبى — ﷺ — يدعو ربه :

— اللهم لا تعذب أحدا من آل عمار بالنار .

وراح صفوان بن أمية يعذب مولاه أبا فكيهة فيخرجه نصف النهار فى شدة الحر مقيدا إلى الرمضاء فيضع على بطنه صخرة حتى يخرج لسانه ، ورجال من قرابة صفوان يقولون له :

— زده عذابا حتى يأتى محمد فيخلصه بسحره .

ومرت الأيام والعذاب يترادف على المؤمنين فمنهم من صبر ومنهم من قضى نحبه ومنهم من لم يحتمل العذاب فارتد عن دينه ، فرجع إلى الشرك الحارث بن ربيعة بن الأسود وأبو قيس بن الوليد بن المغيرة والعاص بن منبه ابن الحجاج ، فشجع ذلك الكفار على أن يغالوا فى تعذيب المؤمنين لعلهم يرجعون إلى دين الآباء فتموت دعوة الإسلام فى مهدها قبل أن يشتد

عودها وتسمع بها القبائل التى تفد إلى الحرم فى الموسم .

وأتى خباب رسول الله — ﷺ — وهو متوسد بردة فى ظل الكعبة ولقد لقى المسلمون من المشركين شدة شديدة ، فقال :

— يا رسول الله ألا تدعو الله لنا ؟!

فقعد — ﷺ — محمرا وجهه فقال :

— إنه كان من قبلكم يمشط بأمشاط الحديد ما دون عظمه من لحم وعصب ما يصرفه ذلك عن دينه ، ويوضع المنشار على فرق رأس أحدهم فيشق ما يصرفه ذلك عن دينه . وليظهرن الله تعالى هذا الأمر حتى يصير الراكب من صنعاء إلى حضر موت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه .

وأطرق خباب وقد تقاصرت نفسه ، ولم يطل إطراقه فقد مس أذنيه صوت الرسول — ﷺ — وهو يدعو له كأنه صوت رحيم آت من السماء :

— اللهم انصر خبابا .

وراح أبو جهل ينفس عن حقده لمحمد — عليه السلام — بتعذيب كل من آمنوا بما جاء به ، لم يدع رجلا ولا امرأة إلا صب عليه سوط عذاب ، إنه رأى أناسا يعذبون امرأة كانت جارية من جواريهم وقد فتنت بالدين الجديد فذهب ليشترك فى صب جام غضبه عليها ، فألفاها قد عذبت حتى عميت فلم يرق لها قلبه ، بل راح يضربها ويقول لها :

— إن اللات والعزى فعلا بك ما ترين .

فقالت له فى إيمان :

— كلا والله لا تملك اللات والعزى نفعا ولا ضرا ، هذا أمر من السماء وربى قادر على أن يرد على بصرى .

فأصبحت تلك الليلة وقد رد الله تعالى عليها بصرها فقالت قريش :

ـــ إن هذا من سحر محمد

وجىء ببلال مقيدا وكان اليوم قائظا وقد ألبسوه درعا من حديد وأضجعوه على الرمال وتركوه للشمس وانصرفوا ، فأحس كأنه فى أتون نار ولكنه ظل صابرا ولم يعرف الجزع طريقه إلى فؤاده ، وجاء أمية بن خلف وأبو جهل والمشركون يتفصد العرق منهم من شدة الحر ، وقالوا لبلال :

ـــ سب محمدا .

فقال بلال يردد نشيده :

ـــ أحد .. أحد .

أيسوا من أن يسب العبد الحبشى محمدا أو يذكره بسوء ، فلا أقل من أن يذكر آلهتهم بخير ليطلقوه فقد لاحت الهزيمة لأعينهم بشعة إذا ما استمر بلال على عناده ، فقالوا له :

ـــ اذكر اللات والعزى .

ـــ أحد .. أحد ..

ـــ قل كما نقول .

فيقول بلال فى سخرية .

ـــ إن لسانى لا يحسنه .

فرفسه أبو جهل رفسة شديدة وهو يقول :

ـــ أما زلت على غيك يا ابن السوداء .

وتمادوا فى تعذيبه وبلال ينشد نشيده :

ـــ أحد .. أحد . إن يقتلونى فلم أكن لأشرك بالرحمن من خشية

القتل ، فيارب إبراهيم ويونس وموسى وعيسى نجنى ثم لا تبل .

ذاق بلال حلاوة الطاعة وتعلقت همته بالله وعرف مراقبة أنفاسه وأحب الله من كل قلبه فصبر على الشدة ، فمن ذاق شيئا من خالص محبة الله ألهاه ذلك عمن سواه . إنه أصبح يحتقر جلاديه ، هانوا فى عينيه ، وبات يستشعر عزة تملأ جوانحه فكان الاضطهاد يشعل نار اليقين فى قلبه ويدنيه من ربه ويجعله يحس وهو مكبل بالقيود أنه أكثر حرية من الذين يتوسلون إليه أن يذكر آلهتهم بخير ليحفظوا كرامتهم المزعومة وكبرياءهم الجوفاء .

واشتد البلاء بأصحاب رسول الله — ﷺ — فرأى فى المنام أنه يهاجر إلى أرض ذات نخل وشجر وماء ، فقصها على أصحابه فاستبشروا ورأوا فيها فرجا مما هم فيه من أذى المشركين .

ومرت الأيام وإيذاء قريش للمسلمين يزداد والأمر بالهجرة لا ينزل من السماء ، فجاءوا إلى رسول — ﷺ — وقالوا :

— يا رسول الله متى نهاجر إلى الأرض التى رأيت ؟

فسكت رسول الله — ﷺ — ، فأنزل الله تعالى : ﴿ وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين كفروا للحق لما جاءهم هذا سحر مبين * أم يقولون افتراه قل إن افتريته فلا تملكون لى من الله شيئا هو أعلم بما تفيضون فيه كفى به شهيدا بيني وبينكم وهو الغفور الرحيم * قل ما كنت بدعا من الرسل وما أدرى ما يفعل بى ولا بكم إن أتبع إلا ما يوحى إلى وما أنا إلا نذير مبين ﴾[1] .

---

(١) الأحقاف ٧ : ٩

فقال رسول الله — ﷺ — لأصحابه :

— إنما هو شيء رأيته فى منامى ما أتبع إلا ما يوحى إلى .

وضاق أمية بن خلف وأبو جهل والمشركون بثبات بلال على دينه على الرغم من كل صنوف العذاب التى أنزلوها به ، وخشوا أن يكون عذابه وثباته فتنة للناس عوضا عن أن يكون زجرا وترهيبا فأخرجوه إلى الرمضاء ووضعوا صخرة عظيمة على صدره ، فراح بلال ينشد نشيده مستخفا بالعذاب والأهوال :

— أحد .. أحد ..

— اذكر اللات والعزى ..

— أحد .. أحد ..

— قل كما نقول .. اذكر اللات والعزى بخير .

— أحد .. أحد ..

وراحوا يرفسونه فى حنق ويضربونه فى غضب ثائر وهو يقول :

— إن يقتلونى فلم أكن لأشرك بالرحمن من خشية القتل ، فيا رب إبراهيم ويونس وموسى وعيسى نجنى ثم لا تبل .

وخرج أبو بكر من عند النبى — ﷺ — فى الهجيرة وقد تشاور الصاحبان فى أمر بلال وانطلق إلى ساحة التعذيب ، وما إن رأى بلال يئن تحت الصخرة وهو يقول : أحد .. أحد . حتى أحس كأن كبده تكاد أن تتصدع وهرع إلى أمية وقال له :

— حتى متى تعذب هذا العبد ؟ ألا تتقى الله فيه ؟

— كفى يا بن أبى قحافة ، إنه يعذب بسببك فما أفسده سواك .

وكأنما أرادوا أن يتخلصوا من عار صمود بلال على التعذيب وعدم

النطق بما يحبون ، فقال أمية :

ـــ أنقذه مما ترى .

كان أمية بن خلف زاهدا فى عبده الذى وقف كالطود فى وجه سادات قريش يردد نشيده : « أحد .. أحد » مستحقرا كل شىء سوى ربه الذى ثبت فؤاده ، وقد مل أمية تعذيب بلال وما كان يرتجف إلا من أن يضطر أن يعلن على الملأ أنه هزم أمام عبده الذى استخف بأهوال العذاب فى سبيل عقيدته ، فلما عرض عليه أبو بكر أن يشترى بلال بخمس أواق ذهبا قال دون تفكير :

ـــ لو أبيت إلا أوقية لبعناكه .

فقال أبو بكر فى صدق :

ـــ لو أبيتم إلا مائة أوقية لأخذته .

ورفعت الصخرة عن صدر بلال وأخذه أبو بكر وانطلقا إلى حيث كان رسول الله ـــ ﷺ ـــ ، وفى الطريق التفت بلال إلى أبى بكر وقال :

ـــ إن كنت إنما اشتريتنى لنفسك فأمسكنى ، وإن كنت إنما اشتريتنى لله فدعنى وعمل الله .

ودخلا على النبى ـــ ﷺ ـــ . فلما رأى بلالا بان السرور فى وجهه فالتفت إلى أبى بكر فقال :

ـــ الشركة يا أبا بكر .

ـــ لقد أطلقت سراحه يا رسول الله .

وراحت قريش تقول :

ـــ إنما أعتق أبو بكر بلالا ليد كانت له عنده فيكافئه بها .

أرادوا بذلك أن يشككوا فى فعل أبى بكر وفى أن عمله لم يكن خالصا

لوجه الله ، ولم يلتفت أبو بكر إلى افتراءات الكافرين بل استمر يشترى جماعة آخرين ممن كان يعذب فى الله ، فاشترى حمامة أم بلال وعامر بن فهيرة وأبا فكيهة والنهدية وابنتها وكانتا للوليد بن المغيرة وكان يعذبهما عذابا شديدا .

ورأى أبو قحافة ما يفعل ابنه فهرع إليه يقول :

ـــ يا بنى ! أراك تعتق رقابا ضعافا ، فلو أنك إذا فعلت أعتقت رجالا جلدة يمنعونك ويقومون دونك .

فقال أبو بكر لأبيه الذى لم يشرق اليقين فى قلبه بعد :

ـــ يا أبت إنى إنما أريد ما أريد .

ـــ يا بنى لو كنت تبتاع من يمنع ظهرك .

ـــ ما منع ظهرى أريد .

فأنزل الله تعالى قرآنا يرد به على افتراء الكافرين على أبى بكر وزعمهم أنه ما أعتق أبو بكر بلالا إلا ليد له عنده ، وليقارن بين فعل أبى بكر وفعل أمية بن خلف : ﴿ والليل إذا يغشى * والنهار إذا تجلى * وما خلق الذكر والأنثى * إن سعيكم لشتى * فأما من أعطى واتقى * وصدق بالحسنى * فسينسره لليسرى * وأما من بخل واستغنى * وكذب بالحسنى * فسنيسره للعسرى * وما يغنى عنه ماله إذا تردى * إن علينا للهدى * وإن لنا للآخرة والأولى * فأنذرتكم نارا تلظّى * لا يصلاها إلا الأشقى * الذى كذب وتولى * وسيجنبها الأتقى * الذى يؤتى ماله يتزكى * وما لأحد عنده من نعمة تجزى * إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى * ولسوف يرضى ﴾[1] .

---

(١) سورة الليل .

التـذييل

عن عائشة رضى الله تعالى عنها :

« أول ما بدئ به رسول الله — ﷺ — من النبوة حين أراد الله تعالى كرامته ورحمة العباد به : الرؤيا الصالحة ، لا يرى رؤيا إلا جاءت كفلق الصبح » .

وإنما ابتدئ رسول الله — ﷺ — بالرؤيا لئلا يفجأه الملك بالرسالة فلا تتحملها القوى البشرية ، فكانت الرؤيا تأنيسا له — ﷺ — ، فأول ما يؤتى به الأنبياء فى المنام حتى تهدأ قلوبهم ، ثم ينزل عليهم الوحى فى اليقظة . وقد نزل القرآن كله فى اليقظة تأكيدا لما يقال أو يراد .

وقال بعض الرواة إن بعض السور نزلت والرسول — ﷺ — نائم ، وقد استندوا فى ذلك إلى ما رواه مسلم فى صحيحه عن أنس قال : بينا رسول الله — ﷺ — بين أظهرنا إذ غفا إغفاءة ثم رفع رأسه مبتسما ، فقلنا ما أضحكك يا رسول الله ؟ فقال : أنزل على آنفا سورة . فقرأ : ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم * إنا أعطيناك الكوثر * فصل لربك وانحر * إن شانئك هو الأبتر ﴾(١) . والحقيقة أن الحالة التى اعترته عند نزول الكوثر لم تكن إغفاءة نوم ، بل الحالة التى كانت تعتريه — ﷺ — عند

---

(١) الكوثر

الوحى ، فقد كان يؤخذ عن الدنيا .

كانت الرؤيا الصادقة ستة أشهر قبل نزول الوحى ، وقد أقام رسول الله — ﷺ — بمكة حين بعث ثلاث عشرة سنة ، وبالمدينة عشر سنين يوحى إليه ، فمدة الوحى إليه فى اليقظة ثلاث وعشرون سنة . وقد قيل : حصل ابتداء الرؤيا فى شهر ربيع الأول وهو مولده — عليه السلام — ثم أوحى إليه فى اليقظة فى رمضان فى أثناء تحنثه فى غار حراء .

وقيل إنه — ﷺ — مكث خمس عشرة سنة يسمع الصوت أحيانا ولا يرى شخصا ، وسبع سنين يرى نورا ولم ير شيئا غير ذلك ، وأن المدة التى بشر فيها بالنبوة كانت ستة أشهر من تلك المدة التى هى اثنتان وعشرون سنة ، وعلى الرغم من ذلك الإعداد الطويل فإنه فر فى الأرض مرعوبا لما خاطبه الملك ، لأن رؤيا ملك من الملائكة وسماع صوت من غير أصوات البشر شىء فوق طاقة الإنسان . وقد كان صادقا لما قال لخديجة : لقد أشفقت على نفسى .

وقيل : إن رسول الله — ﷺ — خرج فى شهر رمضان الذى أراد الله تعالى به ما أراد من كرامته — عليه السلام — إلى حراء ، كما كان يخرج لجواره ومعه أهله ، ولكنى لم آخذ بهذا الرأى لأنه لو كان قد خرج ومعه خديجة — رضى الله تعالى عنها — لفزع إليها لما فاجأه الملك ، ولما فر هاربا إلى وسط الجبل . ولو كان معه فاطمة وعلى بن أبى طالب وزيد بن حارثة وأم أيمن للاذ بهم من خوفه ولورد ذلك فى أحاديثهم ، وإنه لشرف عظيم يروى أن يكون أحدهم فى صحبة الرسول — صلوات الله وسلامه عليه — ليلة أن أنزل عليه

الوحى .

وقيل إن ابتداء الوحى كان فى شهر رمضان : ﴿ شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن ﴾(١) ولكن بعض المفسرين قال بأن المراد بنزول القرآن فى رمضان نزوله جملة واحدة فى ليلة القدر إلى بيت العزة فى سماء الدنيا .

وقال بعض المفسرين والإخباريين إن ابتداء الوحى كان فى السابع عشر من رمضان ، مستشهدين بقول الله تعالى : ﴿ إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان ﴾(٢) . وكان التقاء الجمعين : المسلمين والمشركين فى السابع عشر من رمضان من السنة الثانية للهجرة . وقال آخرون إن ابتداء نزول القرآن كان فى سحر ليلة الاثنين السابع والعشرين من رمضان ، مؤيدين قولهم بأن « هى » التى جاءت فى سورة القدر : ﴿ إنا أنزلناه فى ليلة القدر * وما أدراك ما ليلة القدر * ليلة القدر خير من ألف شهر * تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر * سلام هى حتى مطلع الفجر ﴾(٣) . هى الكلمة السابعة والعشرون من السورة ، وقد جاء ذلك لتأكيد أن ليلة القدر كانت فى السابع والعشرين من رمضان !

وقد جزم الإمام أبى حنيفة بأن أول نزول القرآن على الرسول — ﷺ — ، كان فى سحر ليلة الاثنين السابع والعشرين من رمضان .

وقد اتفق الرواة فى معنى الحوار الذى دار بين محمد — ﷺ — وجبريل الأمين وإن اختلفوا فى اللفظ ، وقد وجد المستشرقون فى بعض

---

(١) البقرة ١٨٥ (٢) الأنفال ٤١ (٣) سورة القدر

الروايات وهى رواية ابن إسحاق فى السيرة النبوية لابن هشام بالتحديد ، ما يحاولون أن ينكروا به عدمَ معرفة الرسول — ﷺ — بالقراءة والكتابة ، ولا أقول أمية الرسول ، فقد سبق فى الأجزاء السابقة أن وضحت أن صفة الأمية التى جاءت فى القرآن إنما يقصد بها النسبة إلى الأمم ، أى من لم يكونوا من بنى إسرائيل : ﴿ هو الذى بعث فى الأميين رسولا ﴾[(١)].. أى فى الأمم ، ﴿ النبى الأمى ﴾[(٢)] أى النبى الذى جاء من غير بنى إسرائيل ، أما عدم معرفة الرسول القراءة والكتابة فقد وضحها القرآن الكريم بقوله ﴿ وما كنت تخطه بيمينك ﴾[(٣)] .

جاء فى البخارى عن عائشة أم المؤمنين أنها قالت : « أول ما بدئ به رسول الله — ﷺ — من الوحى الرؤيا الصالحة فى النوم ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ، ثم حبب إليه الخلاء وكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه ، وهو التعبد الليالى ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله ويتزود لذلك ، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها حتى جاءه الحق[(٤)] وهو فى غار حراء فجاءه الملك فقال : اقرأ . قال : ما أنا بقارئ . قال : فأخذنى فغطنى[(٥)] حتى بلغ منى الجهد ثم أرسلنى فقال : اقرأ . قلت : ما أنا بقارئ . فأخذنى فغطنى الثانية حتى بلغ منى الجهد ثم أرسلنى فقال : اقرأ . فقلت : ما أنا بقارئ . فأخذنى فغطنى الثالثة ثم أرسلنى فقال : ﴿ اقرأ باسم ربك الذى خلق * خلق الإنسان من علق * اقرأ وربك الأكرم ﴾[(٦)] فرجع بها رسول الله — ﷺ — يرجف فؤاده ... » .

---

(١) الجمعة ٢ (٢) الأعراف ١٥٨ (٣) العنكبوت ٤٨

(٤) أى الأمر الحق (٥) أى ضمنى وعصرنى (٦) العلق ١ : ٣

أما رواية ابن إسحاق فتقول : ... حتى إذا كان الشهر الذى أراد الله تعالى به فيه ما أراد من كرامته فى السنة التى بعثه الله تعالى فيها ، وذلك الشهر شهر رمضان ، خرج رسول الله — ﷺ — إلى حراء كما كان يخرج لجواره ومعه أهله ، حتى إذا كانت الليلة التى أكرمه الله فيها برسالته ورحم العباد منها ، جاءه جبريل عليه السلام بأمر الله تعالى . قال رسول الله — ﷺ — : فجاءنى جبريل وأنا نائم ، بنمط من ديباج فيه كتاب فقال : اقرأ . قال : قلت : ما أقرأ . قال : فغتنى[1] به حتى ظننت أنه الموت ثم أرسلنى فقال : اقرأ . قال : ما أقرأ . قال : فغتنى به حتى ظننت أنه الموت ثم أرسلنى فقال : اقرأ . قال : قلت : ما أقرأ . قال : فغتنى به حتى ظننت أنه الموت ثم أرسلنى فقال : اقرأ . قال : قلت : ماذا أقرأ ؟ ما أقول ذلك إلا افتداء منه أن يعود لى بمثل ما صنع بى ، فقال : ﴿ اقرأ باسم ربك الذى خلق * خلق الإنسان من علق * اقرأ وربك الأكرم * الذى علم بالقلم * علم الإنسان ما لم يعلم ﴾[2] قال : فقرأتها ثم انتهى فانصرف عنى وهببت من نومى فكأنما كتبت فى قلبى كتابا .

جاء فى رواية البخارى أن الرسول — ﷺ — قال لجبريل : ما أنا بقارئ . أما فى رواية إسحاق ، فقد قال — ﷺ — فى المرة الأولى والثانية « ما أقرأ » . وفى الثالثة « ماذا أقرأ ؟ » ولو أن ما أقرأ وما أنا بقارئ تعنيان معنى واحدا « فما » فى الجملة الأولى كـ « ما » فى الجملة الثانية أداة نفى لا استفهام ، إلا أن بعض المستشرقين رأوا أنها « ما »

---

(١) الغت : حبس النفس

(٢) العلق ١ : ٥

استفهامية ، وأن رواية ابن إسحاق وقد جاء فيها أن فى المرة الثالثة قال الرسول — ﷺ — : ماذا أقرأ ؟، تؤكد معنى الاستفهام ، وأغفلوا تدارك ابن إسحق ذلك بقوله على لسان محمد — ﷺ — : ما أقول ذلك إلا افتداء منه لأن يعود لى بمثل ما صنع بى .

وقال المستشرقون لو أن جبريل كان يعلم أن محمدا — ﷺ — لا يعرف القراءة لما جاءه بنمط من ديباج فيه كتاب ولا قال له : اقرأ . ولما كانت رواية ابن إسحاق تؤكد أن أول ما جاء الوحى إلى محمد — ﷺ — كان وهو نائم . فقد قال بعض المفسرين إن الإنسان فى نومه يستطيع أن يفعل أشياء لا يقوم عليها فى اليقظة ، وأن القراءة فى النوم محتملة لمن لا يعرف القراءة ، ولكنى لا آخذ بهذا الرأى وسأوضح أن الحوار الذى كان بين جبريل وبين محمد — ﷺ — كان فى اليقظة وأن رواية ابن إسحاق محض خيال .

لم يأت نمط الديباج ذكر فى حديث عائشة ، ولم تقل عائشة إن الوحى نزل على الرسول — ﷺ — وهو نائم . ثم إن رواية ابن إسحاق لا يعول عليها لأنه يرويها عن وهب بن كيسان عن عبيد بن عمير وهو من التابعين ، وليس فى الحديث صحابى واحد ممن صاحب الرسول — ﷺ — ، وعلى ذلك فالحديث مرسل ليس فى مرتبة الصحيح ولا يحتج به .

ومما يؤكد أن حديث النمط والديباج والكتاب المكتوب مجرد خيال فإنه لم يثبت أن الوحى نزل يوما على محمد — ﷺ — بقرآن مكتوب —

﴿ ولو نزلنا عليك كتابا فى قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين ﴾[١] . ولم يفهم محمد — ﷺ — أن جبريل يريد منه أن يقرأ من صحيفة ولكنه فهم أنه يريد منه أن يتلو شيئا ، وما كان محمد — عليه السلام — بقادر أن يتلو من الكتب السابقة على القرآن فإنه كان يتلقى الحكمة من ربه مباشرة بتجلية قلبه وترصد ما يهبط عليه من خزائن الملكوت ، وعلى ذلك ترجح رواية عائشة التى يقول فيها الرسول — ﷺ — « ما أنا بقارئ » . على رواية « ماذا أقرأ » التى أثبتها ابن إسحاق فى السيرة .

والقراءة فى القرآن وفى الحديث استعملت بمعنى التلاوة ، وإن دعوة أبينا إبراهيم وإسماعيل إذ يرفعان القواعد من البيت وما فى سورة الإسراء يوضح هذا المعنى : ﴿ ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم .. ﴾[٢] . وفى سورة الإسراء : ﴿ وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ﴾[٣] . فتارة يستعمل القرآن الكريم التلاوة وتارة يستعمل القراءة ويقصد فى الحالتين التلاوة ولا شك .

واختلف المفسرون والإخباريون فيما إذا كانت النبوة والرسالة مقترنين أم أن النبوة قد بدأت بنزول ﴿ اقرأ باسم ربك الذى خلق ﴾ . ثم كانت فترة الوحى مدة تتراوح بين ثلاث سنين وسنتين ونزول ﴿ يأيها المدثر ﴾ . فكانت الرسالة بناء على أن الرسالة كانت بيأيها المدثر .

(١) الأنعام ٧ (٢) آل عمران ١٦٤ (٣) الإسراء ١٠٦

صرح بعضهم بأن الله سبحانه وتعالى نبأه بقوله ﴿ اقرأ بسم ربك ﴾ وأرسله بقوله ﴿ يأيها المدثر * قم فأنذر * وربك فكبر * وثيابك فطهر ﴾(١) وأن بينهما فترة الوحى ، وعليه أكثر الروايات . ولو أن بعضهم أكد أن أكثر الروايات على ذلك فلم آخذ بهذا الرأى ، بل أخذت بالرأى القائل بأن جبريل قال له صراحة : أنا جبريل وأنت محمد رسول الله . وإلا لما دعا خديجة وبناته إلى الإسلام ، ولما دعا على بن أبى طالب وزيد بن حارثة وأبا بكر وأوائل الصحابة قبل أن يؤمر بذلك .

كانت الدعوة سرا مذ قال له جبريل إنه رسول الله ، وقد أمره الله سبحانه وتعالى بالجهر بالدعوة لما نزلت : ﴿ واصدع بما تؤمر ﴾(٢) .

واختلف المفسرون فى أول ما نزل من القرآن ، فقد رأى بعضهم أن البسملة أول ما نزل ، ويؤيدون ذلك بما كان بين محمد ـ ﷺ ـ وبين خديجة يوم أن كان فى الغار وسمع صوتا يناديه فانطلق إليها مرعوبا يقول : إنى إذا خلوت سمعت نداء ! فقد والله خشيت أن يكون هذا أمرا . فقالت له خديجة : معاذ الله ! ما كان الله ليفعل بكَ ، فوالله إنك لتؤدى الأمانة وتصل الرحم وتصدق الحديث . فعاد إلى الغار وثبت بعد نصيحة ورقة له ، فلما ناداه الملك : يا محمد . قل ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم * الحمد لله رب العالمين ﴾ . حتى بلغ ﴿ ولا الضالين ﴾ .

قال بهذا القول البيهقى والواحدى والحديث الذى اعتمدا عليه مرسل ، بينا حديث صحيح البخارى يؤكد أن أول ما نزل على الرسول

---

(١) المدثر ١ : ٤ (٢) الحجر ٩٤

— ﷺ — من القرآن هو مطالع العلق ، ومطالع المدثر . ومما يثبت تأخر نزول فاتحة الكتاب أن بعض المفسرين قالوا إنها مدنية ، أى أنها تأخرت إلى ما بعد الهجرة ، وقال بعضهم إنها مكية ، وأراد بعضهم الآخر أن يوفق بين الرأيين فقال إنها مرتين مرة فى مكة ومرة فى المدينة ، وعند الأكثرين هى مكية من أوائل ما نزل من القرآن وليست أول ما نزل منه ، فهى أنسب للعبادة وصيغة المتكلم الجمع فيها تفيد أنها نزلت فى وقت كان الإسلام فيه قد عرف طريقه إلى قلوب جماعة تقول : نعبد ونستعين واهدنا بصيغة الجمع .

وقيل إن أول ما نزل من القرآن سورة ﴿ المدثر ﴾ استنادا إلى ما قاله جابر بن عبد الله الأنصارى لما سأله سلمة بن عبد الرحمن : أى القرآن أنزل قبل ؟ قال : ﴿ أيها المدثر ﴾ قال سلمة : أو « اقرأ باسم ربك ﴾ ؟ قال جابر : أحدثكم ما حدثنا رسول الله — ﷺ — . قال رسول الله — ﷺ — : ﴿ إنى جاورت بحراء شهرا ، فلما قضيت جوارى نزلت فاستنبطت بطن الوادى ، فنوديت فنظرت أمامى وخلفى وعن يمينى وعن شمالى ثم نظرت فى السماء فإذا هو على الفرس فى الهواء — يعنى جبريل — فأخذتنى رجفة فأتيت خديجة فأمرتهم فدثرونى ثم صبوا على الماء ، فأنزل الله على : ﴿ يأيها المدثر * قم فأنذر ﴾ .

وهذا ليس بمخالف للقول بأن ﴿ اقرأ ﴾ أول ما نزل من القرآن ، وذلك أن جابرا سمع من النبى — ﷺ — القصة الأخيرة ولم يسمع أولها ، فتوهم أن سورة المدثر أول ما نزل وليس كذلك ، ولكنها أول

ما نزل عليه بعد سورة اقرأ . والذى يدل على ذلك حديث الزهرى عن جابر قال : سمعت النبى ــ ﷺ ــ وهو يحدث عن فترة الوحى فقال فى حديثه : « فبينا أنا أمشى سمعت صوتا من السماء ، فرفعت رأسى فإذا الملك الذى جاءنى فى حراء جالسا على كرسى بين السماء والأرض ، فجئثت منه رعبا ، فرجعت فقلت : زملونى .. زملونى ، فدثرونى فأنزل الله ﴿ يأيها المدثر ﴾ .

ومن هذا الحديث يتضح أن الوحى كان قد فتر بعد نزول ﴿ اقرأ باسم ربك ﴾ . ثم نزل ﴿ يأيها المدثر ﴾ ، والذى يوضح ما قلنا إخبار النبى ــ ﷺ ــ أن الملك الذى جاء بحراء جالس فدل على أن هذه القصة إنما كانت بعد نزول اقرأ .

وعلى ذلك تكون مطالع العلق أول ما نزل من القرآن فى غار حراء ، وتكون المدثر أول ما نزل فى دار خديجة بعد الآيات الخمس الأولى من سورة العلق ، أما الفاتحة فقد تأخر نزولها حتى ذاع الإسلام بين جماعة المسلمين الأوائل ليسألوا الله أن يهديهم الصراط المستقيم فى صلواتهم .

على أى صورة كان الوحـــى يأتى الـــرسول ــ ﷺ ــ ؟ قال ــ ﷺ ــ : إن جبريل يأتينى فيكلمنى كما يأتى أحدكم صاحبه فيكلمه ويبصره من غير حجاب . وفى رواية : كنت أراه أحيانا كما يرى الرجل صاحبه من وراء الغربال .

وقال ــ ﷺ ــ : إن روح القدس نفث فى روعى أن نفسا لن تموت حتى تستكمل أجلها ورزقها ، فاتقوا الله وأجملوا فى الطلب .

وسأل الحارث بن هشام ـــ أخو أبى جهل ـــ الرسول عليه السلام : كيف يأتيك الوحى ؟ قال : أحيانا يأتينى مثل صلصلة الجرس وهو أشد على فيفصم عنى وقد وعيت ما قال . وفى رواية : يأتينى أحيانا له صلصلة كصلصلة الجرس وأحيانا يتمثل لى الملك رجلا فيكلمنى فأعى ما يقول .

وكان ـــ ﷺ ـــ يجد ثقلا عند نزول الوحى ويتحور جبينه عرقا فى البرد كأنه الجمان ، وربما غط كغطيط البكر محمرة عيناه .

وعن زيد بن ثابت رضى الله تعالى عنه : كان إذا نزل الوحى على رسول الله ـــ ﷺ ـــ ثقل ذلك ، ومرة وقع فخذه على فخذى فوالله ما وجدت شيئا أثقل من فخذ رسول الله ـــ ﷺ ـــ .

وربما أوحى إليه وهو على راحلته فترعد حتى يظن أن ذراعها ينفصم ، وربما بركت ، وجاءه أنه لما نزلت سورة المائدة عليه ـــ ﷺ ـــ كان على ناقته فلم تستطع أن تحمله فنزل عنها .

وجاء على لسان محمد ـــ ﷺ ـــ : ما من مرة يوحى إلى إلا ظننت أن نفسى تقبض منى . وعن أسماء بنت عميس : كان رسول الله ـــ ﷺ ـــ إذا نزل عليه الوحى يكاد يغشى عليه . وذكر بعض العلماء أنه ـــ ﷺ ـــ كان يؤخذ عن الدنيا .

وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة : كان رسول الله ـــ ﷺ ـــ إذا نزل عليه الوحى لم يستطع أحد منا يرفع طرفه إليه حتى ينقضى الوحى .

وعن يزيد بن ثابت رضى الله تعالى عنه : كان إذا نزل على رسول الله السور الشديدة أخذه من الشدة والكرب على قدر شدة السور ، وإذا نزل

عليه السور اللينة أصابه من ذلك على قدر لينها .

وعن عمر رضى الله عنه : كان إذا نزل على رسول الله — ﷺ — الوحى يسمع عند وجهه كدوى النحل .

وعن عائشة وابن مسعود رضى الله تعالى عنهما : أن النبى — ﷺ — لم ير جبريل على صورته التى خلقه الله عليها إلا مرتين : حين سأله أن يريه نفسه فقال : وددت أنى رأيتك فى صورتك ، والأخرى ليلة الإسراء .

وعلى ذلك يكون الوحى بأن يرى النبى عليه الصلاة والسلام جبريل فى صورة آدمى ، وقد جاءه فى صورة دحية الكلبى وغيره ، أو بالنفث فى الروع ، أو يأتيه أحيانا بصوت له صلصلة الجرس ، أو يراه على هيئته التى خلقه الله عليها ، وما كان الله يكلم أنبياءه إلا وحيا أو من وراء حجاب : ﴿ وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا ﴾(١) .

وقد وجدت الرغبة فى العلم بالغيب واستطلاع المجهول منذ أقدم العصور ، وقد شاعت الكهانة فى العرب وهى ادعاء علم الغيب كالإخبار بما سيقع فى الأرض مع الاستناد إلى سبب . والأصل فيها استراق الجنى السمع من كلام الملائكة فيلقيه فى أذن الكاهن ، والكاهن لفظ يطلق على العراف والذى يضرب بالحصى والمنجم .

والعرب تسمى كل من أذن بشىء قبل وقوعه كاهنا . وكانت الكهانة فى الجاهلية فاشية فيهم لانقطاع النبوة فيهم ، وعرف العرب العرافة وصاحبها

---

(١) الشورى ٥١

عراف ، وهو الذى يستدل على الأمور بأسباب ومقدمات يدعى معرفتها بها : كالزجر والطرق بالحصى ، وقد جاء فى الحديث الشريف : « من أتى كاهنا أو عرافا فصدقه بما يقول ، فقد كفر بما أنزل على محمد » .

وقد أطال ابن خلدون فى مقدمته عندما تكلم عن الكهانة فقال : وأما الكهانة فهى أيضا من خواص النفس الإنسانية ، وذلك أن للنفس البشرية استعدادا للانسلاخ من البشرية إلى الروحانية التى فوقها ، وأنه يحصل من ذلك لمحة للبشر فى صنف الأنبياء بما فطروا عليه من ذلك ، وتقرر أنه يحصل لهم من غير اكتساب ولا استعانة بشىء من المدارك ولا من التصورات ولا من الأفعال البدنية كلاما أو حركة ، ولا بأمر من الأمور ، إنما هو انسلاخ من البشرية إلى الملكية بالفطرة فى لحظة أقرب من لمح البصر . وإذا كان كذلك وكان ذلك الاستعداد موجودا فى الطبيعة البشرية فيغطى التقسيم العقلى أن هناك صنفا آخر من البشر ناقصا عن رتبة الصنف الأول نقصان الضد عن ضده الكامل ، لأن عدم الاستعانة فى ذلك الإدراك ضد الاستعانة فيه وشتان ما بينهما ! فإذا أعطى تقسيم الوجود أن هناك صنفا آخر من البشر مفطورا على أن تتحرك قوته العقلية حركتها الفكرية بالإرادة عندما يبعثها النزوع لذلك وهى ناقصة عنه بالجبلة ، فيكون لها بالجبلة عندما يعوقها العجز عن ذلك تشبث بأمور جزئية محسوسة أو متخيلة : كالأجسام الشفافة وعظام الحيوانات وسجع الكلام وما سنح من طير أو حيوان . فيستديم ذلك الإحساس أو التخيل مستعينا به فى ذلك الانسلاخ الذى يقصده ويكون كالمشيع له . وهذه القوة التى فيهم مبدأ لذلك الإدراك هى الكهانة ، ولكون هذه النفوس

مفطورة على النقص والقصور عن الكمال كان إدراكها فى الجزئيات أكثر من الكليات ، ولذلك تكون المخيلة فيهم فى غاية القوة لأنها آلة الجزئيات فتنفذ فيها نفوذا تاما فى نوم أو يقظة ، وتكون عندها حاضرة عتيدة تحضرها بالمخيلة ، وتكون لها كالمرآة تنظر فيها دائما ، ولا يقوى الكاهن على الكمال فى إدراك المعقولات لأن وحيه من وحى الشيطان ، وأرفع أحوال هذا الصنف أن يستعين بالكلام الذى فيه السجع والموازنة ليشتغل به عن الحواس ، ويقوى بعض الشيء على ذلك الاتصال الناقص فيهجس فى قلبه فى تلك الحركة ، والذى يشيعها من ذلك الأجنبى ما يقذفه عن لسانه ، فربما صدق ووافق وربما كذب لأنه يتمم نقصه بأمر أجنبى عن ذاته المدركة ، ومباين لها غير ملائم ؛ فيعرض له الصدق والكذب جميعا ولا يكون موثوقا به .

وربما يفزع إلى الظنون والتخمينات حرصا على الظفر بالإدراك بزعمه وتمويها على السائلين . وأصحاب هذا السجع هم المخصصون باسم الكهان لأنه أرفع سائر أصنافهم ، وقد قال النبى — ﷺ — فى مثله : هذا من سجع الكهان ، فجعل السجع مختصا بهم بمقتضى الإضافة ، وقد قال لابن صياد(١) حين سأله كاشفا عن حاله بالاختبار : كيف يأتيك هذا الأمر ؟ قال ابن صياد : يأتينى صادق وكاذب . فقال : خلط عليك الأمر . يعنى أن النبوة خاصتها الصدق فلا يعتريها الكذب بحال لأنها اتصال من ذات النبى بالملأ الأعلى من غير مشيع ولا استعانة بأجنبى .

---

(١) رجل من اليهود عنده شيء من الكهانة والسحر .

والكهانة لما احتاج صاحبها بسبب عجزه إلى الاستعانة بالتصورات الأجنبية كانت داخلة فى إدراكه والتبست بالإدراك الذى توجه إليه فصارت مختلطا بها ، وطرقه الكذب من هذه الجهة فامتنع أن تكون نبوة ، وإنما قلنا إن أرفع مراتب الكهانة حالة السجع لأن معنى السجع أخف من سائر المغيبات من المرئيات والمسموعات ، وتدل خفة المعنى على قرب ذلك الاتصال والإدراك والبعد فيه عن العجز بعض الشيء .

وقد زعم بعض الناس أن هذه الكهانة قد انقطعت منذ زمن النبوة بما وقع من شأن رجم الشياطين بالشهب بين يدى البعثة ، وأن ذلك كان لمنعهم من خبر السماء كما وقع فى القرآن ، والكهان إنما يتعرفون أخبار السماء من الشياطين فبطلت الكهانة من يومئذ ، ولا يقوم من ذلك دليل لأن علوم الكهان كما تكون من الشياطين تكون من نفوسهم أيضا كما قررنا ، وأيضا فالآية إنما دلت على منع الشياطين من نوع واحد من أخبار السماء وهو ما يتعلق بخبر البعثة ولم يمنعوا مما سوى ذلك ، وأيضا فإنما كان ذلك الانقطاع بين يدى النبوة فقط . ولعلها عادت بعد ذلك إلى ما كانت عليه وهذا هو الظاهر ، لأن هذه المدارك كلها تخمد فى زمن النبوة كما تخمد الكواكب والسرج عند وجود الشمس ، لأن النبوة هى النور الأعظم الذى يخفى معه كل نور ويذهب . وقد زعم بعض الحكماء أنها إنما توجد بين يدى النبوة ثم تنقطع ، وهكذا مع كل نبوة وقعت لأن وجود النبوة لا بد له من وضع فلكى يقتضيه ، وفى تمام ذلك الوضع تمام تلك النبوة التى دل عليها ، ونقص ذلك الوضع عن التمام يقتضى وجود طبيعة من ذلك

النوع الذى يقتضيه ناقصة ، وهو معنى الكاهن على ما قررناه . فقبل أن يتم ذلك الوضع الكامل يقع الوضع الناقص ويقتضى وجود الكاهن إما واحدا أو متعددا ، فإذا تم ذلك الوضع تم وجود النبى بكماله وانقضت الأوضاع الدالة على مثل تلك الطبيعة فلا يوجد منها شىء بعد . وهذا بناء على أن بعض الوضع الفلكى يقتضى بعض أثره وهو غير مسلَّم . فلعل الوضع إنما يقتضى ذلك الأثر بهيئته الخاصة ، ولو نقص بعض أجزائها فلا يقتضى شيئا لا أنه يقتضى ذلك الأثر ناقصا كما قالوه .

ثم إن هؤلاء الكهان إذا عاصروا زمن النبوة فإنهم عارفون بصدق النبى ودلالة معجزته لأن لهم بعض الوجدان من أمر النبوة ، ولا يصدهم عن ذلك ويوقعهم فى التكذيب إلا قوة المطامع فى أنها نبوة لهم فيقعون فى العناد كما وقع لأمية بن أبى الصلت فإنه كان يطمع أن يكون نبيا ، وكذا وقع لابن الصياد ولمسيلمة وغيرهم . فإذا غلب الإيمان وانقطعت تلك الأمانى آمنوا أحسن إيمان كما وجب لطليحة الأسدى[1] وسواد بن قارب وكان لهما من الفتوحات الإسلامية ما شهد بحسن الإيمان .

وقال الأصفهانى فى كتاب الذريعة : « الكهانة مختصة بالأمور المستقبلة ، والعرافة بالأمور الماضية » . وعرفها بعضهم بقوله : « العرافة الاستدلال ببعض الحوادث الخالية على الحوادث الآتية بالمناسبة أو المشابهة الخفية التى تكون بينهما ، أو الاختلاط أو الارتباط على أن يكونا

---

(١) هو طليحة بن خويلد بن نوفل بن فضلة الأسدى ، كان يعد بألف فارس ثم تنبأ ثم أسلم وحسن إسلامه .

معلولى أمر واحد ، أو أن يكون ما فى الحال علة لما فى الاستقبال ، وشرط كون الارتباط المذكور خفيا لا يطلع عليه إلا الأفراد ، وذلك إما بالتجارب أو بالحالة المودعة فى أنفسهم عند الفطرة » .

وأما الزجر فهو الاستدلال بأصوات الحيوانات وحركاتها وسائر أحوالها على الحوادث واستعلام ما غاب عنهم . وقال ابن خلدون : وأما الزجر فهو ما يحدث من بعض الناس من التكلم بالغيب عند سنوح طائر أو حيوان والفكر فيه بعد مغيبه ، وهى قوة فى النفس تبعث على الحرص والفكر فيما زجر فيه من مرئى أو مسموع . وتكون قوته المخيلة قوية فيبعثها فى البحث مستعينا بما رآه أو سمعه فيؤديه ذلك إلى إدراك ما كما تفعله القوة المتخيلة فى النوم ، وعند ركود الحواس تتوسط بين المحسوس والمرئى فى يقظة فتجمعه مع ما عقلته فيكون عنها الرؤيا .

قال الأستاذ عباس محمود العقاد فى كتابه « مطلع النور أو طوالع البعثة المحمدية » : من قديم الزمن وجدت الرغبة فى العلم بالغيب واستطلاع المجهول ، ووجدت لذلك علامات كثيرة يتفق عليها عامة من قبيل زجر الطير والتفاؤل بالكلام المسموع والمناظر التى تبشر بالخير والنجاح ، أو تنذر بالشر والخيبة .

هذه العلامات العامة كانت معرفة شائعة بين الناس لا يختص بها أحدهم دون غيره ، فكل ما عرفه الناس قديما من علامات التفاؤل أو علامات التشاؤم فهو ميراث الجماعة يتناقلونه على وتيرة واحدة من الآباء إلى الأبناء .

لكن الرغبة فى استطلاع الغيب ومواجهة المجهول لم تكن كلها من هذا القبيل ، ولا سيما المجهول الذى يعرفه الآلهة وحدهم ولا يكشفونه لغير المقربين من عبادهم ، وهم خدام معابدهم والأمناء على مشيئتهم والمترقبون لوحيهم فى ليلهم ونهارهم . فربما عرض للقبيلة عارض جسيم لا تعرف وجهتها فيه ولا يدلها على هذه الوجهة طير يراه فرد من أفرادها على صورة من الصور أو كلمة يسمعها من عابر طريق يستوحى منها البشارة أو الإنذار ، فإن شئون الفرد غير شئون القبيلة ، وليس لفرد من عامة أفرادها أن يدعى لنفسه القدرة على سؤال أربابها والفهم عنهم فى معابدهم ومحاريبهم مع وجود الكاهن الذى انقطع لخدمة الأرباب وورث هذه الخدمة من آبائه وأجداده فى أكثر الأحوال ، ولا مع وجود الكاهن الذى تربى من صباه فى مهد العبادة ليتقرب من الأرباب المعبودين ويفقه عنهم من إشاراتهم ومضامين وحيهم ما يخفى على سواه .

ومن قديم الزمن أيضا وجد الكاهن « المختص » ووجد « الرائى » الملهم الذى يختاره الإلـه للنطق بلسانه والجهر بوعده ووعيده ، ولم يكن بين عمل الكاهن وعمل الرائى تناقض فى مبدأ الأمر لأن كلام الرائى كان يحتاج إلى تفسير الكاهن وحل رموزه ونفى « النفاية » من خلطه واضطرابه . إذ كان الغالب على الرائين أنهم قوم تملكهم حالة « الوجد » أو « الجذبة » أو « الصراع » فيتدفقون بالوعد والوعيد وينذرون الناس بالويل والثبور ويقولون كلاما لا يذكرونه وهم مفيقون ، فيحسب السامعون أن الوثن المعبود يجرى هذا الكلام على ألسنتهم للموعظة

والتبصرة ، وسمى الصرع من أجل هذا بالمرض الإلٰهى فى الطب القديم .

وكان اليونان يسمون الرائى مانتى Manotos ، ويسمون المعبر عنه أو المفسر لكلامه Prophet أى المتكلم بالنيابة عن غيره قبل أن تطلق هذه الكلمة على النبي بمعناها المأثور فى الأديان الكتابية ، ولكن الفرق بين الرائى والكاهن لم يزل ملحوظا فى الأزمنة المتأخرة كما كان ملحوظا فى الأزمنة الغابرة ، فالكهانة وظيفة والرؤية طبيعة ، والكاهن يقصد ما يقوله والرائى يساق إليه ، وقد تشترك الكهانة والرؤية فى شخص واحد ويظل العملان مختلفين ، فما يقوله الكاهن قصدا غير ما يقوله وهو « راء » ينطق لسانه بما يعيه وما لا يعيه .

ويصطدم العملان كثيرا بعد ارتقاء الديانة وامتزاجها بالفضائل الأخلاقية والفرائض الأدبية ، فإن الكهان فى هذه الحالة يجمدون أحيانا على المراسم والشعائر ويحافظون على مناصبهم بالتماس الحظوة عند ذوى السلطان فى بلادهم ويومئذ يختلف عمل الكاهن المرسوم وعمل الرائى المتطوع ، فيثور الرائى على الكاهن ويتهمه فى أمانته وإيمانه ويحدث بينهما ما حدث بين « أمصيا » كاهن بيت إيل و« عاموس » الرائى « أيها الرائى اذهب .. اهرب إلى أرض يهود وكل هناك خبزا وكن هناك نبيا ، وأما بيت إيل فلا تعد تتنبأ فيها بعد ، لأنها مقدس الملك وبيت الملك » .

وقد وجدت الكهانة والرؤية بين العبرانيين من أقدم عصورهم كما وجدت فى سائر الأمم ، ولم يسموا الرائى عندهم باسم النبى إلا بعد اتصالهم بالعرب فى شمال الجزيرة .. إذ وجدت كلمة النبوة فى اللغة العربية

غير مستعارة من معنى آخر ، لأن اللغة العربية غنية جدا بكلمات العرافة والعيافة والكهانة وما إليها من الكلمات التى لا تلتبس فى اللسان العربى بمعنى النبوة كما تلتبس فى الألسنة الأخرى .

والعبريون قد استعاروها من العرب فى شمال الجزيرة بعد اتصالهم بها ، لأنهم كانوا يسمون الأنبياء الأقدمين بالآباء ، وكانوا يسمون المطلع على الغيب بعد ذلك باسم الرائى والناظر ، ولم يفهموا من كلمة النبوة فى مبدأ الأمر إلا معنى الإنذار .. وقد أشارت التوراة إلى ثلاثة أنبياء من العرب غير ملكى صادق الذى لقيه الخليل عند بيت المقدس ... وهم : يثرون (شعيب) وبلعام وأيوب .. ويعزز هذا الرأى ما جاء فى موسوعة الكلمات اللاهوتية A Theological Word Book of The Bible, edited by Richardson فى التوراة عن عالمين من أكبر علماء التاريخ العبرى وهما هولشر وشميدت ، فإنهما يرجحان أن كلمة النبوة مما استفاده العبريون من أهل كنعان بعد وفودهم على فلسطين .

ويقول الأستاذ العقاد فى كتابه : « عرف الأقدمون من العرب والعبريين كلمة النبوة قبل مبعث موسى عليه السلام ، ولكنها لم ترتفع بينهم إلى مكانتها الجليلة التى نعهدها اليوم دفعة واحدة ، وغبر عليهم دهر طويل وهم يخلطون بينها وبين كل علاقة بالغيب وينتظرون منها الكذب كما ينتظرون منها الصدق شأنها فى ذلك كشأن غيرها من الدلالات على المجهول ، فخلطوا بينها وبين الجنون كما خلطوا بينها وبين السحر والكهانة والتنجيم والشعر . وأضعف من شأن النبوة عند بنى إسرائيل خاصة أن

الأنبياء بينهم كثروا وتعددت نبوءاتهم فى وقت واحد ، فتناقضوا وأشار بعضهم بما ينهى عنه الآخرون فأصبح الأنبياء عندهم فريقين يتشابهون فى المسلك والمظهر ويختلفون بالصدق والكذب ، ولا سبيل إلى معرفة الصادق والكاذب بغير امتحان الحوادث التى تأتى أحيانا بعد نسيان ما تقدم من النبوءات .

وغلبت عليهم عقيدة شائعة بذهول النبى وغيابه عن الوعى فى جميع أيامه وفى الأيام التى يملكه فيها الوجد الإلٰهى على الخصوص ، كأنهم يرون أن الغيبوبة والاتصال بالغيب شيء واحد ، وكأنهم يحسبون أن الانقطاع عن شواغل الدنيا آية على صدق النبى وإقباله بجملته على الله » .

ولعل الكتاب الغربيين الذين تناولوا حياة نبى الإسلام كانوا متأثرين بصورة النبوة فى التوراة وبوصف الأنبياء الذى جاء فى سفر صمويل « إنه يكون عند مجيئك إلى المدينة أنك تصادف زمرة من الأنبياء نازلين من الأكمة وأمامهم رباب ودف وناى وعود وهم يتنبأون ، فيحل عليك روح الرب فتتنبأ معهم وتتحول إلى رجل آخر » . فحسبوا أن محمدا — ﷺ — مثل أنبياء بنى إسرائيل المتنبئين بالعيدان والرباب والصنوج . فاتهموه بالكذب والخداع ، وراحوا يؤكدون أن الوحى الذى ينزل عليه إن هو إلا مرض من الأمراض وصفه أغلبهم بأنه الصرع وقال آخرون إنه الملاريا ، كأنما الصرع والملاريا أو نحوهما من الأمراض ترفع من شأن الإنسان حتى يصير نبيا أو مشرعا ذا سلطان .

وقد انبرى ر . ف . بودلى فى كتابه (الرسول . حياة محمد)[1]

---

(١) ترجمة محمد محمد فرج وعبد الحميد جودة السحار .

لدحض افتراءات الغربيين على رسول رب العالمين — ﷺ — ، فقال فى تقديم الكتاب عند الحديث عن سير الرسول التى كتبها الغربيون والشرقيون على السواء :

« جميع هذه السير ينقصها شىء ، إنها غير كاملة وقد أخفقت فى عرض موضوعها من كل الزوايا ، فإن محمد يظهر عادة كصورة محددة على حائط أبيض ، قد تكون الصورة روحية أو مادية أو مخيبة للآمال ، وأيا كانت الصورة فإنها منعزلة ، فمن النادر أن نجد الظلال والبيئة ، وإن الصورة لتبدو صورة باهتة ألصقت على ورق مقوى ملطخ ، وما كان محمد سهلا منبسطا فقد كانت له أبعاد كثيرة ، وما كان هناك شىء لا لون له فى حياته .

قرأت ما كتبه مؤلف عن محمد فكان من الجلى أنه لم يعادر نيو إنجلند أبدا حيث كان يعمل راعى كنيسة ، كانت آسيا وإفريقية أبعد عنه من الجنة والنار ، وبرغم ذلك سود ثلاثمائة صفحة استعرض خلالها حياة الرسول استعراضا وثيقا . كان أسلوبه مشرقا وكان يعرف الكتب المقدسة معرفة رائعة ويلم باللغة العربية إلماما سطحيا ولكنه كشف عن جهل فاضح ، فما كان يدرى كيف كان محمد يعيش ولا ما جاء به .

وما كان يدعو محمدا فى كتابه إلا باسم « الدجال » دون أن يوضح لنا كيف أن الدجال المزعوم قد دفع أتباعه المباشرين لفتح مساحة من الدنيا تبلغ رقعتها ثلاثة أمثال الولايات المتحدة ، وكيف أتاح للبشرية حضارة ما زالت حتى اليوم قائمة .

وإن جورج سيل الذى ترجم القرآن ترجمة طيبة فى أوائل القرن الثامن عشر ، والذى كان من الواجب أن يعرف محمدا معرفة أفضل ، صدر ترجمته بالآتى :

أخبرنا المؤرخون أن المدن الشهيرة المميزة على جميع المدن الأخرى فى التجارة والآداب تنازعت فيما بينها أيها كان لها شرف أن تكون مسقط رأس هوميروس .. وإن مثل هذا النزاع ليستحق الثناء لأنه يدل على رقى فكر رجال ذلك العصر . ولكن لما فحصت عن شخصية محمد فحصا دقيقا ألفيت الصورة فظيعة معيبة حتى إنه لمن الغريب أن مكان منبته لم تسدل عليه سدول النسيان ، إن أى قطر ليخجل من إنجاب مثل هذا المجرم ، ومع ذلك فقد كان توقير العرب لهذا المخاتل الكبير عميقا حتى إنهم لم يدعوا المكان الذى تنفس فيه أول ما تنفس يكتنفه ريبة أو غموض .

واستمر هكذا ، وإن التعليق الوحيد على ذلك هو أن تستعير الألفاظ من صفحات قصة محمد التى كتبها راعى كنيسة نيو إنجلند الذى ذكرناه آنفا :

« كيف استطاع مثل هذا المجرم ، مثل هذا المخاتل الكبير أن تأخذ ديانته فى الزوال كما حدث لكثير من ديانات العالم فإنها اليوم أقوى مما كانت ، ويزداد معتنقوها يوما بعد يوم ؟! » .

لم يبدأ سوء فهم المسيحيين للإسلام حتى أواخر أيام الرسول ، بل بدأ فى صورة جدية فى الحروب الصليبية الأولى ، وازداد سوء الفهم منذ ذلك الحين حتى إن لفظة « محمد » أصبحت بمعنى الكفر بالله . وتطورت لفظة

« المحمدية » فى أذهان معاصرى شكسبير حتى أصبحت بمعنى أية ديانة مزيفة وعلى الأخص الديانة التى تعبد الأصنام ، وأصبحت لفظة « محمد Mammets » تستعمل بمعنى أصنام ، واشتقت كلمة Mahomerie ثم كلمة Mummetry بمعنى مجوف من نفس المصدر .

وظهر محمد فى شعر القرن الثانى عشر كأمير من أمراء الإقطاع يتلقى الأوامر المسيحية المقدسة ، وأنه خلق ليكون كردنالا ، فلما أخفق فى أن ينصب نفسه بابا ثأر لنفسه بأن ابتدع دينا جديدا .

وكانوا يعتقدون حتى زمن قريب أن نعش محمد معلق بين السماء والأرض ، وقال المؤرخون دون خجل إن قبر محمد فى مكة ، وقال آخرون إنه مات من السكر وإن الخنازير أكلت جسمه ، فى حين أن محمدا حرم لحم الخنزير وحرم الخمر على نفسه وعلى أتباعه ، قد رقد رقدته الأخيرة فى المدينة مذ ثلاثة عشر قرنا مضت .

وقد يصادف المرء أحيانا كتابا من طراز جون سلون الذى أجهد نفسه فى دراسة دين العرب ، فقد قال ذلك الكاتب الذى عاش فى القرن السابع عشر : « إنهم يطلقون على الأوثان لفظة محمد Mammets وعلى عبادة الأوثان « المحمدية Mammetry فصارت محمد والمحمدية أسماء بغيضة ، فى حين أن العالم أجمع يعرف أن الترك (يقصد المسلمين) يحرمون الأوثان فى ديانتهم » .

كنت أحسب أن الافتراءات على محمد — ﷺ — قد خفت بعض الشىء بعد أن كتب بعض الكتاب الغربيين السيرة النبوية فى تفهم

وإنصاف ، وكنت أحسب أن الألفاظ النابية والصفات الذميمة للرجال العظام لم تعد تستعمل فى عصر العلم واحترام آراء الأغيار ، ولكنى عندما أقرأ فى كتاب الصرع للدكتور لينوكس الأمريكى :

Epilepsy By Wiliam G. Lonnox

صدمتنى عبارات نابية ما كنت أتوقع أن تصدر عن طبيب المفروض فيه أن يبحث عن الحقيقة للحقيقة فى القرن العشرين . لقد كان الدكتور لينكس أشد ضراوة فى عداوته لنبى الإسلام من راعى كنيسة نيو إنجلند الذى سخر منه بودلى ، بل وأبذأ منه عبارة ، ففى الجزء الثانى من كتابه الفصل ٢١ تحت عنوان « صرع ذوى القدرة والشهرة » راح يربط بين الصرع ومشاهير الرجال ويقرر فى إعجاب أن أرسطو كان أول من اهتدى إلى العلاقة بين الصرع والنبوغ ، وأنه قد وضع قائمة بأسماء النوابغ الذين كانوا مصابين بالصرع ، وقال الطبيب المؤلف بالحرف الواحد ... وإلى هذه القائمة أضيف قيصر وكاليجولا ومحمد البغيض The detestable Mahomets وكأنما أراد أن يؤكد ما وقر فى أذهان شانئى محمد من صلته بالأوثان فلم يكتب اسمه محمدا Mohamed كما فعل فيما بعد ، بل كتبه Mahomets لتثبيت فكرة عبادته للأوثان فى الأذهان !

وبهذا التقديم للبحث أهدر الدكتور نزاهة العلم وكرامة العلماء ، وأظهر حقدا دفينا على نبى الإسلام يبعده عن حياد الباحثين عن جوهر الحقيقة . ومن خطل الرأى أن يصف طبيب رسولا يؤمن به ملايين البشر ويحبونه بكل قلوبهم ذلك الوصف البذىء فى عام ١٩٦٠ ، ومن الأغرب

أن أطباءنا العرب الذين يتخذون هذا الكتاب مرجعا لهم لم يحركوا ساكنا ولم يبعثوا إلى الدكتور الذى استهوته فكرة فيلسوف بما يصححون به وجه الحقيقة ، لا تعصبا لنبى الإسلام بل حبا فى الحقيقة ذاتها .

التقط الدكتور لينوكس فكرة أرسطو القائلة بوجود علاقة بين الصرع والنبوغ فراح يسخر جهوده العلمية لتأكيد الفكرة ، فلم يبدأ محايدا كما يحتم العلم التجريدى بل بدأ مؤمنا بها لوى كل أبحاثه لإثباتها ، فتعلق بأوهى الأحداث وأضعف الروايات لتدعيم ما آمن به مسبقا ، فجاء بحثه مغرضا غير مبرأ عن الهوى وهذا أسوأ ما يوصم به بحث علمى ، فما بالك برأى طبيب يشخص الأمراض على مجموعة من الافتراضات والأوهام .

راح الدكتور لإثبات ما آمن به يعد الفلاسفة والمؤلفين والمعلمين والفنانين والموسيقيين والشعراء والأنبياء الذين ابتدعوا خير ما أنتجوه فى لحظة الصرع ، ولم يعتمد فى نسبة الصرع إلى العباقرة القدماء إلى أبحاث أطباء قدامى بل على ما أورده أفلاطون فى محاوراته ، كأنما كان أفلاطون يقيس بالأجهزة الحديثة ذبذبات المخ ويرسمه رسما كهربيا ، أو لكأنما قد حقن أفلاطون هؤلاء المشاهير حقنة قادرة على إحداث النوبة !

أكد البروفسور أن جميع العباقرة الذين عرفهم التاريخ مصابون بالصرع بناء على أقوال فلاسفة كأرسطو أو مؤرخين كهيرودوت قالوا فى وصف هؤلاء المشاهير إنهم أصيبو ذات يوم بصداع أو بإغماء أو بنشاط غير عادى فى معركة .

وتتراقص الآن على قلمى كلمة نابية أصف بها فعل الطبيب الكبير ولكن يمنعنى عن تسطيرها دينى الذى جاء به محمد — ﷺ — من عند الله ليغرس فى النفوس مكارم الأخلاق ، فقد علمنا رسول الله أن نجادل الناس بالتى هى أحسن ، ﴿ وربك الغفور ذو الرحمة لو يؤاخذهم بما كسبوا لعجل لهم العذاب بل لهم موعد لن يجدوا من دونه موئلا ﴾[1] .

تحدث الدكتور عن القادة الدينيين فأكد أن بولص الرسول كان مصابا بالصرع ، ثم ثنى بمحمد — ﷺ — فقال : « أما عن محمد (٥٦٩ — ٦٣٢) فيقول السير وليم مور « فى حياة محمد » إنه أصيب بإغماء مرتين : الأولى وهو فى الثانية من عمره مما دعا حاضنته إلى ترك رعايته والسهر عليه » . وقرر وودز (١٩١٣) أن محمدا كان يعانى نوبات صرع خفيفة ، وقد ظهرت الأعراض عليه وهو فى الثالثة من عمره واستمرت طوال حياته ، وتبعا لما قاله جابوسينياس Gabuscinius فقد حول محمد قلقه واضطرابه لمصلحته ، فعندما كانت زوجه فى ضيق من مرضه قال لها :

— عندما أنوء بوحى السماء أحس صداعا وترتجف بوادرى وهذا من شدة الوحى على الأنبياء ، وإنى أرجو أن أكون منهم .

فنظرت إليه على أنه مبعوث السماء ووثقت به وأيدته بكل أموالها .

ويقول وودز : وذات يوم بينما كان يتجول بالقرب من مكة وقد خطر له أن يتردى من شواهق الجبال (لانقطاع الوحى عنه) سمع صوتا ونظر

---

(١) الكهف ٥٨

فإذا بجبريل قد ملأ الفضاء يقول له : أنت رسول الله حقا ، فذهب إلى بيته ترتجف بوادره ثم انتابته النوبة ، فصبوا عليه الماء ولما أفاق رتل : ﴿ يا أيها المدثر * قم فأنذر * وربك فكبر * وثيابك فطهر * والرجز فاهجر * ولا تمنن تستكثر * ولربك فاصبر ﴾[1] . وكان يتبع الأعراض أحيانا هبوطا فى الروح المعنوية وصفيرا فى الآذان وصلصلة أجراس أو دويا كدوى النحل عند رأسه ، وارتجافا فى شفتيه ولكن هذه الحركة كانت إرادية ثم تثبت عيناه وتصبح حركة رأسه تلقائية ، وبعد دقائق قليلة تنتهى الغيبوبة وترتجف العضلات وبذلك تنتهى الأزمة . وفى بعض الأحيان عندما تكون النوبة شديدة يسقط مغشيا عليه ويروح فى غيبوبة ويحتقن وجهه ويضطرب نفسه ، ويستمر بعض الوقت على هذا الحال » .

هذا ما أخذه الدكتور لينوكس من مور وودز ليثبت به أن محمدا — ﷺ — كان مصابا بالصرع ككل العباقرة ومشاهير الرجال ، محاولا أن ينفي الإلهام أو النفث فى الروع أو الوحى ، وقد قصد بحالة الصرع الأولى التى انتابته وهو فى الثانية من عمره على رأى مور أو الثالثة من عمره على رأى وودز حادثة شق الصدر وعودة حليمة به إلى أمه ، وقد ناقشت بإسهاب موضوع شق الصدر فى الجزء السادس من السيرة وخلصت منها إلى أن الله سبحانه وتعالى قادر على تطهير قلب رسوله دون حاجة إلى إجراء عملية جراحية ، وقد ضعفت كل الأحاديث التى روت حادثة شق صدره فى صباه أو فى شبابه أو قبل أو يوحى إليه أو قبل أن يسرى به .

---

(١) المدثر ١ : ٧

وقصد بحالة الصرع الثانية لما فتر الوحى فترة حتى حزن النبى ـ ﷺ ـ فيما بلغنا حزنا غدا منه مرارا كي يتردى من رءوس شواهق الجبال ، فكلما أوفى بذروة جبل لكى يلقى نفسه منه تبدى له جبريل فقال : يا محمد إنك رسول الله حقا . فيسكن لذلك جأشه وتقر نفسه فيرجع . فإذا طالت عليه فترة الوحي غدا لمثل ذلك فإذا أوفى بذروة جبل تبدى له جبريل وقال له مثل ذلك . وهذه رواية الطبرى اعتمد عليها سير وليم مور وتلقفها الدكتور لينوكس ليؤكد بها أن محمدا حاول الانتحار وهو فى نوبة من نوبات الصرع . ورواية الطبرى لا يعول عليها لأن أحد رواتها وهو النعمان بن راشد ـ ضعيف ، ضعفه القطان والنسائى وابن معين وأدخله البخارى فى كتب الضعفاء وقال عنه إنه مضطرب الحديث روى مناكير .

ولو وضعنا هذا الحديث على مقياس العقل لرفضناه بداهة دون حاجة إلى تضعيف أحد رواته ، فما يعقل أن يهم موعود برسالة السماء ، بل من كلَّمه الروح الأمين وأمره بأن يقرأ قرآن ربه أن يحاول الانتحار لا لسبب إلا أن الوحى قد فتر عنه مدة .

وقبل أن أناقش الدكتور لينوكس فى هذا الموضوع سأورد ملخصا عن مرض الصرع كتبه كل من الدكتورين الفاضلين محمد عبد القادر أحمد وسعد الدين حشمت جادو بناء على طلبى :

« الصرع حالة مرضية متكررة تتميز فسيولوجيا باضطراب فى النشاط الكيميائى الكهربائى للمخ ، مما يؤدى إلى إرسال شحنات عصبية

غير طبيعية ، وتظهر هذه الشحنات على شكل أعراض كإغماء المريض أو اضطرابات فى إحساسه أو إتيانه بحركات لا إرادية ومعاناته من اضطرابات عاطفية ونفسية قد تصل إلى حالة الهياج .

وترجع أسبابه إلى عيوب خلقية ، أو أمراض أصابت الجنين أثناء وجوده فى بطن أمه ، أو إصابات أثناء الولادة المتعسرة ، أو إصابته بأمراض معدية بعد ولادته ، أو إصابة المخ بأورام أو اضطرابات فى الدورة الدموية .

وتنقسم نوبات الصرع إلى :

١ — نوبات مخية موضعية وينتج عنها : نوبات حركية جسمانية ونوبات حسية ونوبات لا إرادية ونوبات عاطفية أو نفسية .

٢ — نوبات مخية نتيجة لإصابة الجزء العلوى لجذر المخ وينتج عنها : نوبة الصرع الخفيفة ونوبة الصرع الشديدة ونوبات نفسية حركية .

وهناك أمراض أخرى ينجم عنها الصرع وأعراضه ، منها الأورام التى تصيب المخ ، وزيادة الضغط فى السائل النخاعى بالمخ ، والالتهاب السحائى ، وبعض الأمراض الخلقية التى تصيب المخ ، والزهرى إذا أصاب المخ ، وإصابات عظام الجمجمة التى تؤثر على المخ ، وحدوث نزيف فى الأوعية الدموية للمخ ، وأمراض تصيب الأعصاب ، وحالات التسمم بالكحول والرصاص ، وبعض الحميات التى تصيب الأطفال ، وتسمم البولينا ، وحالات الاحتباس البولى ، والهبوط المفاجئ لوظائف الكبد ، ونقص وظائف بعض الغدد الصماء .

وتظهر النوبات الحركية الجسمانية على هيئة حركات معينة فى اللسان أو زاوية الفم أو إبهام القدم ، أو تبدأ فى جزء من هذه الأجزاء ثم تنتشر فى الجسم كله ، ثم تنتهى بإصابة عامة للجسم وقد تأخذ صورة شلل عام يستمر زمنا بعد انتهاء النوبة .

وقد يتصلب الجسم والأطراف أحيانا مع فقدان الشعور . أما النوبات الحسية فتصيب حاسة من الحواس الخمس مثل النظر ، فقد يشعر المريض بعدم وضوح الرؤية ، وقد تصل إلى عدم الرؤية إطلاقا . أو يشعر المريض بتخدير فى جزء من جسمه ، أو يشعر بطنين فى أذنيه ، أو إحساس بالدوار ، أو شم رائحة غير موجودة .

أما النوبات اللاإرادية فلا يتحكم فيها المريض ، وقد تصحب النوبات الحركية أو النوبات الحسية وخاصة النوبات النفسية وقد يحدث عنها التبول اللاشعورى أو اضطرابات فى المعدة .

وفى حالة النوبات النفسية يهذى المريض أو يشعر بالغربة وهو بين أهله ، وتصدر عنه تصرفات غريبة ويقول أقوالا لا يعنيها ، ويصاب بحالة نسيان لفترة معينة ، وقد تحدث هذه النوبة أيضا بعد وقوع النوبة العصبية .

نوبة الصرع الخفيفة : تتميز بمفاجأة المريض وتدوم فترة قصيرة ، ولا تصحبها دلائل قبل وقوعها اللهم إلا اختلاج فى العينين ، وقد تحدث يوميا أو على فترات بين الفترة والأخرى شهور أو سنين ، وقد تختفى فى سن البلوغ .

وعند حدوثها تتحرك الأطراف أو يحدث ارتخاء فى عضلات الجسم ، ويسقط المريض على الأرض فاقد الوعى لمدة يستيقظ بعدها ولا يتذكر ما حدث .

نوبة الصرع الشديدة : وتظهر فجأة فى صورة تشنجات متجانسة ، وهذه مراحلها :

(أ) تخيلات وهمية يشعر بها المريض وحده ، وهى الإنذار بحدوث النوبة وتقع قبل حدوث التشنجات مباشرة أو مصاحبة لها ، وهى على هيئة هذيان أو شم رائحة غير موجودة أو سماع أصوات غريبة كطنين فى الأذن أو آلام فى المعدة .

(ب) ثم تحدث تشنجات وتكون مستمرة ومتجانسة لفترة ثوان ثم متقطعة ، وقد تبدأ بصراخ ثم يروح فى غيبوبة لا يشعر فى أثنائها المريض بنفسه .

(جـ) ثم تأتى فترة ما بعد التشنجات وانتهاء النوبة . فلا يعود المريض إلى حالته الطبيعية مباشرة بل يظل نائما أو فاقد الوعى مدة قد تمتد إلى ساعة من الزمن . وقد يصحبها صداع أو قىء أو آلام بالعضلات .

وقد يبدو أن المريض قد استرد وعيه إلا أنه يأتى بحركات غريبة ينساها تماما بعد أن يسترد وعيه فعلا ، بل ينكر حدوثها ولا يعرف ذلك إلا من هم حوله وقت وقوع النوبة ، وقد تنتاب المريض حالة هياج بعد فترة التشنجات ، أو يقوم بخلع ثيابه أو العبث فيما حوله أو الاعتداء على من حوله ، ولا يتذكر إطلاقا ما حدث من هذه التصرفات .

وقد يصاب المريض بشلل عام نتيجة إرهاق أعصابه ، ويستمر ذلك ٢٤ ساعة يعود بعدها إلى حالته الطبيعية .

ويتأثر وعى المريض فى النوبات النفسية الحركية ، وإن ظهرت منه حركات غريبة يظن أنها متعمدة وهى فى الواقع غير ذلك ، ويقل فيها الإحساس ويصاب المريض بحالة نسيان وتعتريه تأثرات عاطفية مثل الخوف أو الفرح أو البكاء .

هذه هى أسباب المرض وأعراضه ومقدمات النوبة ورواسب ما بعد النوبة ، ولو أن الدكتور لينوكس قد جزم بأن محمدا — ﷺ — كان مصابا بالصرع الخفيف الذى جاء فى أعراضه أن النوبة تدوم فترة قصيرة ولا تصحبها دلائل قبل وقوعها إلا اختلاج العينين والتى يسقط فيها المريض فاقد الوعى لمدة يستيقظ بعدها ولا يتذكر ما حدث . ولو أن دحض هذا الزعم ميسور بتأكيد أن محمد — ﷺ — كان يتذكر كل ما جاء به الوحى . بل كان يحس كأنما حفر فى قلبه ، كان يملى على كتاب الوحى عقب انفصام الوحى عنه مباشرة ما جاء به جبريل الأمين ، إلا أننى سأناقش كل ما ذكره الدكتور فى كتابه عن أسباب الصرع وأعراضه وسأحاول أن أطبقها على أطوار حياة محمد — ﷺ — منذ أن حملت به أمه آمنة بنت وهب حتى أن لحق بالرفيق الأعلى :

يقول الدكتور لينوكس : إن من أسباب مرض الصرع عيوبا خلقية تصيب الجنين وهو فى بطن أمه أو من أثر ولادة متعسرة وقد روت آمنة بنت وهب أنها لم تجد حملا أيسر من حملها بمحمد — عليه السلام — ،

وكانت ولادته ميسرة على الرغم من أنه ابنها البكر ، فإما أن نصدقها كما صدق الدكتور لينوكس روايات ضعيفة ساقها السير وليم مور فى كتابه « حياة محمد » وودز ، وإما أن نكذبها ونكذب فى نفس الوقت الروايات المتهافتة التى اعتمد عليها فى سوق حججه على إصابة محمد بالصرع .

وشب محمد قويا فى بادية بنى سعد ، وقالت حليمة السعدية إنه كان ينمو ويغلظ أكثر من كل من كانوا فى مثل سنه وأنه مشى ولم يتم من عمره سنة ، وتكلم بلسان فصيح وهو ابن سنتين ، موفور الصحة لم يشك مرضا قط ، بل كان يتسلق الجبال وهو فى الرابعة . وحديث حليمة إن كشف فإنما يكشف عن طفل قوى البنية ، أما حديث شق الصدر الذى جعل الدكتور لينوكس يؤكد إصابة محمد بالصرع فى طفولته فقد سبق أن ضعفته فى الجزء السادس من هذا الكتاب ، وقلت إنه وضع عن حسن نية لتفسير قوله تعالى : ﴿ ألم نشرح لك صدرك ﴾ .

قال الدكتور لينوكس إن الصرع الذى أصاب محمدا — ﷺ — من الصرع الخفيف . وقال إن هذا الصرع قد يختفى فى سن البلوغ ، فإذا كان الصرع قد أصابه وهو فى الثانية أو الثالثة من عمره فلماذا لم يختف لما وصل محمد — عليه السلام — إلى سن البلوغ ؟ إن الدكتور لينوكس يفترض أنه استمر معه وأنه هاجمه وهو فى غار حراء ، وراح يعدد صور الوحى ليؤكد ما وصل إليه فقال : إنه أراد أن ينتحر ، وأنه سمع صوتا فإذا بوهمه يصور له أنه رأى جبريل ، وأنه كان يسمع صلصلة أجراس أو دويا

كدوى النحل عند رأسه .

هذه هى الأعراض التى استند إليها لينوكس لتأكيد أن محمدا — ﷺ — كان مصابا بالصرع ، ولم يأت بجديد فى عام ١٩٦٠ فكل شانئى محمد — عليه السلام — من الغربيين قالوا بهذا الافتراء . أما أن محمد — صلوات الله عليه وسلامه — فكر فى الانتحار لما فتر عنه الوحى وأنه كلما هم بأن يتردى من شواهق الجبال ظهر له جبريل وقال له : أنت رسول الله حقا ، فالحديث الذى روى ذلك منكر ، وقول لينوكس بأن محمدا كان يسمع دويا كدوى النحل عند رأسه قول غير صحيح ، فالذين كانوا يسمعون دوى النحل هم الذين كانوا عند الرسول عندما ينزل عليه الوحى . فقد قال عمر رضى الله عنه : « إذا نزل على رسول الله — ﷺ — الوحى يسمع عند وجهه كدوى النحل » فهل من أعراض الصرع أن يسمع من حول المريض أصواتا كدوى النحل ؟!

وقال — ﷺ — إن الوحى يأتيه فى صوت كصلصلة الجرس أحيانا ، فصلصلة الجرس صفة للصوت الذى يوحى إليه ، فيا ترى كيف كان الله يوحى إلى موسى ؟ ألم يكن الصوت من صور الوحى الذى نزل على كليم الله ؟! وبماذا يريد الدكتور لينوكس أن يوحى الله إلى أنبيائه إن لم يكن بصوت من الأصوات أو بإلهام من الإلهامات أو بنفث فى الروع ؟

لو أن الدكتور لينوكس قد أنكر الوحى كلية لما فكرنا فى عتابه ، ولكنه عندما كان يذكر العظماء المصابين بالصرع لم يذكر موسى عليه السلام مع أن التوراة تؤكد أن موسى خر صعقا لما سأل الله أن يتجلى

عليه ، فإن كان الدكتور قد أقر بنزول الوحى على موسى فلماذا ينكر نزوله على محمد — ﷺ — ؟ لو كان الدكتور عالما مجردا عن الهوى وسلم بنزول الوحى على موسى — عليه السلام — ، أو أى من الرسل الذين يؤمن بهم لوجب عليه أن يسلم بنزول الوحى على محمد — ﷺ — . فالحقيقة لا يمكن تجزئتها ولا يعقل أن نعترف بها مرة وننكرها مرة أخرى .

إننا أمام حالة من حالتين : فإما أن الدكتور لينوكس يؤمن بالوحى وبنزوله على موسى — عليه السلام — وفى هذه الحالة لا مفر من اعترافه بنزوله على نبى الإسلام ، وإما أنه لا يؤمن بالوحى ولم يذكر موسى — عليه السلام — بين المصابين بالصرع خشية من يهود أمريكا ، فهو فى كلتا الحالتين أهدر نزاهة العلم وكرامة العلماء .

وأحب أن أسأل الدكتور لينوكس : لماذا لم يتعرض لصور الوحى الأخرى التى ذكرها محمد — ﷺ — ؟ ألأنها لا تخدم غرضه ، وهل من الأمانة العلمية سرد بعض صور الوحى دون بعض ؟ قال — ﷺ — : وإن جبريل ليأتينى فيكلمنى كما يأتى أحدكم صاحبه . إنه كان يكلمه ويبصره بغير حجاب ولا غيبوبة ، وكان يأتيه على صورة دحية الكلبى أو على صورة غيره ، وإن ظهور جبريل بصورة رجل كان تأنيسا لمن يخاطبه .

قال عمر رضى الله عنه : بينا نحن عند رسول الله — ﷺ — ذات يوم طلع علينا رجل شديد بياض الثياب ، شديد سواد الشعر ، لا يرى عليه أثر السفر ، ولا يعرفه منا أحد ... وقد عُرف بعد انصراف الرجل أنه

جبريل . فهل كان كل الجالسين مصابين بالصرع ؟

ويقول بودلى : « وقد أُمليت كل كلمة من كلمات القرآن عقب صفاء ذهنه من أثر الوحى ، ويؤكد الأطباء أن المصاب بالصرع لا يفيق منه وقد ذخر عقله بأفكار رائعة ، وأنه لا يصاب بالصرع من كان فى مثل الصحة التى يتمتع بها محمد » .

إن محمدا — ﷺ — فى جميع غزواته كان القوى الذى يقرع الخطوب لا المتهافت الذى يسقط على الأرض مغشيا عليه ، وإنه فى غزوة تبوك وقد تجاوز الخمسين وكانت فى الحر الشديد تحمل متاعب الطريق والحر والعطش وكان أكثر حيوية من كثير من الشباب الذين كانوا فى الجيش ، فهل يحتمل أن يكون ذلك الذى تخفق الصحة بين جنبيه مصابا بالصرع ؟!

ويقول بودلى : « ما كان الصرع ليجعل من أحد نبيا أو مشرعا ، وما رفع الصرع أحدا إلى مراكز التقدير والسلطان يوما . وكان من تنتابه مثل هذه الحالات فى الأزمنة الغابرة يعتبر مجنونا أو به مس من الجنون ، وإن كان هناك من يوصف بالعقل ورجاحته فهو محمد » .

ويقول الأستاذ عباس محمود العقاد : « لقد مات عبد الله وآمنة ولما يجاوزا الخامسة والعشرين . ولا يكون الموت فى هذه السن إلا علامة على الضعف والهزال إن لم يكن من مرض يستنفد الأجل فى عنفوان الشباب .

فهل كان محمد — عليه السلام — سليل أبوين ضعيفين هزيلين ؟

إن لم تكن غرابة الالتقاء بين الأبوين على هذا الضعف كافية لوضع هذا الظن ، فلا حاجة إلى دافع له غير حياة الوليد بما استوفته من قوة الروح وقوة الجثمان .

وقد سأل أناس من كتاب العرب هذا السؤال وخيل إليهم أنهم وجدوا جوابه فى قصة الصرع المزعوم قبل الفطام ، وفيما كان يعروه من برحاء الوحى التى وصفها الأقربون منه وأيسرها أنه كان — عليه السلام — يرعد ويضطرب ويتقاطر منه فى اليوم الشاتى عرق كحب الجمان .

وعجيب أن يصاب الإنسان بصرع لا يعروه غير مرة واحدة فى سن الرضاع ، ثم لا يعاوده مرة أخرى إلى قرابة الأربعين .

وأعجب منه أن يصاب به بعد الأربعين فى حال واحدة : حين يتلقى الوحى ، ثم لا يصاب به مرة فى غير تلك الحال .

ولكن ليس بالعجيب أن تجيش بنية اللحم والدم من أعماقها فى غاشية كغاشية الوحى كائنا ما كان قوام البدن الذى تغشاه .

ولا نعلم أن أحدا من الأنبياء وصف لنا كما وصف محمد — عليه السلام — فى كل لمحة من لمحاته وفى كل حركة من حركاته وفى يقظته ورقاده وفى حديثه وصمته وفى جلوسه وسيره وفى ركوبه وارتحاله ، فلم تكن له صفة قط فى كل أولئك غير صفة البنية السوية والخلق القويم .

كان باتفاق واصفيه فوق المربوع ، بعيد ما بين المنكبين ، غزير الشعر ، تلمس جمته شحمة أذنيه ، شثن الكفين والقدمين ، ضخم

الكراديس — أى ملتقى العظام — ولم يكن بالمطهَّم ولا بالمكلثم[1] ، أدعج العينين ، أهدب الأشفار ، إذا مشى تقلع كأنما ينحط من صبب ، ذريع الخطوة سائل الأطراف .

والنطق أبين عن حالات الصرع من سائر الصفات ، وما وصف منطق النبى بشىء ينم على اضطراب فى عصب أو فى عضل أو ينبئ عن عرض من الأعراض غير سليم أو قويم : كان ضليع الفم يتكلم بكلام بين فَصل مفسر ، إذا أشار أشار بكفه كلها ، وإذا تعجب قلبها ، وإذا تحدث اتصل بها — أى صحب كلامه بما يوافقه من حركتها — وإذا غضب أعرض وأشاح ، وإذا فرح غض طرفه . جل ضحكه التبسم ، ليس بصخاب ولا يرتفع له صوت فى غير دعاء .

وهذه صفات كلامه من أكثر من عشرين مصدرا جمعها أبو عيسى الترمذى صاحب الشمائل المحمدية ، ولم يأت بين ثناياها مسانح اشتباه فى عرض من أعراض خلل الصرع والاضطراب ، بل هى كلها توكيد للمنطق السليم والخلق القويم » .

وفترة انقطاع الوحى عن رسول الله — ﷺ — خير دليل على صدق الرجل ، فلو كان الرسول الكريم غير صادق مع نفسه لأخفى عن الناس جميعا هذه الحقيقة ، ولو كان القرآن من عنده فما الذى جعله يفزع لغياب جبريل عنه ! ولماذا احتمل سخرية شانئيه ؟ لو كان الأمر بالبساطة التى

---

(١) المطهم : المنتفخ الوجه ، والمكلثم : المدور ، والأهدب : طويل أهداب العين مع انعطاف .

يصورها الكتاب الغربيون لعكف محمد — عليه السلام — فى داره ليلة أو بعض ليلة وألف قرآنة ، ولوفر على نفسه المحنة التى احتملها لما غاب عنه الوحى .

وقيل إن مدة فترة انقطاع الوحى كانت أربعين يوما وقيل خمسة عشر يوما وقيل اثنى عشر يوما ، وجزم ابن إسحاق بأنها ثلاث سنين ، وقال السهيلى : إن مدة هذه الفترة كانت سنتين ونصف سنة . وقد أخذت بالقول الذى حددها بأربعين يوما لا لأن ذلك هو المشهور وحسب بل لأن أبا سفيان قد خرج إلى اليمن فى تجارة قريش قبل البعثة وعاد منها بعد خمسة أشهر فوجد أصحاب محمد — ﷺ — يعذبون ، فلو كان حديث أبى سفيان صحيحا فلا يجوز أن تطول مدة انقطاع الوحى عن المدة التى استغرقها أبو سفيان فى دهابه إلى اليمن وعودته منها .

وتعود بعض المؤرخين الغربيين الذين يقرءون التوراة فلا يجدون فيها ذكرا للجنة والنار أن يسخروا من الجنة التى وعد الله بها المتقين فى الإسلام ومن النار التى أعدت للمجرمين ، ونسوا أن التوراة التى بين أيديهم قد كتبها اليهود فى المنفى بعد أن أحرق بختنصر جميع نسخ التوراة الأصلية . وكانوا متأثرين بالديانة البابلية التى تقول إن الذين يموتون يذهبون إلى الأرض التى لا رجعة منها .

قالوا إن النعيم السماوى كما وصفه القرآن من النقائص التى تقدح فى العبادة النزيهة ، متناسين أنه ما من دين سماوى خلا من مبدأ الثواب والعقاب ، بل وما من دين من أديان الوثنيين إلا وقد وعد المؤمنين براحة

بعد الموت أو بحياة دنيوية سعيدة أو بعذاب حتى فى الأرض التى لا رجعة منها أو بعذاب فى الدنيا ، فليس من العدل ولا من النزاهة التسوية بين الصالحين والطالحين والمصلحين والمفسدين .

إن العبادة النزيهة هى عبادة الله وحده ، إلٰه عادل لا فرق عنده بين أمة وأمة ، ليس إلٰه شعب دون شعب ، ولا فرق بين أسود وأبيض أمام عدالته فهو رب الناس جميعا ، إلٰه الناس جميعا ، لا ينظر إلى ألوان عباده ولا إلى عصبية عباده ، فهو إلٰه البشر جميعا يحاسبهم على أعمالهم . وهذا هو الإلٰه الذى دعا محمد — ﷺ — إلى عبادته ، وهذا هو دين الإنسانية الذى أنزله الله جل شأنه على رسوله — عليه السلام — ، وهذه هى نزاهة العبادة فلا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى .

﴿ يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا * إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾(١) . ﴿ وما أرسلناك إلا كافة للناس ﴾(٢) . ﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾(٣) .

وحاولت أن أهتدى فى ترتيب أحداث السيرة بعد الرسالة بترتيب نزول الآيات ، فلما عدت إلى المصحف الشريف الذى بين أيدينا ورتبت السور حسب نزولها اعتمادا على ما ورد فيه وجدت أن أول سورة نزلت هى اقرأ ، ثم المزمل ، ثم المدثر ، ثم ن والقلم ، فالفاتحة ، فالمسد ، فالتكوير ، فالأعلى ، فالليل ، فالفجر ، فالضحى ، فالشرح ، فالعصر ،

---

(١) الحجرات ١٢ (٢) سبأ ٢٨ (٣) الأنبياء ١٠٧

فالعاديات ، فالماعون ، فالكافرون ، فالفيل ، فالناس ، فالإخلاص ، فالنجم ، فعبس ، فالقدر ، فالشمس ، فالبروج ، فالتين ، فقريش ، فالقارعة ، فالقيامة ، فالهمزة ، فالمرسلات ...

فلما اتبعت ذلك الترتيب وجدت أن الضحى تأخرت كثيرا عن زمنها التاريخى ، فقد قال الناس : إن ربه — ﷺ — قد قلاه لما فتر الوحى عنه ، فلما نزل الوحى عليه — ﷺ — بعد فترة الوحى قال كتاب السيرة إنه نزل عليه بسورة الضحى بعد المزمل والمدثر لتأكيد أن ربه ما ودعه وما قلاه . ورأيت أن كتاب السيرة على حق فى ذلك القول فرجعت إلى مصحف ابن عباس فوجدته قد رتب السور فى مصحفه على النحو الآتى : اقرأ ، ن والقلم ، والضحى ، المزمل ، المدثر ، الفاتحة ، تبت ، كُوِّرت ، الأعلى ، والليل ، والفجر ، ألم نشرح ، الرحمن ، والعصر ، الكوثر ، التكاثر ، الدين ، الفيل ، الكافرون ، الإخلاص ، النحل ، الأعمى ، القدر ... فاسترحت إلى ترتيب ابن عباس ، فلما نزلت آية الإنذار ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾[1] وهى فى سورة الشعراء رجعت إلى ترتيب النزول فى المصحف ، فوجدت أن ترتيب نزولها متأخر جدا عن أحداث السيرة ، فهى بعد ق ، والبلد ، والقمر ، وص ، والأعراف ، والجن ، ويس ، والفرقان ، وفاطر ، ومريم ، وطه ، والواقعة ، وعدت إلى مصحف ابن عباس فوجدت أن ترتيب

---

(١) الشعراء ٢١٤

« الشعراء » بعد والشمس ، البروج ، التين ، قريش ، القارعة ، القيامة ، الهمزة ، والمرسلات ، ق ، البلد ، الطارق ، القمر ، ص ، الأعراف ، الجن ، يس ، الفرقان ، الملائكة ، مريم ، طه ، الشعراء ، فأكدت أن ترتيب السور حسب النزول فى المصحف أو فى مصحف ابن عباس لن يفيدنى فى ترتيب أحداث السيرة ، فإن أردت أن يكون نزول القرآن مرشدى فى سرد وقائع السيرة العطرة ، فعلى أن أرتب الآيات حسب نزولها ولكن ذلك شيء عسير ، فالقرآن نزل منجما ولم ينزل جملة واحدة ، يشرع للناس ويتابع الأحداث : ﴿ ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا ﴾[1] . ﴿ وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا ﴾[2] .

وقد استنكر أعداء الإسلام أن ينزل القرآن منجما وقالوا : « لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة » وكان جواب الله تبارك وتعالى : ﴿ كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا ﴾[3] أى جعلناه بعضه فى إثر بعض .

وكان النضر بن الحارث يستهزئ القرآن ، وكلما جاء فيه ذكر عاد وثمود قال : أساطير الأولين ، قاصدا بذلك أن ما يروى عن عاد وثمود إنما هو حديث خرافة كالأحاديث التى يرويها عن رستم واسفنديار التى جاء بها من الحيرة وبلاد الفرس . وعدم تصديق ما جاء به القرآن عن عاد وثمود قد يعود إلى أن التوراة التى بين أيدى الناس سكتت عن الحديث عن هؤلاء

---

(١) الفرقان ٣٣ (٢) الإسراء ١٠٦ (٣) الفرقان ٣٢

الأقوام ، وسبب سكوتها قد يرجع إلى المنافسة الشديدة التى كانت بين بنى إسرائيل وبنى إسماعيل فى الوقت الذى أعاد اليهود فيه كتابة التوراة فى المنفى ، فاليهود كانوا مشردين بينا كانت دولة بنى إسماعيل مزدهرة فى أرض النبط . وكانت عاصمتهم البتراء تنافس بابل ودمشق ومنف بل وروما ، فلا يعقل أن اليهود لم يعرفوا العرب قوم عاد وثمود . وقد ذكر بطليموس فى أطلسه مواقع عاد وثمود . إن الحاقدين على الإسلام حاولوا بكل ما وسعهم الجهد أن ينكروا أن عادا وثمودا كانتا حقيقة واقعة لتجريح القرآن والتشكيك فيه ، ولكن عادا وثمودا قد أقر بوجودهما التاريخ القديم والتاريخ الحديث على السواء والأطالس التى وضعت قبل الإسلام بمئات السنين ، وإن كل المحاولات التى بذلت والتى ستبذل لأهون من أن تنال من الكتاب المبين .

القاهرة فى ١٩٦٨/٣/٥

المراجــع

القرآن الكريم	
الكتاب المقدس	
صحيح البخارى	
السيرة النبوية	لابن هشام
أسباب النزول	للواحدى
الطبقات الكبرى	لابن سعد
الروض الآنف	للسهيلى
تاريخ الأمم والملوك	للطبرى
العقد الفريد	لابن عبد ربه
الأغانى	لأبى الفرج الأصفهانى
بلوغ الأرب	للألوسى
نهاية الأرب	للنويرى
الملل والنحل	للشهر ستانى
السيرة الحلبية	لعلى برهان الدين الحلبى
إحياء علوم الدين	للغزالى
الشفا فى تعريف حقوق المصطفى	للقاضى عياض
وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى	للسمهودى
الرسول . حياة محمد ـــ لبودلى	ترجمة محمد محمد فرج وعبد الحميد السحار
مطلع النور	لعباس محمود العقاد
البداية والنهاية	لابن كثير
إيران فى عهد الساسانيين	لكريستينس ـــ ترجمة يحيى الخشاب

معاوية	إبراهيم الإبيارى
أخبار قريش	الزبير بن بكار
تفسير سورة العلق	
مقدمة ابن خلدون	

Epilepsy, by William G. Lonnox.

A Theological Word Book of the Bible, by Richardson.

Islam and Theory of Interest, by Anwar Eqbal Quershi.

الدكتور م . جمال الدين عياد

رقم الإيداع ٣٥٥٩
الترقيم الدولى × ــ ١٤٨ ــ ٣١٦ ــ ٩٧٧